الجمهورية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة غرداية

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

قسم التاريخ

مذكرة تخرج لنيل شهادة ماستر في تاريخ المغرب العربي المعاصر

بعنوان :

التغلغل الاستعمار الفرنسي

في الجنوب الغربي في النصف الثاني من القرن 19 م

اعداد الطالبة :

بودنة هيام

إشراف :د/ محمد محدادي

المشرف المساعد : د/ عمر بن قايد

اللجنة المناقشة :

الاسم و اللقب	الجامعة	الصفة
د/ ناصر بلحاج	جامعة غرداية	رئيساً
د/الشيخ لكحل	جامعة غرداية	مناقشاً

السنة الجامعية : 2025 / 2026 م


بسم الله الرحمن الرحيم

اهداء

الى من كان لهم الفضل بعد الله في بلوغ هذه المرحلة

إلى من غرسا في نفسي الطموح والصبر، وكان دعاؤهما سندي في كل خطوة، والديّ العزيزين، أطال الله في عمرهما وحفظهما.

إلى إخوتي وأخواتي، وكل من شاركني لحظات التعب والتشجيع والدعم.

إلى أساتذتي الأفاضل الذين أناروا لنا طريق العلم والمعرفة.

أهدي ثمرة جهدي هذه، راجيةً من الله أن يجعل فيها الخير والنفع.

شكر وتقدير

الحمد لله حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه

أتقدم بخالص الشكر وعظيم الامتنان إلى أستاذيا الفاضلين على ما قدماه من توجيهات قيمة ونصائح علمية أسهمت في إنجاز هذه المذكرة الدكتور **محمد محمادي** و الدكتور **عمر بن قايد** .

كما أتوجه بالشكر إلى جميع أساتذة القسم على ما بذلوه من جهود في سبيل تعليمنا وتكويننا العلمي.

وفي الأخير، أتقدم بالشكر لكل من ساهم في إنجاز هذا العمل، ولو بكلمة طيبة أو دعاء صادق.

قائمة المختصرات:

تر: ترجمة.

ج.جزء .

ص : صفحة.

ط : طبعة.

ع : عدد.

مج : مجلد .

مر : مراجعة .

Ed: édition.

Ed: édition.

P: Page

Pp: Pages continues

T: Tome

المقدمة

المقدمة:

كان الجنوب الجزائري ولاسيما الجنوب الغربي منه قبل الوجود الفرنسي يعيش حركية اجتماعية واقتصادية تميزت بنظام سياسي الذي عرف بازدواجية السلطة بين السلطة السياسية والدينية ونظام اقتصادي منظم تميز بشبكات تجارية واسعة الذي جعل منها منطقة ذات عمق استراتيجي. الا انه ومنذ النصف الاول من القرن تاسع عشر مثل الجنوب الغربي في رؤية الاستعمارية العمق الحيوي الذي تكتمل به عمليتها الاستعمارية، فبعدما أكملت سيطرتها على السهول الشمالية والتل اتجهت انظارها الى الجنوب مدفوعة بأهداف سياسية واقتصادية وعسكرية لتحقيق مشروعها الرامي الى تكوين امبراطورية استعمارية مترابطة في افريقيا.

فكان الامتداد اليه خطوة أساسية في استراتيجيتها الاستعمارية، لذلك مرّ التغلغل الفرنسي في الجنوب الجزائري بمراحل مدروسة، التي بدأت باختراق المنطقة عبر ما عُرف بالتغلغل السلمي متسترةً بالبعثات الاستكشافية، مقرونة بتحالف مع القيادات المحلية و منها الدينية محاولة منها لفهم البنية الاجتماعية و الاقتصادية و اختراقها عبر هذا الفهم .

إلا أنها سرعان ما اتجهت الى المواجهة العسكرية المباشرة، لكنها في المقابل واجهت مقاومة شعبية تمثلت في المقاومة القبلية متحالفة بقيادة شيوخ قبائل وزوايا المنطقة الرافضين للوجود الأجنبي لاسيما عندما بدا لهم التدخل في شؤونهم الدينية ، مما خلف هذا تحولات مست البنية السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية و التي تمثلت في إعادة هيكلت الأنظمة و تغيرها بما يخدم مصالحها .

و في هذا الاطار جاءت هذه الدراسة الموسومة ب **التغلغل الاستعمار الفرنسي في الجنوب الغربي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر 1844 1902** لتسليط الضوء على مختلف جوانب الموضوع ، و كشف عن أبعاد التغلغل السياسية و الاجتماعية و الاقتصادية ، من خلال تتبع أهم التطورات و الاحداث المرتبطة به خلال الفترة الزمنية المحددة للدراسة .

دواعي اختيار الموضوع:

هناك جملة من الأسباب والدوافع التي حفزتني للبحث في موضوع التغلغل الاستعمار الفرنسي في الجنوب الغربي الجزائري خلال القرن التاسع عشر منها الذاتية ومنها الموضوعية يمكنني ايجازها فيما يلي: الدوافع الذاتية :

- الرغبة الشخصية في دراسة تاريخ الجنوب الجزائري والتعرف على خصوصياته السياسية والاجتماعية والاقتصادية.
- قلة اطلاعي المسبق على تاريخ الجنوب الغربي الجزائري، مما دفعني إلى البحث والتعمق في هذا الموضوع.
- البعد الجغرافي عن مناطق الجنوب الغربي، الأمر الذي زاد من فضولي العلمي لمعرفة طبيعة المنطقة وتاريخها.

الدوافع الموضوعية :

- التعرف على طبيعة المجتمع الصحراوي وتنظيماته السياسية والاجتماعية قبل الاحتلال.
- إبراز الأهمية الاستراتيجية للجنوب الجزائري في السياسة الاستعمارية الفرنسية.
- تسليط الضوء على مراحل التغلغل الاستعماري الفرنسي وأساليبه في المجال الصحراوي.
- إبراز أشكال المقاومة المحلية التي واجهت التوسع الاستعماري في الجنوب الجزائري.

إشكالية البحث :

مر الجنوب الغربي منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر بمرحلة تمثلت بالتواجد الاستعماري الفرنسي ، الذي سعى الى فرض نفوذه بمختلف الوسائل السياسية و العسكرية الأمر الذي احدث تحولات عميقة مست البنية السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية . ومن هذا المنطلق تبرز الإشكالية التالية :

كيف تطور التغلغل الاستعماري في الجنوب الغربي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر من مرحلة الاستكشاف والاختراق السلمي الى احتلال عسكري مباشر ، و ما آثر ذلك على البنية السياسية و الاقتصادية والاجتماعية للمنطقة ؟

ويتفرع عن هذه الإشكالية الأسئلة التالية:

- كيف كانت أوضاع الجنوب الغربي الجزائري السياسية والاجتماعية والاقتصادية قبيل التغلغل الاستعماري؟
- في ما تمثلت الأهمية الاستراتيجية للجنوب الغربي الجزائري ؟
- وكيف تشكلت الرؤية الاستعمارية الفرنسية للمنطقة ؟
- ما أشكال المقاومة التي واجهت التوسع الفرنسي في الجنوب؟
- و الى أي مدى ساهم الاستعمار في تغيير النظام الصحراوي ؟

أهمية الدراسة :

تكمن أهمية هذا الموضوع في كونه يدرس تسلسل الاحداث ومراحل التي مر بها الجنوب الغربي الجزائري في ظل الاستعمار الفرنسي بداية من تسليط الضوء عن أوضاع المنطقة قبيل التغلغل مع ابراز الأهمية جيوسياسية و اقتصادية التي من خلالها تشكلت الرؤية الاستعمارية ، انتقالا الى الاختراق العلمي مصحوبا بالاختراق نظام السياسي و الديني عبر إقامة تحالفات مع زعماء القبائل، مرورا الى الاحتلال العسكري المباشر و ردود فعل من مقاومة ، الى احداث تغير في الهيكل السياسي و الاقتصادي و العسكري .

أهداف الدراسة :

يهدف هذا الموضوع إلى دراسة أوضاع الجنوب الجزائري قبيل التغلغل الاستعماري الفرنسي والتعرف على مختلف الوسائل التي اعتمدتها فرنسا لاختراق المنطقة والسيطرة عليها. كما يسعى إلى إبراز مراحل الاحتلال العسكري للجنوب وأشكال المقاومة التي واجهت التوسع الفرنسي، إضافة إلى تحليل النتائج السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي خلفها الاستعمار في المجال الصحراوي الجزائري.

الإطار الزماني و المكاني :

يمتد **لإطار الزماني** لهذه الدراسة من النصف الثاني للقرن 19 م الى العقد الأول من القرن 20م ، بين سنتي 1844م و1902م، وهي مرحلة ارتبطت بتطور التغلغل الاستعماري الفرنسي نحو الجنوب الغربي الجزائري. وقد تم اختيار سنة 1844م كبداية للدراسة لكونها جاءت عقب معركة إيسلي التي شكّلت منعطفاً مهماً في السياسة التوسعية الفرنسية ومهّدت لتوجيه الاهتمام نحو المناطق الجنوبية والغربية للجزائر.

أما سنة 1902م فتم اعتمادها كنهاية للدراسة باعتبارها السنة التي تمكنت فيها السلطات الاستعمارية من فرض سيطرتها على واحات الجنوب الغربي و بداية إخضاعها للإدارة العسكرية الفرنسية، بعد سلسلة من الحملات العسكرية والمواجهات مع المقاومة المحلية . كما اقتضت طبيعة الدراسة العودة الى الفترة السابقة لسنة 1844 م ، من أجل ابراز أوضاع المنطقة قبيل التغلغل الاستعمار الفرنسي .

اما **لإطار المكاني** للدراسة قد حصرته في الجنوب الغربي الجزائري الذي يمتد من منطقة عين الصفراء و توات، قورارة، تيديكلت، والساورة ، فكان اختيار هذا الاطار المكاني باعتبارها ان المنطقة شهدت تطورات و أحداث في الفترة المعالجة تمثلت في انتقال النفوذ الاستعماري من تخوم الصحراء عين الصفراء الى عمق واحات الجنوب الغربي .

خطة البحث :

و للإجابة عن الإشكالية المطروحة و ما تفرع منها قسمت الدراسة الى اربع فصول كل فصل اندرج تحته ثلاث مباحث و تحت كل مبحث عناصر .

خصص **الفصل الأول** لدراسة الأوضاع العامة للجنوب الجزائري قبيل التغلغل الاستعماري الفرنسي، وذلك من خلال التطرق في المبحث الأول إلى البنية السياسية والاجتماعية، مع إبراز القبائل والقيادات المحلية والزوايا الدينية ونظام التحالفات السائد آنذاك. كما تناولت في المبحث الثاني الجانب الاقتصادي من خلال دراسة نشاط القوافل التجارية الصحراوية وعلاقات الجنوب الجزائري بمناطق السودان الغربي وتمبكتو إضافة إلى دور الواحات في الاقتصاد الصحراوي. وفي المبحث الأخير،

تم تسليط الضوء على الأهمية الاستراتيجية للجنوب الجزائري، من خلال التطرق الى امتدادها إفريقي و دورها الدفاعي ، إلى جانب الرؤية الجيوسياسية الفرنسية للمنطقة وأهدافها التوسعية فيها.

اما **الفصل الثاني** ، تناولت مرحلة الاستكشاف والاختراق السلمي للجنوب الجزائري ما بين 1844 و1881، حيث تطرقت في **المبحث الأول** إلى البعثات العسكرية والعلمية ودورها في جمع المعلومات ورسم الخرائط. أما **المبحث الثاني** فقد خصص لدراسة سياسة الاختراق غير المباشر التي اعتمدتها فرنسا عبر التحالفات واستمالة الزوايا والتغلغل التجاري. وفي الأخير عالج **المبحث الثالث** ردود الفعل المحلية وبدايات المقاومة تجاه التوسع الفرنسي.

و في **الفصل الثالث** خصص لدراسة مرحلة الاحتلال العسكري للجنوب الجزائري ما بين 1881 و1902، حيث تناول **المبحث الأول** الحملات العسكرية الكبرى والسيطرة على الطرق التجارية وبناء مراكز عسكرية . أما **المبحث الثاني** فقد تطرق إلى المقاومة الصحراوية ودور القبائل والزوايا في مواجهة التوسع الفرنسي. بينما في **المبحث الثالث** عالج سياسة إخضاع المجال الصحراوي من خلال الإدارة العسكرية وإعادة تنظيم القبائل وفرض الحدود الاستعمارية.

و في **الفصل الرابع** تناول أبرز نتائج التغلغل الاستعماري في الجنوب الجزائري، حيث خصص المبحث الأول لدراسة التحولات السياسية التي مست السلطة التقليدية وبروز الإدارة العسكرية. أما المبحث الثاني التحولات الاقتصادية وانعكاسات السيطرة الاستعمارية على التجارة الصحراوية. في حين المبحث الثالث تطرق إلى التحولات الاجتماعية والثقافية، من خلال تراجع دور الزوايا وإعادة تشكيل البنية القبلية وبداية الإدماج الاستعماري للصحراء.

وأخيرا الخاتمة التي تناولتا فيها ما توصلنا اليه من نتائج في الدراسة ، كما كان من الضروري ارفاق هذه الدراسة بمجموعة ملاحق جداول و خرائط .

منهجية الدراسة:

للإجابة على تلك التساؤلات و لدراسة الموضوع ، اعتمدنا فيه على المناهج التالية :

_ المنهج الوصفي وهذا لوصف البنية الاجتماعية والقبلية قبيل التغلغل والمسارات الجغرافية للبعثات الاستكشافية ، و أهم المعارك و المقاومات التي جرت في المنطقة ، كما اعتمدنا على المنهج

التحليلي النقدي وكان لتحليل النصوص الاستعمارية الفرنسية، وكشف خلفياتها الاستعمارية وراء التقارير الاستكشافية ، كما استخدمنا المنهج المقارن للمقارنة بين مواقف القبائل والزوايا المختلفة تجاه التغلغل الفرنسي للمنطقة .

الدراسات السابقة :

و فيما يخص الكاتبات التاريخية المرتبطة بالجنوب الغربي، فهي متعددة من حيث البحوث الأكاديمية و المصادر و المراجع و بين اهم الدراسات التي اراها قريبة من هذا البحث نذكر منها :

منها المصادر

- رحلة الأغواطي الذي اعتبره من اهم المصادر التي تكلمت عن المنطقة .
- كاميل صباتير Camille Sabatierبعنوان توات الصحراء و السودان : دراسة جغرافية سياسية اقتصادية و عسكرية ، و التي ساعدتني في فهم أوضاع المنطقة السياسة و الاجتماعية و الاقتصادية كما ساعدتني في فهم مخططات الفرنسية.
- Guillaume Champeauxبعنوان عبر الواحات الصحراوية الذي تناول في كتابه هو الاخر أحوال المنطقة بعد الاستعمار و قبله.و نجد أيضا ، كتاب لدكتور كاسيه في الجنوب الوهراني بعنوان ذكريات طبيب عسكري كما ساعدني كذلك في فهم أحوال المنطقة خاصة منها الاجتماعية.

اما في ما يخص المراجع منها

- كتاب الدكتور إبراهيم مياسي بعنوان الاحتلال الفرنسي للصحراء الجزائرية 1837 1934 الذي يعتبر من أهم المراجع في الموضوع و الذي خصص فيه باب تكلم عن الاحتلال الفرنسي في الجزء الجنوبي الغربي من مرحلة البعثات الاستكشافية الى احتلال المنطقة .
- كتاب إبراهيم مياسي بعنوان التوسع الاستعمار الفرنسي في الجنوب الغربي للجزائر 1881 1912 التي من بين اهم الدراسات التي تناولت الجنوب الغربي و التغلغل الاستعماري فيها .

- كتاب فرج محمود فرج ، إقليم توات خلال القرنين الثامن عشر و التاسع عشر الميلاديين التي درس إقليم توات سياسيا و اقتصاديا و ثقافيا قبل الاستعمار .
- كتاب محمد حوتية بعنوان توات والازواد خلال القرنين الثاني عشر و الثالث عشر للهجرة و التي نشرها صاحبها في كتاب من جزأين الذي تناول من خلالها أحوال المنطقة من كل الجهات

اما عن المقالات فنجد

- محمد برشان و سي عبد القادر سباعي ، انعكاسات السياسية الاجتماعية الكولونية على سكان الصحراء الجزائرية و هي من اهم الدراسات التي ساعدتني في كتابة الفصل الأخير من الدراسة كونها عالجة و بدقة اهم التحولات الدينية و الاجتماعية و السياسة و كذا الاقتصادية في المنطقة .
- أطروحات لعبد الكريم طهري بعنوان منطقة توات و اسهاماتها في المقاومة الشعبية الجزائرية، التي من بين اهم الدراسات التي تخص الجنوب الغربي و التي تناول فيها صاحبها كل ما يخص توات و ما جاورها قبل و بعد الاستعمار من الغزو الفرنسي للمنطقة ورد فعل الشعبي .
- أطروحة عبد القادر المرجاني بعنوان السياسة الفرنسية و دور المستكشفين في التوغل في الجنوب الجزائري، التي اهتمت بدراسة السياسة الفرنسية في الجنوب الجزائري و اهم المستكشفين الذين قدموا الى المنطقة ،كما درست اهم التحولات التي شهدتها المنطقة .

صعوبات الدراسة :

وككل بحث لا يخلو من صعوبات ، فقد واجهت صعوبات في انجاز هذا الدراسة مجموعة من الصعوبات منها :ضيق الوقت المخصص للبحث ، خاصة مع تشعب عناصر الموضوع و تعدد جوانبه إضافة الى توزع الكثير من المادة على الكثير من المراجع و المصادر الى جانب قلة المعلومات في بعض الجوانب ، الامر الذي صعب عملية جمع المادة التاريخية و تنظيمها .

الفصل الأول :

الجنوب الغربي الجزائري قبيل التغلغل الاستعماري

المبحث الأول : البنية السياسة للجنوب الغربي

المبحث الثاني : الاقتصاد الصحراوي في الجنوب الغربي و شبكات التجارة

المبحث الثالث : الأهمية الاستراتيجية للجنوب الغربي

الفصل الأول : الجنوب الغربي قبيل التغلغل الاستعماري

تمهيد

شكل الجنوب الجزائري عامة و الجنوب الغربي خاصة فضاء جيوسياسي بالغ الأهمية، حيث و أنه لم يكن مجرد امتداد جغرافي قاحل و انما كان كيانا سياسيا و اقتصاديا منظما على مر العصور حتى قدوم الاستعمار.

و في هذا الفصل تم تسليط الضوء على الهيكل السياسي و الديني لصحراء الجنوب الغربي من خلال تفكيك بنيتها السياسية والدينية التي كانت تحكم المنطقة قبيل التوغل. كما تم التطرق الى حركيتها الاقتصادية التي كان لها دور داخليا و خارجيا ، و التي شكلت همزة وصل بين الشمال و الجنوب و الشرق و الغرب عبر الطرق و المسالك و القوافل .وأخيرًا يستعرض الفصل الأهمية الاستراتيجية التي لم تكن غائبة عن الأطماع فرنسية التي رأت في الصحراء مفتاحًا للسيطرة على القارة الإفريقية برمتها.

المبحث الأول : البنية السياسية للجنوب الغربي

أولا : القبائل و القيادات المحلية

أ / علاقة الجنوب الغربي بالإيالة العثمانية

تميز الجنوب الغربي في الكثير من فتراته التاريخية في العهد العثماني بعدم خضوعه بشكل مباشر بالسلطة المركزية الموجودة في الشمال و قد يعود هذا الى عوامل جغرافية بداية من بعد المسافة و التضاريس الصحراوية الوعرة ، زيادة على المناخ القاسي جعل هذه المنطقة تكاد تكون في عزلة عن السلطة المركز في الشمال ، كما أيضا كان لتنظيم الاجتماعي القبلي للسكان هذه المنطقة بأن جعلهم يتمتعون بحرية كبيرة في الاشراف و التسيير لأمورهم الداخلية دون تدخل أي سلطة خارجية عنهم .[1]

[1] حباش فاطمة ، **الوضع في منطقة الجنوب الغربي خلال العهد العثماني و بداية الاحتلال الفرنسي** ، العصور ، ع 13/12 14/15 ، 2008 2009 ، ص 141 ، 142 .

و لم يكن يربطهم بالسلطة المركزية الا تلك المعاهدات التي تجددت في الجباية المفروضة و التي ظهرت في شكل ضرائب. كما ساهمت أيضا في الهجرات الموسمية لسكان المنطقة نحو المناطق التلية بفرض التبادل التجاري مقابل دفع الغرامات اللازمة و المعونة .

بقي الجنوب الغربي ذو ارتباط ضعيف بالسلطة المركزية و نكاد أن نقول أنه كان يتمتع بالاستقلالية كبيرة هذه الأخيرة أمنتها طبيعة قبائل هذه المناطق مما تميزت به من قوة نفوذ على مستوى الصحراء و الذي يعود هو الآخر الى منطلق نفوذها الديني و الانتماء الى سلالة الأشراف ،الامر الذي صعب عليها الخضوع الى منطقة واحدة تحد حريتها [1] .

و يعزز قول ابن خلدون أن سكنة صحراء الجنوب الغربي كانت بعيدة عن قبضة الحكام بالشمال و تستبعد أن تكون هذه الظاهرة استمرت أيضا في الفترة العثمانية خاصة أن الأراضي السائبة التي ترددت في كتب التاريخ بقية سارية الوجود فلا تستبعد أن تكون بلاد الجنوب الغربي من هذا النوع من البلاد حيث كانت لا تخضع لأي سلطة مركزية ،في قوله (.. اكثر الناس سكان القصور الغربية في الصحراء بنو يالدّس هؤلاء ، و من معهم من سائر قبائل زناتة و البربر ، مثل وتطغير ومصاب وبني عبد الواد ، وبني مر وهم أهل عديد وعدة ، و بعد عن هضيمة الأحكام و ذل المغارم ..) [2].

و يعزز موقفنا هذا أيضا كلام الباحث الإنجليزي روس ادان الذي يفيد ان بلاد بشار و بلاد صحرائها المجاورة كانت تفضل دائما العيش في حياد دون الخضوع الى سلطان و متى ضعف السلطان عن الزامهم بحقوق الدولة الا و سرعوا في الامتناع و عدم دفع الضرائب ، و يزيد تأكيدا ما ذكره الضابط سيار في بحثه حول بشار لعام 1933 ان قبيلتي ذوي المنيع و أولاد جرير و كانتا تعيشان في البلاد المسماة ببلاد السائبة التي لا تخضع للسلطة مركزية، وكانتا تحبان الحياد و العيش بحرية في مناطقهما حتى لا تدفعان الضرائب للحكومات [3].

---

[1] حباش فاطمة ، نفسه .

[2] عبد الله حمادي الادريسي ، **الاستبصار في تاريخ بشار و ماجورها من الامصار** ، ط1، وزارة الجزائر ، الجزائر ، ج1، ص 177.

[3] عبد الله حمادي الادريسي ، المرجع نفسه ، ص ص 242 243.

ب / المؤسسات السياسية في الجنوب الغربي

على حسب التركيبة الاجتماعية لسكان المنطقة فهي عبارة عن عائلات عريقة تخضع الى نظام الجماعات و العشائر التابعة للمشايخ [1] فقد **بنيت المنظومات الاجتماعية للسكان** في معظم المناطق الصحراوية على ثلاث مؤسسات اجتماعية و هي **القبيلة** و المتمثلة في شيخ القبيلة و اهل الحل و العقد الذين هم كبار الجماعات و ينتشر هذ النظام خاصة عند القبائل الكبرى ذات أصول هلالية التي وصلت منطقة الجنوب الغربي الجزائري منذ العصور الوسطى و الحديثة ك "ذوي المنيع أولاد جرير العمورة حميان الرقيبات إضافة الى المرابطين كأولاد سيدي الشيخ " [2].

هذه الأخير التي تشكل مشيخة دينية كبيرة تضم اعراشا و قبائل ممتدة من الاطلس الصحراوي الى غاية العرق الغربي الكبير متميزة بشيوخها الرافضين للخضوع التام و التدخل في شؤونها[3] كان لها دور ديني وسياسي وعسكري محوري في تاريخ الجزائر، و ظهر في مقاومة الاحتلال الفرنسي، أو في ضبط توازنات الجنوب الوهراني[4].

ومختلف فروع العائلات الشريفة المنتسبة لبيت النبوة ، حيث تملك القبيلة رصيدا أيديولوجيا اندماجيا يقوم على النسب او رابطة الدم **وتبرز مؤسسة القصر** لدى سكان القصور و الواحات ، و المتمثلة **في الجماعات** بمثابة مجلس استشاري و تنفيذي للقبيلة . و أخيرا تأتي **مؤسسة الزواية** و هي سلطة عقلانية مثالية يمثلها شيخ الزاوية او مقدم الطريقة الصوفية [5]و التي سوف افصل فيها في المطلب الموالي

فقد كان القصر الذي هو الكيان السياسي عبارة عن وحدة جغرافية لها طابعها العمراني و حدودها المكانية و خصوصيتها السياسية و الاجتماعية و الاقتصادية و التشريعية ، اما الجماعة كانت عبارة عن نظام محلي يدير القصر باستقلالية تامة عن ارتباطات خارجية و غالبا ما كانت

---

[1] حباش فاطمة ، المرجع السابق ، ص ص141 ،142 .

[2] برشان محمد ، **الحياة الاجتماعية و الاقتصادية و الثقافية بمنطقة بشار** ، الجزائر ، دار ام البراهمن، 2016 ، ص 114 .

[3] حباش فاطمة ، المرجع السابق ، ص ص141 ، 142.

[4] Le Dr A Casset ، **Dans le sud oranais souvenirs d'un médecin militaire** ، Paris، Bureaux De Réveil Médical، 1913 ,p 65 .

[5] برشان محمد ، المرجع السابق ، ص 114 .

الجماعات تتشكل من عشر رجال من خير الرجال القصر ، منهم من كان القيادة و القضاة و شيوخ زوايا و زعماء قبائل و الوجهاء و الأعيان من الأشراف و الطبقات الأخرى [1] .

و رغم ان الجماعات كانت بمثابة هيئة تشريعية وتنفيذية حاكمة و كان تمثيلها يمس اهم العناصر و مكونات المجتمع التواتي ، وكانت ضامنة للحقوق الافراد و الفئات و كلا الجنسين و كانت تتحمل مسؤولية فض النزاعات و الخلافات الشخصية و الجماعية وكانت تتداول في جميع المستجدات و شؤون القصر [2] الا انه ما كان يعاب عليها ان فئة الحراطين رغم كثرتها ونسبها الكبير في القصر الى انها كانت شبه مغيبة في هذا النظام القصوري العرفي ، اما فئة العبيد و النساء فلا تمثيل لهما اطلاقا ، لكنها في المقابل كانت تهتم بالشرائح الضعيفة كالأطفال القصر و اليتامى و الغائبين و عابري سبيل و غيرهم ، من خلال الحماية و الحجر و اصدار احكام قضائية بعد استغلالهم او التصرف في املاكهم تحت اي عذر [3] .

كما كان لها دور مهم في تنظيم شؤون القبيلة، إذ كانت تشرف على تقسيم الأراضي الفلاحية وتنظيم مياه الري، وهي مسائل كثيرًا ما كانت تُثير خلافات بين الفلاحين، خاصة داخل القصور. كما كانت تتولى مهمة تنظيم القوافل التجارية، فتختار الأشخاص القادرين على تأمين الحماية لها، لا سيما أثناء عبورها الطرق الصحراوية الخطر[4] .

ولم يقتصر دور الجماعة على الجوانب المذكورة فقط، بل امتد ليشمل القضايا الاجتماعية أيضًا التي كانت تفصل في مسائل الزواج والطلاق والميراث، وتسعى إلى حل النزاعات، إضافة إلى تمثيل القبيلة في مختلف المناسبات.

---

[1] جعفري مبارك ، **نظام القصوري الواحاتي و دوره في تطوير منطقة توات بين القرن 9 و 13 هـ / 15 و 19** ، المهرجان الوطني الثاني حول استراتن ،الجزائر ، 2018 ، ص 8 .

[2] عبد الكريم طهيري، **منطقة توات و اسهاماتها في المقاومة الشعبية الجزائرية 1883 / 1903**، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه ، تاريخ حديث و معاصر ،2024 / 2025 ، جامعة الشلف ، ص61 .

[3] عبد الكريم طهري، المرجع السابق ،ص 61 .

[4] د. سباعي سيدي عبد القادر ، **تخطيط القصور في الجنوب الغربي الجزائري مقاربة سسيولوجية ، جامعة الطاهري محمد بشار** ، ع 4 ، م 26، 2022 ، ص 858 .

ومن جهة أخرى، كان للجماعة دور حاسم في قضايا الحرب والتحالف؛ فعند تعرض أحد القصور لتهديد أو هجوم، كانت تعقد اجتماعًا طارئًا لدراسة الوضع واتخاذ القرار المناسب. وغالبًا ما كان قرار الحرب يُتخذ بشكل جماعي، وعندها يتم اختيار قائد تُمنح له صلاحيات واسعة، فيتولى قيادة المقاتلين ويتحمل مسؤولية مصيرهم في ساحة المواجهة [1] .

ومنها ما وردت أسماء قياد و القضاة و الاسر الفاعلة في توات من خلال كتابات المغاربية و الفرنسية خلال القرن 19 م ، ومن خلال رسائل الاعيان و القبائل في الجنوب الغربي الجزائري كانت تذمر وتشير الى كل مجموعة قصور باسم قائدها الفلاني ، او كبير قصر وفق ذلك التنظيم ، حيث نجد في مراسلات المخزن الى جماعة توات سنة 1892 ذاكرا لقائد تيمي حسون بن حاج احمد ، و قويدر بن حاج عبد السلام قائد خنافسة قورارة ، و الحاج اعمر بن الحاج اعمر بن الحاج احمد قائد دلدول و غيرهم [2].

كما وجدت مراسلات الشيخ بوعمامة يتكلم فيها عن جماعة دلدول حوالي سنة 1894 م فيقول(.. في حداها كتفة جماعة دلدول كبيرا وصغيرا ، كل احد باسمه ، السلام عليكم ..).

فمثلا رسالة باشاغا جيريفيل الى خنافسة اوقروت بتاريخ 23 أبريل 1900 م ورد في مضمونها من (.. عبد ربه تعالى الباشاغا سي الدين بن حمزة ، اعانه الله ، الى أصدقائنا الأعزاء في تيبرغامين واعبود ، و خاصة القائد فلان بن فلان بن فلان و الاخرون..) [3] .

ج / التنظيم الاجتماعي للسكان

ومن خلال ما سبق يظهر لنا كيف كان التنظيم الاجتماعي لسكان قصور الجنوب الغربي بشكل جلي ظاهرة التراتب الاجتماعي و انقسام المجتمع الى طبقات و ترسم الصورة هذا التراتيب على شكل هرمي يضم الفئات الاجتماعية التالية [4] .

---

[1] د. سباعي سيدي عبد القادر ، تخطيط القصور في الجنوب الغربي الجزائري مقاربة سسيولوجية ، نفسه .

[2] عبد الكريم طهري، المرجع السابق ، ص ص61

[3] عبد الكريم طهري، نفسه ، ص 62.

[4] سباعي سيدي عبد القادر، المرجع السابق ، ص859 .

1/ الاشراف المرابطون وهم اللذين ورثوا هذا اللقب بدعوى انحدارهم اصلاب اجدادهم الأوائل الذين ينتسبون للأسرة العلوية ومعظمهم قدم من المغرب الأقصى ، و باعتبارهم من اهل البيت فهم حماة الدين، و الكل يلبي رضاهم ، و في هذه الفترة كانوا يمثلون الجماعة المستقلة داخل إقليم الجنوب الغربي [1] .

2/ الاحرار و هي الطبقة الثانية و افرادها ينحدرون من آباء من البربر و العرب ، و غالبية هذه الطبقة تعمل في التجارة والذي تشكلت منهم الطبقة الثالثة وهي الحراطين او الحراثين وكانوا يعملون في الحرف و الاشغال التي يأبى رجال الطبقة الاحرار العمل بها [2] .

3/ العبيد من الرجال والنساء ، وقد كانوا يقومون بالاشغال الشاقة كحفر الفقاقير المائية و الزراعة و الرعي [3]و تختلف هذه الوظيفة من حيث الوظيفة النسب [4] .

اما في ما يخص لتركيبة السكانية للمجتمع شهد منطقة الصحراء عامة و الجنوب الغربي خاصة منذ الفتح الإسلامي للمغرب العربي هجرات لقبائل مختلفة وفدت اليه على فترات متعاقبة و في ظروف مختلفة و بعد ان استقرت هذه القبائل في المدن و القصور التي بنوها ، بدأ المجتمع ا يتشكل ببطئ ، من عناصر ثلاثة البربر العرب الزنج [5] .

وقد بدأ التوافد الحقيقي على الإقليم بهد سقوط دولة الادارسة بالمغرب في القرن الرابع هجري ، و فرار الكثير من السكان بعدما انهكتهم الحروب جنوبا لجهة الشرق الى ان وصلوا الى إقليم توات فاعجبوا بالمكان و بنو قصورا وحفروا الفقاقير و مارسوا الزراعة [6] .

---

[1] فرج محمود فرج ، **إقليم توات خلال القرنين الثامن عشر و التاسع عشر الميلاديين** ، ديوان المطبوعات الجامعية ، 2007 ، ص 22 .

[2]فرج محمود فرج، إقليم توات خلال القرنين الثامن و التاسع عشر الميلاديين، نفسه .

[3] فرج محمود فرج ، نفسه .

[4] سباعي سيدي عبد القادر ، المرجع السابق ، ص859 .

[5] فرج محمود فرج ، المرجع السابق ، ص 22

[6] مبارك بن صافي جعفري ، **العلاقات الثقافية بين توات و السودان الغربي خلال القرن الثاني عشر هجري** ، دار السبيل ، الجزائر ، 2009 ، ص 74.

ومن القبائل الوافدة الى الإقليم نجد أولاد عبد الجليل أولاد عياش البرامكة و غيرها من القبائل وبعد استقرارهم في الإقليم تقاتلوا و تنافسوا على الزعامة و انقسموا الى طائفتين هما يا حمد و سفيان[1].

ثانيا : السلطة الدينية الزوايا و الطرق الصوفية

تزخر منطقة الجنوب الغربي بالعديد من الزوايا التي لعبت أدوارا بارزة في المحافظة على القيم الدينية و الاجتماعية السامية بالمنطقة و التي عرفت منذ القرن 15 م نمو كبير لهذ المؤسسات ، ويرجع سبب هذا الانتشار الواسع الى وقوع مناطقه كإقليم توات في الطريق التجاري الرابط بين حواضر افريقيا الشمالية و مدن افريقيا جنوب الصحراء .

فنجده ظل لقرون معبر لقواف الحج، ما أهله لا ستعاب افواج المارين، خاصة وان الجزء الجنوبي الغربي تميز بابتعادها عن مناطق الصراعات السياسية ،ما أهله ان يكون مركز استقطاب للعلماء و الزهاد ، الذين لعبوا دورا كبيرا في اقامة تلك المراكز الصوفية و الزوايا الطرقية ، مما كونت سلطة دينية من خلال قواعد الضبط الاجتماعي التي تعتمدها في تحقيق الامن و الاستقرار في المنطقة[2] .

ومن خلال هذا شكلت الطرق الصوفية الإطار الديني والاجتماعي لنشاط الزوايا، حيث اتفقت هذه الأخيرة في انتمائها إلى المذهب المالكي، لكنها اختلفت في الطرق الصوفية التي تتبعها، مثل الطريقة **القادرية والشاذلية** و**التيجانية**، إلى جانب طرق أخرى تفرعت عنها، وكلها تعود في أصولها إلى التصوف السني المرتبط بالإمام الجنيد، يشرف عليها شيوخ يتولون التأطير الديني والروحي لأتباعهم[3].

كما كانت الكثير من القصور في بادئ الامر عبارة عن زوايا مثل قصر تنيلان، التي كانت مقسمة لنوعان من الزوايا زاويا مخصصة للإطعام و استقبال الضيوف وعابري سبيل يقصدها المسافرون الغرباء التجار الحجيج للراحة وتناول الطعام و النوع الثاني من الزوايا التي كانت مخصصة

---

[1] شريط نورة ، بارد رجلين فاطمة الزهراء ، **المقاومة الشعبية المسلحة في إقليم توات الكبير من 1850 / 1918** ، مذكرة لنيل شهادة الماستر ، تاريخ المغرب العربي المعاصر ، جامعة ابن خلدون، تيارت ، ص 27 .

[2] د، رموم محفوظ ، **الزوايا و أدوارها الاجتماعية بمنطقة توات ، المجلة التاريخية الجزائرية** ،جامعة أدرار ، ص 141 .

[3] د، رموم محفوظ ، نفسه .

للعلم و التدريس التي لعبت دورا كبيرا في الحركة العلمية و الفكرية و يقصدها الطلبة من مكل مكان الى جانب توفير الاطعام و المبيت للوافدين [1].

ومنها اهم الزواية مثلا ان القصور التواتية على كثرتها يحمل كل منها اسم زاوية كقصر زاوية حينون ، وقصر زاوية الرقاني ، قصر زاوية كتنة ، قصر زاوية سيدي البكري ، قصر زاوية سيدي عبد القادر ، قصر زاوية سيد الحاج بلقاسم ، قصر زاوية دباغ[2] الزاوية القادرية و التيجانية و الوزانية و الكرزانية و البكائية و أولاد سيدب الشيخ و البكرية و السنسونية و غيرها [3] .

ومن اهمها الزاويا الزاوية الكنتية وهي احد قصور توات الوسطى تقع بين قصري تبركانت من الشمال و تخفيفت من الجنوب و يعود تأسيسها الى احد العلماء البارزين هو الشيخ سيدي أحمد بن الشيخ سيدي محمد المعروف بالرقاد الكنتي فنالت شهرتها بعدما اقبل عليها احد الاشراف وهو مولاي احمد بن محمد المشهور بسيدي حم بن الحاج من تافيلالت بالمغرب قادما من تمبكتو ، استوطن معه في الزاوية و كانوا سبعة اخوة فتصاهروا و تجاوروا مع الشيخ سيدي احمد ، وفي عهد خلفائه توسعت الزاوية و عمت شهرتها و كثر مريدوها من الطلاب و عابري السبيل من المنطقة و بلاد السودان الغربي . من خلال دورها العلمي البارز بما وفرته من وسائل مادية و معنوية في سبيل العلم و العلماء[4].

فنجد ان الزوايا ، ومن خلال الطرق الصوفية و اتباعها و باعتبارها المكون الاساسي المكون للجماعة الدينية ، دور بارزا و في حياة مجتمع الجنوب الغربي و كما كان وجودها اساسيا في توجيه الحياة الروحية ، و تأطير الحياة العلمية التي اضطلعت بتقديم الفهم الصحيح للدين ،على أساس القراءة الإنسانية متسامحة مع لآخر ، عن طريق محاربة البدع و الخرفات[5] .

---

[1] عبد الله حمادي الادريسي ، **الاستبصار في تاريخ بشار و ما جاورها من الامصار** ، ج 2 ، ابتكار، الجزائر ،2013 ،ص5 .

[2] أ / وفاء بن عالية ، **دور الزوايا توات في الحفاظ على الشخصية الوطنية و الطرق الصوفية** ، المدرسة العلية للأساتذة ، بوزريعة ، 230 .

[3] فرج محمود فرج ،المرجع السابق ، ص 122 .

[4] منصورية قدور ، **دور قبيلة كنتة في تاريخ إقليم توات** ، مجلة قرطاس ، م07 ، ع01 ، مجلة قرطاس ، ص38 .

[5] رموم محفوظ ، الزوايا و أدوارها في إقليم توات ، المرجع السابق ، ص 143.

و في هذا السياق تقول ازابيل (..لعدة سنين يدرس الطلبة المنتمين الى الاخويات الصوفية، و ف مدارس بسيطة و في ديكور المساجد العتيقة العارية ، يمارسون التقوى .... و هؤلاء الطلبة من ابناء المربوات و القصوريين ، وكذلك يأتون من كل الجهات من أجل طلب العلم..) [1].

كما كان لها دور في ترسيخ سلطة دينية محلية، حيث اكتسب شيوخها مكانة معتبرة داخل المجتمع، بلغت في بعض الأحيان حد التقديس، وهو ما منحهم تأثيرًا واسعًا في توجيه السكان وضبط العلاقات الاجتماعية داخل الإقليم[2] .

فلرجال الدين و للمرابطين و شيوخ الطرق الصوفية و الأولياء و الصالحين داخل المجتمع الصحراوي لهم مكان مميزة بينهم فقد تمكنت هذه الطرق الصوفية من تكوين سلطة هناك لها نفوذها السياسي و الديني و كسبت بها ولاء السكان فكانوا يأتمرون بأوامرهم و ينتهون بنواهيهم ، انطلاقا من أن الولي في المخيال الجمعي يعني الحماية بكل وجوهها [3] .

و من الجانب الخارجي عملت على صد الخطار و حماية الوطن ، من الأخطار الخارجية من خلال انها اخذت تعمل على الحفاظ على مقومات الشخصية الجزائرية بمورثتها الحضارية ، ومن جهة ثانية واجهت القوات المحتلة من خلال المشاركة في دعم الكفاح و اقامة مراكز التموين و تقديم الدهم و الاسناد و الإواء ، ومن هنا تحولت الزاوية الى رباط بقصده المناضلون من كل مكان [4] .

و قد ساد اقليم توات نوعا من الاستقرار السياسي الناجم عن سلطة الطرق الصوفية و الزوايا و رجالاتها ، وقد نجم عن ذلك مجموعة من الترتيبات التي كان لها الأثر البالغ على سير و تنظيم حياة الافراد داخل المنطقة و لعل اهم سلطة تتمتع بها الاقليم هي سلطة القضاء و هي السلطة التي تولها علماء و رجال الدين والطرق اهل الحل و العقد [5] .

---

[1] د. شبلي ربيعة ، **الزاوية الزيانية ودورها في منطقة الساورة الى غاية القرن 19** ، م 27، ع 5 ، 2023 ، جامعة الطاهري محمد بشار ، ص1018 .

[2] نفسه .

[3] نفسه .

[4] رموم محفوظ ، نفسه ، ص 144.

[5] نفسه

ومن اهم ما وفرته السلطة الدينية في المنطقة ذلك **المناخ الامني الذي** نمت فيه الطرق الاقتصادية بمختلف انواعها خاصة التجارة حيث كان رؤساء القوافل التجارية يجدون المناخ الملائم و المهبط الرحي في هذه المنطقة خاصة وأن التجارة تعد اهم مورد اقتصادي في الاقليم سواء كانت تجارة داخلية متمثلة في تلك الاسواق المنتشرة على كامل المحاور و الطرق الرئيسية ، بدء من المناطق الشمالية و المتمثلة في سوق تيميمون الواسعة الارجاء و التي كانت تستقبل القوافل الشمالية المحملة بالحبوب و الصوف و الغنم و القطن و مواد استهلاكية أخرى [1] .

ثالثا : نظام التحالف في الجنوب الغربي

أ / نظام التحالفات في الجنوب الغربي

مثل الجنوب الغربي في الفترات التي سبقت التواجد الفرنسي منطقة سائبة في الصحراء، ولذلك ساءت أحوالها الأمنية في بعض الأحيان بتعرضها من حين لآخر للفتن الداخلية و غارات خارجية من قبل الجوار [2]. فقد كان يعيش صراعا داخليا فالأول كان جراء الصراع بين صفي يحمد و سفيان، اما الثاني الذي كان داخل و خارج قصورها كان بدافع الاقتصادي و منها قبائل ذوي المنيع و البرابر القادمين من تافيلالت و على رأسهم قبيلة آيت عطا الله و آيت خباش ، و الغنائمة الاعراب الذين كانوا يشكلون أكبر تجمع سكاني في واد الساورة ، من قصور الواتة ، وبوخلوف ، و الزاوية الكبيرة و كرزاز، وبن يخلف وغيرها .. [3].

فنجد ان الحياة السياسية تقوم في المناطق الخالية من السلطة المركزية ، و التي تكون فيها موارد الأساسية محدودة على مبدئ المنافسة و التحالف بين القبائل ، وهو ما اصطلح على تسميته

[1] نفسه ص 144

[2] عبد الله بابا ، **الحياة الاجتماعية و الاقتصادية بتوات ايبان الاحتلال الفرنسي 1900/ 1962** ، من خلال سجلات المحكمة الشرعية ، أطروحة دكتوراه ، اشراف أد . مبارك جعفري ، جامعة أدرار ، الجزائر ، 2018 / 2019 ، ص ص31 . 30

[3] محمد اعفيف ، **توات مساهمة في دراسة مجتمعات توات و تاريخها** ، منشورات كلية الآداب و العلوم الإنسانية ، الرباط ،ص . 40

الباحثين امل فينوجرادوف Amal vinogradov و جون ووتربوري johan waterbury بمجموعة الامن[1] .

و نظرا لنظام القصور الذي كان يعيشه الإقليم فالقصور لا تعيش في عزلة، بل هي مرتبطة بأحلاف عابرة للمنطقة من خلال هناك قصور تتحالف مع بعضها ضد قصور أخرى، وغالباً ما يكون لكل حلف "مرجعية دينية" أو "زاوية" تدعمه.

و كان لزوايا و المؤسسات الدينية دور في هذا و تمثل دورها كـ "ضامن للتحالفات" فالمصادر الفرنسية اكدت ان السلطة الدينية (المرابطين والأشراف) هي التي كانت تعقد "الصلح" أو "العهد" بين المجموعات المتنازعة. هذا العهد هو الذي ينظم "التحالف الصحراوي" ويجعله مقدساً وغير قابل للخرق[2].

و عليه كان نظام التحالف الصحراوي قائم على العديد من المستويات منها :

_ مع البدو و الرحّل مثل الطوارق و الشعانبة يقدمون الحماية العسكرية للقصور ضد الغارات، وفي المقابل يحصلون على التمور والحبوب، ويخزنون فائضهم داخل القصور. هذا هو جوهر التحالفات الصحراوية التقليدية التي تضمن بقاء الواحات.

_ مع القوى الإقليمية الذي يتمثل في تحالف أعيان مناطق الجنوب الغربي مع "المخزن المغربي"، وكيف كان هذا التحالف يوفر للإقليم غطاءً سياسياً وروحياً في مواجهة الضغوط الخارجية، وهو نوع من أنواع التحالفات الاستراتيجية الكبرى [3] .

_على أساس المصاهرة و الزواج المختلط الذي يتم بين افراد القبائل المتقاربة الذي يكون أساسا و منطلقا للعلاقات أخرى كالتبادل الاقتصادي و التحالف القبلي ، خاصة عندما يكون بين عائلات كبيرة في قبيلتين متباعدتين الذي ينتج تحالفات التي تشكل بدورها الفيديرالية القبلية من خلال

[1] فقيقي محمد لكبير ، **صحراء ومنطق العصبية القبلية** ، الجنوب الغربي نموذجا ، مجلة الساورة للدراسات الانسانية و الاجتماعية ، المجلد 07 العدد ، 02، 2021 ، ص92 .

[2] Camille Sabatier, **Touat Sahara et Soudan étude géographique politique économique et militaire**, Ed société d'éditions scientifiques، paris, p 116.

[3] Camille Sabatier,Op.cit ,t, P 104 -105 .

الزواجية الداخلية ، اين تصبح العائلات الكبرى هي المنظمة لشبكة هذا التنظيم الذي تدخل فيه القرابة و التحالفات و الزيجات الداخلية [1].

فنظرا لهذه الأوضاع نجد منطقة توات التي عقدت صلحا و اتفاقا على الأمان بينها و بين البربر من قبائل جنوب تافيلالت التي كانت تغير و تعتدي على المنطقة من حين لآخر ، حيث كان يقود ناس توات أعلاما من آل البكري و من البرابر آيت خباش و آيت أزدق ، و أنه كانت تقوم بين أهالي القصور تحالفات داخلية و أحيانا تنتقض جهة ما ضد جهة أخرى ، كما حدث خلال القرن 12 هـ بين قصور تيمي و تنمطيط ، حيث انفك التحالف بينهما و استعان بعضهم بأهل بودة لاستقطاب بعض الزعمات [2].

و نجد في هذا قبيلة ذوي المنيع التي هيمنت على منطقة الجنوب الغربي منذ أن وطأت اقدامهم ،و ذلك من خلال خصوصياتهم و عاداتهم وتقاليدهم ،وبفضل هذه العوامل شكلوا اتحادا كبيرا مع اولاد جرير اللذين وجدوهم بالمنطقة مشكلين بذلك اتحاد زاقدوا لتحقيق وضمان الامن و الاستقرار للقبيلتين وحيث اختص هذا الاتحاد بالمهام التالية:

_تمثيل الاتحاد لجميع المحافل و في جميع الظروف الحرب و السلم

_العمل على حماية و تقنين و تنظيم اشغال السقي في السهل و العمل على الحفر الآبار

_تعبئة افراد اتحاد القبيلة الى الحرب و المعارك من خلال التدريب الميداني

_تنظيم القضاء بإنشاء محكمة حقيقية تحقق في الجرائم و المخلفات العادية و اصدار الأحكام يكون من طرف قضاة و رجال الدين و مجلس الشورى المشيخة

_انتخاب الآيت عرباين وهي عبارة عن منظمة مصغرة تضم رجال امن مكلفين بحفظ النظام العام للقبيلة [3].

[1] د فقيقي محمد الكبير ، المرجع السابق ،ص 94 .

[2] عبد الكريم طهري، المرجع السابق ، 60 .

[3] ط.د بلغازي سعاد، **تاريخ ذوي المنيع في منطقة جنوب الغربي** ، مجلد 09 ، العدد 01 ،ص 131 .

ثانيا : فتنة صفي يحمد و سفيان

فمن خلال ما ورد في كتاب المقدم كولومب Colonel De Colombo في كتاب الملاحظات حول الواحات الصحراوية و الطرق المؤدية لها سنة 1860 من خلال ما جمعه يرجع ان مصطلح ياحمد و سفيان تم استعارتهم من الفتنة الكبرى بين سيدنا علي و معاوية رضي الله عنهما وجذور الخلاف تعود الى 1825 في تيمي او ادرار و كانت توات الخلاف بين الشيخ البركة قائد قصر بودة و هو صهر الحاج حسين قائد قصر تيمي و سيدي المهدي قائد قصر سالي [1] .

واستمرت الحرب بينهم لمدة طويلة مما اضطر كل طرف الى البحث عن حليفه من القبائل الواقعة في الشمال فتحالف ياحمد بالبربر و سفيان بالشعانبة وكانت اخطر هذه المعارك حصار ادرار و قضية قائد ياحمد التي كادت ان تسقط في يد العصبية المعادية من سفيان ، وانهزم هؤلاء كذلك في معركة زاوية كونتا اما ياحمد و هي اهم قصور في منطقة سفيان [2] .

فقد كانت المنطقة مضطربة منذ مطلع القرن 19 م من خلال الصراع عن الرئاسة بين فرعي يحمد و سفيان، فزادها فرقة واضطرابا مجيء فرقة مغربية سنة 1808 م لجباية الضرائب ، فظهر حينها ولد سيدي محمد في زاوية سيدي البكري مدعيا امارة المؤمنين [3] .

وفقًا لهذا التقسيم، تم توزيع القصور بين الأحلاف في مناطق قورارة وتيديكلت وتوات الوسطى. ففي إقليم قورارة، انقسمت القصور إلى حلفين: حلف يحمد الذي ضم خنافسة أوقروت، وخنافسة قورارة، وقصر بني مهلال، والمحارزة الدغامشة، وقصور شروين، وتينركوك، وأولاد عيسى، وأولاد سعيد، ودلدول، والمطارفة؛ بينما شمل حلف سفيان قصور تيميمون، وطلمين، وأوفران، إضافة إلى قصور أوقروت مثل الشارف، وبوقمة، وأقبور، وزاوية سيدي عومر[4].

---

[1] عبد الكريم طهيري ، المرجع السابق ص 28 .

[2] حسن مرموري ، **التوارق بين السلطة التقليدية و الإدارة الفرنسية في بداية القرن العشرين** ، ط1 ، منشورات مجلس الأعلى للغة العربية ، الجزائر ،2010 ، ص95.

[3] ابراهيم المياسي ، **التوسع الاستعمار الفرنسي في الجنوب الغربي الجزائري** ، منشورات المتحف الوطني للمجاهد ، الجزائر 1996، ص 27 .

[4] عبد الكريم طهيري ، المرجع السابق ، 105.

أما في تيديكلت، فقد كانت جميع القصور تابعة لحلف يحمد دون استثناء. وفي توات الوسطى، توزعت القصور بين الحلفين، حيث ضم حلف سفيان كلًا من أمقيدن، وقصور تسابيت (باستثناء الهبلة)، وقصور سالي، ورقان، وبودة، وتمنطيط وبوفادي، إلى جانب قصور زاوية كنتة؛ في حين شمل حلف يحمد قصور تيمي، وانزجمير، وتامست، واسبع، والقرارة.وتجدر الإشارة إلى أن القصور التي لم تُذكر ضمن هذا التقسيم كانت في الغالب تتخذ موقف الحياد[1] .

المبحث الثاني : الاقتصاد الصحراوي وشبكات التجارة

أولا : القوافل العابرة

بحكم الموقع الاستراتيجي للجنوب الغربي وكونه مركز عبور وسط الصحراء لعب دورا رياديا عبر مختلف العصور في ربط **السودان الغربي** بمختلف المراكز الحضارية في الشمال [2].

فبعد دخول الإسلام الى الشمال افريقيا لعب الإقليم دورا اساسيا في العلاقة بين دول و ممالك الغرب الاسلامي و السودان الغربي ، و خاصة بعد سقوط مملكة غانا و ما نتج عنه من تراجع للطرق التجارية الصحراوية الغربي الربط بين مراكش و **غانا** ليحل محله طريق توات والتي تعتبر كأحد أهم الطرق التجارية الصحراوية في الجنوب الغربي مما زاد في اهمية المنطقة و عمارتها خاصة بعد نهضة امبراطورية مالي ، ابتداءا من القرن 15 م اصبحت غالبية قوافل التجارة و خاصة المنطلقة الى جني و تمبكتو و بورنو تسلك الطرق المؤدية الى توات [3].

و بفضل الامن الذي وفرته توات للقوافل الصحراوية التي تقصد أسواقها حرصت قوافل التجارة و المسافرين و الحجاج على التوقف بأسواقها للتزود بما تحتاج اليه من مؤون و ماء ، كما تستطيع هذه القوافل ان تستبدل من ابلها و خيلها بأخرى سليمة لتواصل سيرها الطويل ، وفي نفس الوقت فان هذه القوافل تقوم بربط توات بالعالم الخارجي [4].

---

[1] نفسه

[2] فرج محمود فرج ،المرجع السابق ، ص 89 .

[3] د/عبد الحميد جندي ، **إقليم توات و أهميته في التجارة الصحراوية** ،المجلة الجزائرية للدراسات التاريخية و القانونية ، ع 5 ، ماي 2018، ص41 .

[4]فرج محمود فرج، المرجع السابق ، ص 90 .

فنجد ان توات لها اتجاهين شمالي و جنوبي الأول يربطها بأسواق الشمالية و الثاني منه يربطها بالأسواق السودان الغربي و تمبكتو

ومنه اهم الطرق التجارية التي تربط توات بأسواق شمالية من المغرب العربي نجد منها :

أولا طريق شمال الشرقي : و الذي كانت تسلكه القوافل المتجهة نحو المنيعة و غرداية و الشرق الجزائري ، كذلك الة غات غدامس و طرابلس و الجنوب التونسي و هذا الطريق بدوره عندما يخرج من المنيعة في اتجاه توات يتفرع الى اتجاهين الأول يمنى نحو منطقة القورارة عن طريق تبلكوزة و الثاني يساري الى منطقة تيكلدت .

اما الوسط الشمالي : فكان يخرج الى قصر أولاد عيسى ، و يخترق العرق الغربي الكبير حتى يصل الى مجرى واد الناموس ، وهذا الطريق كانت تستخدمه قوافل عين الصفراء و مشرية و افلو وسعيدة و الوسط الجزائري.

الطريق الثالث : وهو الشمال الغربي و كان يتبع مجرى واد الساورة و تسلكه القوافل المتجهة نحو غربي الجزائري و أسواق سجلماسة و تافيلالت و مراكش و فاس و المغرب [1].

اما من الناحية الجنوبية فكان يربط توات بأسواق السودان الغربي عبر ثلاث طرق من الناحية الجنوب الشرقي و الوسطي الجنوبي و الثالث الجنوبي التي تمثل ارض قبائل الطوارق [2].

ومنها ابرز القوافل التجارية التي تربط إقليم توات مع أسواق السودان الغربي : طريق توات تنبكتو عبر رقان طريق توات عب اقبلي و الذي ازدر هذا الطريق خلال القرن التاسع عشر طريق عين صالح تمبكتو طريق توات قاو عن طريق الهقار وورد هذا الطريق في رحلة ابم بطوطة حيث أخذ هذا الطريق راجعا من قاو الى توات بالإضافة الى طريق غدامس تمبكتو عبر توات وقد عرف هذا

[1] فرج محمود فرج ، المرجع السابق ، ص ص 90 ، 91 .

[2] فرج محمود فرج ، نفسه .

الطريق الأخير حركية كبيرة بعد الاحتلال الفرنسي للشمال الجزائري لان القوافل دائما ماكنت تبتعد عن الفرنسيين [1] .

و تندرج تحت هذه الشبكة عدة مسالك رئيسية من بينها طريق تلمسان غرداية تمبكتو الذي عرف بأمنه و استعماله المكثف من طرف القوافل كما كانت هناك الطرق التجارية اخرى التي تنطلق من المدن الجزائرية و تمر باقليم توات وصولا الى تمبكتو منها :

_ مسلك وهران يتجه نحو الخيثر و مشرية و عين الصفراء الى توات و تمبكتو .

_ مسلك الواحات الشرقية الذي يخرج من بسكرة وتقرت وورقلة وعين صالح و المبروك و تمبكتو.

_ مسلك الجزائر الذي ينطلق منها الى الاغواط ومنها الى المنيعة عين صالح اقبلي وتمبكتو .

_ طريق سكيكدة و قسنطينة الى امقيد هقار و تمبكتو .

_إضافة الى طريق طرابلس _ غدامس _عين صالح_ توات_ تمبكتو [2].

وكانت القوافل على نوعين ومنها صغيرة تضم بين 100 و 150جملا،و أخرى كبيرة قد تتجاوز 2000 جمل واحيانا أكثر . و كانت تصل الى تمبكتو بين ديسمبر و يناير تغادرها بين شهري جويلية و اوت و هي فترة اختيرت بعناية من قبل تجار القوافل لغرض اعتدال الحرارة نهارا [3] .

كما يحدد كتاب الفرنسي Camille Sabatierوجود طريقين رئيسيين من "تيديكلت " (Tidlkell)نحو "تمبكتو:(Tinboktou) "

_طريق غربي (Occidentale) يمر عبر "أولن.(Ouallen) " .

_طريق شرقي (Orientale) يمر عبر "لوزيز[4].(Iuzize) " .

---

[1] حامد لمين إبراهيم ،**الحركة التجارية بين إقليم توات و السودان الغربي خلال القرنين 18 _19م** ، مجلة الروافد للبحوث و الدراسات ، ع الأول ، جامعة غرداية،2016، ص 253 ،254 .

[2] محمد صالح حوتية ، **توات و الازواد** ، ج 1 ، المرجع السابق ، ص 148 .

[3] عبد الحميد جندي ، **اقليم توات و اهميته في التجارة الصحراوي**، المرجع السابق ،ص41 42.

[4] Camille Sabatier ،Op,cit,t,p 19

فان معظم هذه المسالك العابرة للصحراء الكبرى و المتوجهة الى غرب افريقيا عبر ناحية الجنوبية الغربية تنتهي بتمبكتو و تلتقي بإقليم توات و هذا لما لهذا الإقليم من أهمية جعلته يرتبط بكل الاتجاهات و ينفرد بموقع جغرافي ممتاز اصبح يمثل نقطة التقاء لطرق تجارية عديدة [1].

اما في ما يخص الطرق التجارية المؤدية الى **توات من الغرب** الى **الشرق** فقد ارتبطت بعدة محاور هامة ، ومنها طرق المغرب الأقصى عبر فقيق و تافيلالت مرورا بواد الساورة و طريق الجنوب الوهراني عبر وادي الناموسة ، إضافة الى طريق مقيدن ووادي مينا و كذا محوري غدامس و غات من الجهة الشرقية [2].

فقد اعتمد التجار على شبكة من الطرق الصحراوية المعروفة التي تربط غرب افريقيا بإقليم توات و اكتسبوا خبرة كبيرة في عبور مسالكها الوعرة التي يصعب اجتياحها على غير العارفين بيها ، و قد برزت بعض هذه الطرق كمسالك رئيسية شكلت الشريان الحيوي للنشاط التجاري في الصحراء ، مما عزز من مكانة توات كمحور أساسي في حركة القوافل[3].

فقد ذكر العياشي عن منطقة توات بأنها مجمع لقوافل من بلاد السودان الغربي قائلا " وهذه البلدة هي مجمع القوافل الآتية من تمبكتو زمن بلاد اكديز من اطراف السودان " [4].

و بجانب القوافل التجارية المارة على إقليم توات نجد قوافل الحجاج، التي تتجمع القافلة كل عام في مقاطع عين صالح و تسلك القافلة الطريق الشمالي الشرقي مرورا بمدينة غات نحو فزان ومنها تتجه الى مصر لتبحر منها الى الأراضي الحجازية [5].

ومن القوافل الحج التجارية البرية المارة من المغرب الاقصى عبر المغرب الاوسط الى الحجاز ذهابا و ايابا عبر نفس الخط ، متكونة من اربع قوافل و هي سجماسية و المراكشية و الفاسية و الشنقيطية ، تمر بخط شمال الصحراوي أو خط سير جبال الاطلس الصحراوي قافلتان متمثلتان في

---

[1] محمد صالح حوتية ، **إقليم توات و الازواد** ،ج1 ، المرجع السابق ، ص 147.

[2] نور الدين ايلال ، **الوضع الاقتصادي في اقليم توات قبل 1901** ، مجلة الدراسات و الابحاث ، جامعة البليدة ، ص 642.

[3] محمد صالح حوتية ، **توات و الازواد** ، ج 1، المرجع السابق ، ص 146.

[4] جعفري ، مبارك جعفري ، **مقالات و ابحاث و تراث منطقة توات** ، الجزائر ، دار الكتاب ، 2016 ،ص 68 .

[5] فرج محمود فرج ، المرجع السابق ، ص 126.

القافلة الفاسية و السجلماسية اللتان تتجمعان عموما في الجنوب الغربي في منطقة النخيلي غالبا و احيانا في منطقة عين ماضي[1].

ثانيا : العلاقة مع السودان الغربي و تمبكتو

تعتبر منطقة السودان الغربي منطقة استراتيجية في القارة الافريقية التي تربط الصحراء بالغابات الاستوائية ، و حسب الجغرافيون فهي رقعة تمتد من المحيط الاطلسي غربا الى حدود بحيرة تشاد شرقا ومن الصحراء شمالا الى القرب من خط الاستواء جنوبا تعرف عند المسلمين ببلاد التكرو[2] .

وقد تميزت بثرواته المتنوعة خاصة الذهب والعاج، إلى جانب ازدهار تجارة الرقيق؛ حيث أشار الحسن الوزان إلى أن مملكة بورنو اعتمدت في تجارتها مع مغاربة شمال إفريقيا على مقايضة العبيد بالخيل رغم وفرة الذهب. وبفضل هذه الخيرات استقطبت بلاد السودان القبائل والتجار من مختلف الجهات، لا سيما من شمال إفريقيا وأوروبا الغربية الذين جلبوا المنسوجات والمصنوعات مقابل الذهب والرقيق [3].

وفي هذا السياق فالعلاقة الجزائرية او بالأخص العلاقة بينها و بين الجنوب الغربي السودانية فهي علاقة قديمة و متأصلة في جذورها برغم من الحاجز الطبيعي الا انها كانت تعيش تقارب و احتكاك بفضل انتشار الاسلام و اتساع مجال التجارة ،حيث كانت تربطها علاقة على المستوى السياسة و التجارية والثقافية[4] و في هذا السياق يذكر السعدي انه استوطن عدد كبير من التواتيين البلاد الافريقية مثل تمبكتو [5].

---

[1] بن قويدر صخرية ، **الدور التجاري للقوافل المارة بمنطقة الجنوب الغربي الجزائري في العهد العثماني** ، المركز الجامعي مرسلي عبد الله ، م 25 ، ع02 ، تيبازة ، 2024 ،ص06

[2] منصورية قدور ، **دور قبيلة كنتة في تاريخ اقليم توات** ، مج 07 ، ع 01 ، جانفي 2015 ، جامعة ابو بكر بلقايد ، تلمسان ،ص 38.

[3] د.عبد الله مقلاتي رموم محفوظ ، **دور منطقة توات الجزائرية في نشر الإسلام و الثقافة العربية بإفريقيا العربية** ، وزارة الثقافة ، الجزائر ، 2009،ص50 .

[4] منصورية قدور ، **دور قبيلة كنتة في تاريخ اقليم توات** ،المرجع السابق ،ص 38.

[5] السعدي ، **تاريخ السودان** ، مطبعة برلين ، المانيا ، 1898 ، ص07

فكانت علاقة الجنوب الغربي ب افريقيا الغربية على المستويين المستوى الثقافي وعلى المستوى التجاري و هذا ما سوف نفصله في مايلي :

أ / العلاقة التجارية بالسودان الغربي و تمبكتو

ازدهرت العلاقة التجارية بين سكان الجنوب الغربي و افريقيا الغربي من خلال كونها مركز عبور رئيسي تتجمع فيها القوافل القادمة من ورقلة و غرداية و الأبيض سيدي الشيخ و سجلماسة ، لتنطلق منه اعتمادا على ادلاء توات و التوارق الى حواضر السودان المختلفة ولاتة تمبكتو و مالي ، الستغال ، النيجريا و غيرها .

التي كان للعائلات التجارية دور في هذا من خلال احتكارها التجارة مع السودان ومنها عائلة المقري ، اذ يذكر مؤلف نفخ الطيب أن اجداده اعتمدوا تجارة الصحراء التي ازدهرت بفضلها تلمسان كواسطة بين تلمسان و أوروبا ، و قد تأثرت التجارة بأمن و الانقلابات السياسية الا ان العائلات الجزائرية تغلبت على هذه المشاكل و ربط علاقات وثيقة مع الحكام السودان [1].

و فيما قال ابن خلدون في هذ الصدد "وطن توات و هو بلد مستبحر في العمران وهو ركاب التجار الى مالي ، و لايمر الوارد الا بدليل الخريث من الممثلين الظواغن في تلك القفر ، يستأجر التجار على البذرقة بهم بأوفى الشروط"[2].

كما تحدث حسن الوزاني الذي زار منطقة قورارة في القرن الخامس عشر وصفا لأوضاع السكان الاقتصادية بقول " و سكان هذه البقعة أغنياء لأن عاداتهم الذهاب كثيرا مع بضائعهم الى بلاد السودان حيث يجنون أرباحا كبيرة ، و هنا يقع رأس خيط القوافل ، حيث ينتظر التجار بلاد البربر تجار البلاد السودان ثم يذهبون سوية [3] . هذا ما يعكس عمق الترابط الاقتصادي بين توات و المجال السوداني ضمن شبكة التجارة الصحراوية.

---

[1] عبد الله مقلاتي و آخرون، المرجع السابق ،ص53.

[2] ابن خلدون عبد الرحمن ، **العبر و الديوان المبتدأ و الخبر** ، د ن ، بيروت ، 1967 ، ج7، 118 .

[3] حسن بن محمد الوزان ، **وصف افريقيا** ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1989 . ص505 .

و بناءا على هذه العلاقة عرفت السلع الجنوب الغربي رواجا في تلك المنطقة مقابل تدفق الذهب و الرقيق نحو أسواق الشمال [1].

ب / العلاقة الثقافية و الحضارية :

رافقت الحركية التجارية حركية علمية نشطة ، حيث ساهم تاجر الجنوب الغربي في الدعوة الى الإسلام من جهة ونشر الثقافة العربية من جهة أخرى ، فلم يقتصر نقل على البضائع فقط وانما نقل لهم أيضا معارفهم و مخطوطاتهم و ثقافاتهم ، فقد ساهم تواتيون في نشر الإسلام و ثقافته بواسطة الرحلات العلمية المتبادلة و لقاءات مواكب الحج و الاجتماع حول الطريقة الصوفية. [2] و ساهم كل من التاجر و الفقيه في مد مناطق السودان الغربي بالأفكار و التعاليم كل حسب طريقته فالفقيه عمل عن طريق التدريس و الامامة و الوعظ و الارشاد في المساجد ، و التاجر عمل عن طريق المجالس و الندوات داخل الأسواق و المحافل العامة [3].

وكان التواصل الحضاري على شكلين الشكل الأول عن طريق العلماء و الثاني عن طريق استقرار الجالية التواتية بالسودان الغربي، حيث اشتهر علماء توات برحلاتهم العلمية الى بلاد السودان منهم علماء فقهاء و أساتذة في جامع القيروان و الزيتونة و المدرسون و رجال الدعوة في غرب افريقيا اللذين كان لهم حضور قوي في مدينة تمبكتو التي استقطبت اليها رجال العلم و الدعاة و التجار منذ القرن الرابع هجري ، فانتشرت المدارس و المعاهد الإسلامية بفضل جهود علماء توات وهذا ما أكده اغلب المؤرخين على دورهم الفعال في المنطقة [4].

اذ يورد بول مارتي رسالة عثر عليها بتوات وجهها الى سلطان بورنو كاندي ولد جامشان عام 1440 يستجدي التواتيين للقدوم الى بلاده كما طلب فيها علماء توات ارسال بعثات علمية الى بورنو [5].

---

[1] .عبد الله مقلاتي و آخرون، المرجع السابق،ص56.

[2] .عبد الله مقلاتي و آخرون، المرجع السابق ،ص58 .

[3] فرج محمود فرج، المرجع السابق ، 125.

[4] عبد الله المقلاتي و آخرون، ،المرجع السابق ، ص58.

[5] د .عبد الله مقلاتي و آخرون .نفسه ، ص59.

فقد كانت هجرات علماء الجنوب الغربي الى السودان الغربي مبكرة ، تعود الى القرن 15 م الذي اصبح الإقليم تواتي مركزا لنشر الإسلام بمدن السودانية [1]ومن العلماء الذين حققوا نجاحا نجد الشيخ المغلي الذي يرجع له الفضل في ربط التواصل و نشر الإسلام بممالك السودان الغربي من خلال زاويته القادرية التي أصبحت قاعدة رئيسية في نشر أسس الإسلام الى مناطق الجنوب [2]، التقى بحكامها و ساساتها و لاسيما امير دولة السنغاي الحاج محمد اسكيا و امير دولة الهوصة محمد بن يعقوب، فوضع لهم اسس تنظيم الدولة الاسلامية كما نظر لهم السياسة الشرعية [3].

و استمر اهل الجنوب الغربي يغذون هذه المناطق بأفكارهم و الثقافة الإسلامية بعد وفاة الشيخ عبد الكريم المغلي[4]، ومن بين العلماء اللذين نبغوا في بلاد بورنو و اثروا في الحياة الاجتماعية و السياسية نجد الشيخ محمد الطاهر الفلاني التواتي الذي كان له عدة كتب في الفقه و علم الكلام و الساسية ، كما اشتهر في المنطقة الشيخ العقاب بن عبد الله الانصمي المسوفي [5] ، ويذكر السعدي صاحب كتاب تاريخ السودان أن الشيخ أبا القاسم التواتي كان من أشهر الائمة في سنكري [6].

كما عرفت هجرة العلماء الى الحواضر الافريقية الغربية حركية في القرن 18 م منهم ما ذكرت كتب التراجم منها الشيخ **عمر ابن محمد بن المصطفى بن احمد الرقادي الكنتي** الذي كان كثير التردد على بلاد التكرور لوجود عشيرته هناك وكذلك **ابي زيد عبد الرحمان بن عمر التنيلاني** ومنهم أيضا بن عبد الكريم التنيلاني[7] الذي استقر فترة طوية يعمل في الإفتاء و التدريس بمدينة تمبكتو[8]و يعود له الفضل في تأسيس حاضرة لمبروك بشمال مالي و قد خلف فيها حفيده مولاي محمد الذي

[1] فرج محمود فرج ،المرجع السابق ، ص 125

[2] فرج محمود، المرجع السابق ،ص 125

[3] صديق الحاج ، **العلاقة الثقافية بين توات و الحواضر المجاورة** ، جامعة ادرار ، ص314 .

[4] فرج محمود فرج ،المرجع السابق ، 125

[5] .عبد الله مقلاتي و آخرون ، المرجع السابق ،ص60.

[6] فرج محمود فرج ، المرجع السابق ، ص 126

[7] .عبد الله مقلاتي .و آخرون ، المرجع السابق ،ص63.

[8] فرج محمود فرج ، ،المرجع السابق ، ص 126 ،

أسس مسجدا و قصبة بالمنطقة [1]، ونجد أيضا الشيخ الحسن ابن سعيد البكري و الشيخ محمد بن احمد [2].

ولم يقتصر التوافد البشري على افراد وانما شمل قبائل بأكملها ، وكما سبق الذكر نجد من بين القبائل الوافدة الكنتيون الذين اتجهوا نحو غرب افريقيا حاملين معهم الاسلام و اللغة العربية، فاختلطوا بالقبائل العربية فأثروا وتأثروا بالعادات الزنجية ،اللذين كان لهم دور كبير في انتشار الدين الاسلامي من خلال مساهمتهم في بناء مراكز حضارية تخرج منها أجلاء ،وكانت لهم الزوايا و المراكز العلمية في جميع مناطق السودان الغربي تقريبا ، زاوية ادكابا بأكداس بالنيجر و زاوية أبناء المصطفى زاوية لماخبير بازواد مالي زاوية أهل سيدي علواتة بندينة تمبكتو زاوية ال بابا حمد بن عابدين[3].

اذ ان اقليم توات يعتبر مركزا مهما لنشر الفكر و الثقافة الاسلامية بالمدن السودانية القريبة من الاطراف الجنوبية للصحراء وذلك من خلال قاطينيه من مختلف الاجناس لما يمثل هذا المكان موقع استراتيجي مهم في صحراء[4]كما ساهمت الزوايا التواتية في نشر اللغة العربية بالسودان الغربي[5].

ثالثا :دور الواحات في الاقتصاد

أ / مظاهر الاقتصاد لإقليم النوب الغربي

- **نشاط الزراعة :**

تميزت منطقة الجنوب الغربي بموقعها المغلق و مناخها القاري الجاف، الامر الذي جعل الغطاء النباتي قليل تعوضه نباتات صغيرة تعرف بالحلفاء و الديس و عليه فان النشاط الزراعي في المنطقة قليل يقتصر على انتاج التمور و الزراعة الجزئية للحبوب[6].

---

[1] عبد الله المقلاتي و آخرون ،المرجع السابق ،ص62 .

[2] فرج محمود فرج ،المرجع السابق ، 126 .

[3] منصورية قدور، المرجع السابق ، ص39.

[4] المرجع نفسه ، ص39 .

[5] صديق الحاج ، **العلاقة الثقافية بين توات و الحواضر** ، المرجع السابق ، ص315.

[6] حباش فاطمة ، المرجع السابق ، ص 143 .

ورغم هذا كانت تمثل المورد الاقتصادي الهام عند غالبية السكان و القصور المنطقة،حيث كانت تفي بحاجة الإقليم جزئيا ، التي كانت تمارس من قبل رجال الطبقة الثالثة من طبقة المجتمع. فكانت غالبية الأراضي الزراعية للإقليم في مجاري الوديان القديمة أو بالقرب منها ، ونظرا للعوائق الطبيعية التي تميزة بيها البيئة الصحراوية حاول أصحاب البساتين إيجاد حلول لها [1].

فقد كانت المنطقة معروفة بإنتاجها الوفير لكثر المحاصيل الزراعية على رأسها التمور و الحبوب و التبغ و الحناء بحكم اعتماد الناس على حياة الواحات و السقي الوفير من خلال نظام الفقرات ، فقد بلغ مثلا عدد نخيل توات الوسطى سنة 1906 م حسب احصائيات فرنسية حوالي 453490 نخلة، وبلغت كمية الإنتاج من القمح و الشعير في قورارة وحدها سنة 1904 م حوالي 23000 قنطار[2]. وحسب الإحصائيات الفرنسية في منطقة تيدكلت لسنة 1906 م بلغ تعداد النخيل حوالي 315793 نخلة [3].

و بجانب زراعة النخيل زرع سكان المنطقة مزروعات أخرى ومنها الحبوب الخضروات الفواكه الحناء كما اشرنا سابقا كما زرعوا محصولات البحر الأبيض كالجزر و اللفت و الفول و العدس و الحمص البطيخ الرمان و غيرها [4].وبهذا صدرت منتوجاتها الى الجنوب المغربي و السودان [5].

ونجد من أهم المناطق في انتاج الحبوب بودة التي تقع نهاية وادي الساورة ، ثم تأتي قورارة ، فقد كان القمح و الشعير و الحبوب عموما من المنتجات الفلاحية التي تأتي بعد التمور رغم قلة انتاجها الذي لم يكن يحقق الاكتفاء الذاتي[6] ، ومنه ما يقول صاحب كتاب دائرة المعارف يقول(..و في توات من القرى ما يقول الأهالي ان عدده كعدد أيام السنة ، و انا قوتهم فمعظمهم من التمر و يأكلون أيضا الجراد والغنم ، ويجلب لهم القمح من بلاد التلول ..)[7].

---

[1] فرج محمود فرج ،المرجع السابق ، ص 67 .

[2] عبد الكريم طهيري ، منطقة توات و اسهاماتها في المقاومة الشعبية 1883 / 1903 ، المرجع السابق ، ص 91 .

[3] Voinot louis, Le **Tidikelt ، etude sur la géographie , L'histoire ,les moeur du pays** , Ed J.Gardini , 1909 ,pp 14_31.

[4] فرج محمود فرج ،المرجع السابق ، ص71 .

[5] عبد الكريم طهيري،المرجع السابق ،ص 92 .

[6] المرجع نفسه.

[7] بطرس البستاني ، **كتاب دائرة المعارف** ، مج6 ، مؤسسة مطبوعاتي اسماعيليان ، طهران ، صص200 ،262 .

- **تربية المواشي :**

فقد ارتبط نشاط تربية المواشي بالنشاط الزراعي الذي كان منتشر كثيرا في المنطقة نظرا لانتشار الكلاء، وبذلك كان نشاط الرعي مصدر رزقهم من خلال رؤوس الأغنام التي يبيعونها ، وكذا المواد التي يستخلصونها مثل الصوف ، والحليب و الجلود [1].

ومن المناطق التي اشتهرت بالرعي نجد منطقة تيديكلت حيث بها مراعي يطلق عليها أهلها اسم الغابة التي كانت تستخدم من قبل بعض القبائل مثل زنان و المختار في نقل السلع التجارية للمسافرين الى أسواق السودان. وقد انتشرت في قصور توات تربية الأغنام المعروفة عندهم ب الدمان و الماعز الى جانب الخيل و الابل و الحمير و كما كانت منتشرة تربية الدواجن[2].

و في هذا الصدد يقول إيستيبلو Estomblo في قانون الجزائر المشروع (..يعيش ثلثا السكان المحليين في الواقع من حياة الرعي , يوفر القطيع لاسيما المعز حليب الذي يشكل الطعام الأساسي للفرد و عائلته ، ويستخدم صوف الخروف لصنع الثياب و البرنوس كما يستعمله بعد مزجه بالوبر لتحسين الخيمة مسكن البدوى ..)[3].

اما تربية الحيوانات الاليفة فقد تمثلت في المواشي التي كانت ترى في الباساتين و البيوت نظرا لقلة المراعي ، كما تم تربية الجمال بكثرة في نواحي مثل قورارة و تيديكلت لوفرة الاودية ومراعي البور . ونجد ما قاله الشيخ سيدي الضيف التواتي في رحلته سنة 1747 م عن قصر أولاد محمود بأنه كان بلد مرج ترعى فيه الابل ، وجنان باسا في دلدول التي قال عنها " أنها كانت بلدة طيبة ليس بها سباخ ، وأنها كثيرة الغنم ، جل غنمهم ماعز كأن قرونها عصا ، وضروعها تتدلى..... " [4].

ففي منطقة تيدكلت كانت الثروة الحيوانية كتالي الابل 600 رأس ، الحمير 700 رأس ،الأغنام و الماعز 3500 رأس [5].

---

[1] حباش فاطمة ، المرجع السابق ، ص 144 .

[2] فرج محمود فرج ، المرجع السابق ، ص ص 71 ، 72 .

[3] حباش فاطمة ،المرجع السابق .

[4] عبد الكريم طهيري، المرجع السابق ، ص 93

[5] Voinot louis , Op.Cit,p27.

و يذكر ابن الدين الاغواطي في رحلته انه وجد في قورارة أغناما كغنم السودان ، وأنه كانت توجد بها خيول بكثرة ، وأن أهل تيميمون كانوا يملكون قطعانا كبيرة من الماشية ، و أنهم يدفعون الزكاة و أنهم لهم تجارة مع الطوارق [1].

- **النشاط التجاري:**

أما النشاط التجاري هنا فهو مرتبط أساسا بالرعي و الزراعة الذي كان يتمثل في التجارة فالفرد عندما ينتقل من منطقة الى أخرى مع خرافه و جماله كان ينقل معه كميات كبيرة من البضائع تتمثل أساسا في التمور و الصوف الجلود الاقمشة و رؤوس الأغنام من أجل مبادلتها بمواد أخرى خاصة الحبوب من المناطق التلية [2]. فذكرت المصادر الأجنبية في اطار الدور الذي لعبه كل من سكان " التي اعتبر سكان القصور هم همزة الوصل؛ فهم مستقرون يزرعون ويخزنون، بينما "الرحّل" هم الزبائن الذين يأتون من أعماق الصحراء للمقايضة[3]، مما يخلق دورة اقتصادية محلية مترابطة بين سكان المنطقة على أساس النشاط التجاري و الزراعي .

حيث و في القرن 19 م كانت توات لاتزال تتمتع بذلك الروج الاقتصادي خاصة في تجارة الذهب و التمور و التبغ و العبيد و المخطوطات ،حيث ذكر بارث أن التوات كانت تشكل خزانا تجاريا كبيرا بين تافيلالت و سجلماسة و تميكتو ، وانه شاهد قافلة كبيرة من توات و هي تغادر تمبكتو في أكتوبر 1853 م و مثله ما قال بول سوليه في تقريره سنة 1874 م عن موقع واحات توات البالغ أهمية تجاريا [4].

كما ذكرة المصادر أنه كان في تمبكتو لوحدها سنة 1870 حوالي 600 تاجر تواتي مقابل 25 تاجر من تافيلالت ، واما اوجين دوماس فقد قال أن توات تميزت بأسواق كثيرة و متخصصة

---

[1] ابن الدين الأغواطي ، **مجموعة رحلات رحلة الأغواطي** ، تح : أبو القاسم سعد الله ، المعرفة الدولية للنشر و التوزيع ، الجزائر ، ص 93 .

[2] حباش فاطمة ، المرجع السابق ، ص 144 .

[3] Le Dr a Casset , Op.cit,t, p 64 .

[4] مبارك جعفري ، **مقالات و أبحاث** ، المرجع السابق ، ص ص67 73 .

كأسواق القماش ، وسوق السمن و سوق السراجين و سوق العبيد و سوق العطارين و سوق الأغذية و سوق الماشية و سوق التبغ [1].

كما مكتها **وقعها الجغرافي الاستراتيجي** لواحاتها من جعلها مركزا تجاريا هاما للقوافل المتجهة من الشمال الى الجنوب اتجاه الواحات الصحراوية مثل ورقلة و اتجاه السودان .فقد كان سكانها وعلى رأسهم أولاد سيدي الشيخ كانوا ينتقلون الى ورقلة و قورارة و ميزاب و متليلي ، والى فقيق و تيميمون للمقايضة الماشية و الصوف و الافرشة و الزبد و اللحم الجاف مقابل التمور و منتوجات صحراوية أخرى [2].

فالمعاملات التجارية في المنطقة تمثلت مع اربع اتجاهات ، الجنوب الجزائري العاصمة في امتداد من بسكرة الى قابس ، والى جهة الشرق حيث غدامس و غات و غيرها ، والى بلاد الهقار ، و الى الجنوب حيث السودان الغربي [3].

- **الحرف و الصناعات اليدوية :**

كان لسكان منطقة الجنوب الغربي الكثير من الحرف و الصناعات اليدوية يمارسونها داخل المنازل و الحوانيت ، فكانت صناعة غزل النسج و الصوف و القطن تحتل مكانة أولى عندهم كما برعوا في صناعة الابسطة و الاغطية و الملابس كالبرانيس و الاغطية . ورغم الصعوبات التي واجهت سكان المنطقة من قلة المواد الخام من الصوف و الخام الا انهم برعوا في الصناعة اليدوية مما نالت شهرة كبيرة داخل وخارج منطقة [4].

كما كان منهم الخياطون و الحدادون و صناع الامشاط و الصناعات الجلدية و صياغ الحلي من الذهب و الفضة التي كانت هذه الأخير تمارس من قبل اليهود ، والتي كانت تتواجد في أسواق المدن الكبرى كتيميمون و ادرار تمنطيط و قصر العرب الكبير [5].

---

[1] نفسه.

[2] حباش فاطمة ، المرجع السابق ، ص 145 156

[3] A.G.P . Martin , **Les Oasis Sahariennes Oasis sahariennes (Gourara _ touat , tidikelt)** , Ed .Augustin Challamel, 1908 ,p,316.

[4] فرج محمود فرج ، المرجع السابق ،ص،72

[5] المرجع النفسه .

وتمكنوا من استخراج الجير و الملح البارود و ملح الطعام ،و استطاعوا الحصول على الاخشاب رغم فقر بيئتهم التي كانوا يستغلونها في أغراض الاشتعال أو التدفئة . بالإضافة الى هذا اشتهر التواتيين ب بالصناعة الفخارية [1].

ونحت الاواني من الطين ومن الحجارة الأدوات المنزلية و من الخشب المصنفات المشتقة من النخلة خصوصا ،كصناعة الأبواب و المفاتيح و الحبال و الاطباق بشتى أنواعها ومن الحديد الفؤوس و مواقد الطهي و مغازل النسيج و السكاكين و الأسلحة و غيرها [2].

فتمثل دورها في الاقتصاد الصحراوي من خلال ما سبق ان انها لعبت دورًا اقتصاديًا بارزًا داخل المجال الصحراوي، حيث ساهم موقعها بالدرجة الأولى المتوسط في شمال الصحراء في ربطها بمختلف المراكز التجارية، سواء على مستوى مدن الداخل أو موانئ البحر الأبيض المتوسط، مما جعلها عنصرًا نشطًا في حركة المبادلات التجارية. كما ساعد الاستقرار السياسي الذي عرفه الإقليم خلال فترات طويلة على تعزيز نشاطه التجاري وتوسيع علاقاته مع مختلف مناطق المغرب الكبير والسودان الغربي.

كما انها برزت كمركز للإنتاج الزراعي والتي ساهمت بمنتجاتها خاصة التمور في تنشيط المبادلات، التي من خلالها نشأت بينها وبين القبائل الرحل علاقات تبادل قائمة على المقايضة، وهو ما ساهم في خلق حركية اقتصادية محلية. إضافة إلى ذلك، تحولت واحات المنطقة إلى مراكز لتجميع السلع القادمة من الشمال والجنوب وإعادة توزيعها، حيث كان بعض التجار يكتفون بإيصال بضائعهم إليها لاستبدالها بسلع أخرى[3].

[1] نفسه، ص 72 74 .

[2] عبد الكريم الطاهري ، المرجع السابق ، ص 94 .

[3] عبد الكريم طهيري ،**توات في مشروع التوسع الاستعماري الفرنسي بالجزائري خلال القرن 19** ، ، مجلة الرفوف ، ع 02 ، مج 11 ، جامعة ادرار ، ص 504

المبحث الثالث : الأهمية الاستراتيجية و العملية للصحراء

أولا : البعد الافريقي للصحراء

نظرًا لموقع الجغرافي المناطق الواقعة في الجنوب الغربي المتميز، فقد حظيت بأهمية حيوية واستراتيجية كبيرة داخل المجال الصحراوي، حيث شكلت مركز عبور رئيسي كما سبق الذكر يربط بين المغرب الأوسط والأقصى من جهة، والسودان الغربي من جهة أخرى. وقد تعززت هذه الأهمية خاصة منذ القرن الخامس عشر الميلادي، عقب تراجع دور بعض المراكز التجارية التقليدية، لتتحول المنطقة تدريجيًا إلى همزة وصل جغرافية وتجارية بين عدد من الحواضر المزدهرة، مثل الجزائر شمالًا، وتمبكتو جنوبًا، وغدامس شرقًا، وفاس غربًا [1].

مما شهدت المنطقة تنوعا تجاريا بين السلع المتداولة بين المنتجات المحلية و الموارد المحملة من الشمال و المواد التي تنتجها المنطقة فيذكر ان الاقليم فرض نفسه تجاريا على القوافل التي تقصد افريقيا جنوب الصحراء كمملكة البورنو و الهوسا و ماسينا و موغادور بما في ذلك مدينة طنجة المغربية و طرابلس و مصر[2].

ساهمت أيضًا في جعلها ملتقى رئيسيًا للقوافل التجارية العابرة للصحراء، حيث أدى اتساع المجال الجغرافي وتنوع المسالك إلى تنشيط الحركة التجارية وارتباط كل جهة بنشاط ومسار معين، كما لعبت دورًا مهمًا كمحطة لمرور الحجيج نحو البقاع المقدسة[3].فنجد في هذا واحة اقبلي برزت في تلك الفترة كمحور استراتيجي داخل الإقليم ' بفضل موقعها الذي يشرف على الطرق الآمنة المؤدية الى مختلف مناطق الصحراء و بلاد السودان [4].

تعد نقطة محورية في شبكة القوافل العابرة للصحراء ، حيث لم تقتصر أهميتها على مرور القوافل فقط ، بل لعبت دور حلقت وصل بين الشمال و الجنوب من مما نجدها تتوسط مدن رئيسية في

[1] عبد الكريم طهيري ، المرجع نفسه.

[2] نفسه

[3] مياسي ابراهيم ، الاحتلال الفرنسي للصحراء الجزائرية 1837 1934 ، الجزائر ، دار هومة ، ص419 418.

[4] Commandant REBILLET, **Les relations commerciales de la Tunisie avec le Sahara et le Soudan**, imprimerie Berger Lavirault, Nancy, 1895, p.14.

التجارة الصحراوية مما جعلها نقطة عبور وممر رئيسي لقوافل هاته المدن ومنها غدامس شرقا و تمبكتو جنوبا و فاس غربا و الجزائر شمالا [1].

يقول العياشي .وسبب اقامتنا في هذه البلاد هذه المدة أن أكثر من الحجاج لما غلا صرف الذهب في تافلالت اخروا الصرف الى توات، فإن الذهب فيها أرخص و كذلك سعر القوت من الزرع و التمر وهذه البلدة هي مجمع القوافل الآتية من بلاد تنبكتو ومن بلاد أقذر من أطراف السودان و يوجد فيها من البضائع و السلع التي تجلب من هناك شئ كثير ..) [2].

وقد لفتت هذه المكانة الاستراتيجية أنظار الرحالة والاهتمامات الأوروبية، حيث أشار Heinrich Barthإلى أهمية توات بوصفها فضاءً تجاريًا حيويًا مرتبطًا بمراكز كبرى مثل تمبكتو، كما سجل مشاهدته لقوافل تجارية كبيرة تنطلق منها في منتصف القرن التاسع عشر.[3]

ومن جهة أخرى أكد الكولونيل **ميرشر** أن الطرق الطبيعية الرابطة بين الجزائر وبلاد السودان تمر عبر واحات توات، مشيرًا إلى كثافة الحركة التجارية بها منذ العصور الوسطى، في حين أبرز **بول سولايي** الطابع المتوازن لموقعها، حيث تتساوى المسافات تقريبًا بينها وبين أهم المراكز التجارية في الشمال والجنوب والشرق والغرب، وهو ما يعكس موقعها المحوري داخل الشبكة التجارية الصحراوية[4].

وعلى هذا الأساس، لم تكن توات مجرد مجال للعبور التجاري، بل مثلت امتدادًا حيويًا للعمق الإفريقي، وهو ما يفسر تزايد اهتمام الفرنسيين بها، باعتبارها نقطة استراتيجية للتحكم في طرق التجارة والربط بين شمال إفريقيا ووسطه

فصنف إقليم توات ، وفقاً لرؤية الفرنسية كطريق مواصلات ومركز ثقل جيو–اقتصادي في قلب الصحراء الكبرى؛ فقيمته الحقيقية لا تكمن في إنتاجه المحلي فحسب، بل في دوره الوظيفي ك مستودع تجاري Entrepôtونقطة التقاء إجبارية للمسالك القادمة من الشمال والجنوب. ، فإن كافة

[1] د/عبد الحميد جمدي ، المرجع السابق ،ص41 42 .

[2] ابو سالم العياشي ، **الرحلة العياشية** ، تحقيق محمد حاجي ، ج1 ، ط2 ، دار المغرب للتأليف و النشر ، 1977 ،ص 21 .

[3] عبد الكريم طهري ،توات في مشروع التوسع الاستعماري الفرنسي بالجزائري خلال القرن 19 ، المرجع السابق ، ص 504 .

[4] المرجع نفسه .

القوافل التجارية الضخمة المنطلقة من بلاد السودان، والمحملة بالسلع الثمينة، تجد في توات المحطة الوحيدة لإعادة التنظيم وتوزيع الحمولات قبل التوجه نحو أسواق تافيلالت أو موانئ المتوسط [1].

ومع النشاط الاقتصادي عملت الجماعة على الاحتكاك ب الشعوب الأخرى من خلال التعرف على تيارات الثقافية والفكرية الأخرى وكذا نقل ما عندهم من علوم ومعارف الى مناطق السودان الغربي و الى جيرانهم سكان الصحراء . كما بلغ نشاط الجالية التواتية في مطلع القرن 19 في مدينة فاس نشاطا كبيرا ، حيث كان الشيخ الفقيه عمر بن عبد القادر التنلاني التواتي من اشهر الأساتذة في جامع القروين[2].

ثانيا : الصحراء كعمق دفاعي للجزائري

شكلت منطقة الجنوب الغربي ، بحكم موقعها الجغرافي البعيد عن مراكز الشمال وبفضل طوبوغرافيتها الوعرة ومناخها الصحراوي القاسي، مجالًا منعزلًا نسبيًا عن دوائر السلطة المركزية، مما جعلها عبر فترات تاريخية متعددة ملاذًا آمنًا لكل من يخرج عن سلطة الحكم.

فقد ساهمت طبيعتها الصحراوية الصعبة في تحويلها إلى فضاء بعيد عن الاضطرابات والصراعات التي عرفتها مناطق شمال إفريقيا، سواء خلال العصور القديمة في ظل الصراعات بين الممالك البربرية مثل نوميديا و موريتانيا، أو خلال الفترات الإسلامية المتعاقبة. كما لم تكن بعيدة عن تأثيرات الصراعات الخارجية والاحتلالات المختلفة التي عرفتها المنطقة. [3]

وقد أدى هذا الوضع الجغرافي المتميز إلى جعل توات منطقة استقطاب للمتمردين والمعارضين والهاربين، حيث وفرت لهم بيئة آمنة نسبيًا سواء ضد السلطة المركزية أو ضد القوى الخارجية، مما رسخ مكانتها التاريخية كفضاء للجوء والاستقرار خارج نطاق السيطرة المباشرة للأنظمة المتعاقبة.

[1] Camille Sabatier، Op . cit , t , pp 113.

[2] فرج محمود فرج ، المرجع السابق ، ص 121 .

[3] د. محفوظ رموم ، **الاحتلال الفرنسي لأقصى الجنوب الغربي الجزائري و المجابهة العسكرية و الثقافية** ، جامعة ادرار ،ص 56.

فنجد هنا انها كانت منطقة لجوء آمنة للكثير من المقاومين بعد فشل انتفاضتهم و مقاومتهم في الشمال[1] ، فقد لجأ اليها الشريف بوشوشة و السي زوبير و الشيخ بوعمامة ووجدوا كل الدعم و المساندة من الناس المنطقة [2].

كما أوصى الرحالة الألماني عند زيارته للمنطقة " **جيرهادر رولفس** سنة 1864م عندما شاهد بنفسه مدى فعالية و مشاركة أهل الجنوب للشمال السلطات السلطات الفرنسية بنقل حدودها الى نهاية الساورة ، و انهم لن ينعموا بالهدوء مالم يستولوا على تلك المنطقة[3].

وفي هذا السياق، لجأ إلى المنطقة عدد من القادة المقاومين، من **بينهم الشريف** محمد بن عبد الله السنسوني، الذي قاد حركة مقاومة امتدت بين 1851 و1861م، وشهدت نشاطًا واسعًا في مناطق الصحراء الجنوبية الشرقية.

وقد واجهت هذه الحركة حملات عسكرية فرنسية ومحاولات حصار متكررة، لكنها استمرت في التوسع نحو مناطق متعددة، مستفيدة من طبيعة الجنوب وصعوبة السيطرة عليه. بعدها توجه الى الجنوب الغربي ومنها الى توات حيث اعاد بناء وتنظيم قوته وربطها بحركات أخرى في الجنوب الى غاية نهاية سنة 1959 ، مما جعل من الجنوب الغربي فضاءً استراتيجيًا داعمًا لاستمرار المقاومة ضد التوسع الاستعماري الفرنسي[4].

و **نجد ثورة أحمد بن التومي** بن إبراهيم المعروف ببوشوشة، حيث شكل هذا المجال الصحراوي فضاءً استراتيجيًا احتضن حركته المقاومة ضد الوجود الفرنسي. فقد اعتمد بوشوشة على هذا الامتداد الجغرافي الواسع كقاعدة خلفية لإعادة تنظيم قواته، حيث انطلقت مقاومته من نواحي متليلي في

---

[1] عيسى بوقرين ، **المقاومة الشعبية في الجنوب الشرقي الجزائري 1850 / 1875** ، دار طليطلة ، 2022 ، ص 60 .

[2] عبد الكريم طهري ،**توات في مشروع التوسع الاستعماري الفرنسي بالجزائري خلال القرن 19** ، المرجع السابق ، ص 512.

[3] ابراهيم المياسي ، **التوسع الاستعمار الفرنسي في الجنوب الغربي الجزائري** ، المرجع السابق ص ، 77 .

[4] د. محفوظ رموم ، **الاحتلال الفرنسي لأقصى الجنوب الغربي الجزائري و المجابهة العسكرية و الثقافية** ، المرجع السابق ، ص 58.

1870 ، ومع توسع مقاومته وزيادة تصاعد الضغط الفرنسي ، تراجعت قواته نحو عمق الصحراء، حيث واصل نشاطه من عدد من قصور توات مثل عين صالح وتيديكلت وتيميمون و أوقروت [1].

فمكنه هذا العمق الصحراوي من الاستمرار في المقاومة رغم المطاردات العسكرية، إلى غاية إلقاء القبض عليه بالمنيعة سنة 1874م وإعدامه بقسنطينة، حيث التحق بعض أنصاره بمقاومات أخرى مثل مقاومة الشيخ بوعمامة، و اتجهوا نحو مناطق الأهقار لمواصلة النشاط المقاوم[2].

و قد شكل هذا المجال الصحراوي حصنًا خلفيًا في **مقاومة الشيخ بوعمامة** مكّنه من إعادة تنظيم قواته بعد تزايد الضغط الفرنسي عليه. فقد اتخذ من بعض قصور المنطقة، مثل دلدول وتيگورارين، قاعدة لإعادة التموين ورص الصفوف، كما استفاد من طبيعة الإقليم الصحراوية وصعوبة الوصول إليه، مما وفر له حماية نسبية سمحت باستمرار نشاطه المقاوم لفترة طويلة.

مما عززت علاقاته بالقبائل المحلية، مثل الزناتية والشعانبة، من قدرته على الصمود، حيث قدمت له الدعم المادي والمعنوي والحماية، مما ساعده على خوض حرب عصابات ضد القوات الفرنسية. وإلى جانب ذلك، ساهم ارتباطه بالطرق الصوفية، خاصة السنوسية في إقليم تيديكلت، في تقوية موقفه من خلال الدعم الروحي والتنظيمي، وهو ما جعل الجنوب الغربي فضاءً داعمًا لاستمرارية الثورة وليس مجرد مجال جغرافي، بل قاعدة خلفية للمقاومة ضد التوسع الاستعماري الفرنسي.

و تردد عليها أولاد سيدي الشيخ كثيرا منذ اندلا ع انتفاضتهم سنة 1864 ، ومنهم سي قدور بن حمزة الذي استلم مشعل الثورة من 1869 1883 التي كانت منطقة قورارة و قبيلة خنافسة اهم المناطق و الحلفاء له [3].

فساهمت المنطقة بتلك الأوضاع وذلك التحدي ضد الفرنسيين ة في خلق بيئة مناهضة للاحتلال الفرنسي فقال **جول كامبون** في هذا الصدد (..و أخيرا من الضروري أن تتخذ فرنسا قرارا بشأن نهائي يتضمن هدوء الجزائر و الهيمة على واحات الجنوب" و قال أيضا " إن توات و قورارة و

[1] نفسه .

[2] نفسه .

[3] عبد الكريم طهيري ، **منطقة توات و اسهاماتها في المقاومة الشعبية بالجزائر** .. ، المرجع السابق ،ص 254 .

تيديكلت كانت ملجأ للمرتدين، و مصدرا للاضطراب ضدنا ، حيث هناك في دلدول بوعمامة الذي يسعى لتشجيع الغارات و التمرد علينا ..)[1].

وهكذا يتضح أن أقصى الجنوب الغربي لم يكن مجرد مجال جغرافي، بل أدى دورًا فعليًا كعمق دفاعي للمقاومة، ساعد على استمرارها وربطها بين مختلف مناطق الصحراء رغم شدة الضغط العسكري الفرنسي

ثالثا: رؤية فرنسا الجيوسياسية

مع الاحتلال الفرنسي لم يكن هناك في البداية ما يُذكر، غير أن هذا الاحتلال الذي انطلق من مدينة الجزائر أخذ يتوسع تدريجيًا، فشمل أولًا المناطق الساحلية، ثم امتد إلى إقليم التل، فالمناطق غير الجبلية للأطلس، وصولًا إلى الهضاب العليا، قبل أن يبلغ الكتلة الصحراوية والواحات.

وقد أصبح الهدف لاحقًا ربط الممتلكات الفرنسية بين تمبكتو في الجنوب الغربي وبحيرة تشاد في الجنوب الشرقي. غير أن هذا التوسع رافقته تحولات إدارية، حيث تعاقب الحكام العسكريون ثم المدنيون بشكل متكرر، وغالبًا ما انشغلوا بالقضايا السياسية أكثر من اهتمامهم بالشؤون الحيوية للسكان [2].

وعليه **و**نظرًا للمكانة الإقليمية التي كانت تحتلها منطقة توات، خاصة من خلال إشرافها على الطرق التجارية الكبرى في الصحراء وتحكمها في مسالك القوافل التجارية والحجيج، رأت فيها فرنسا مجالًا حيويًا لا بد من السيطرة عليه. فقد شكلت هذه المنطقة حلقة أساسية في الربط بين شمال إفريقيا وعمقها الإفريقي، وهو ما جعلها تندرج ضمن التصور الجيوسياسي الفرنسي الرامي إلى توحيد مستعمراته الإفريقية[3].

[1] المرجع نفسه ، ص 255 .

[2] Le Dr a Casset , Op , cit ,t, p193 .

[3] عبد الكريم طهيري ، **توات في مشروع التوسع الاستعماري الفرنسي بالجزائري خلال القرن 19** ، ص511 .

و نجد في هذا المغرب الذي كان له أطماع في الإقليم مما سعت فرنسا الى قطع الطريق أمامها فقد كان يحاول ضم المنطقة لحكمه فأرادت فرنسا ان تسبقها و حذرت سلطات فاس أنها لن تسمح بأي عمل من شأنه أن يضع المنطقة تحت سلطة العرش الغربي[1].

وفي هذا السياق سعت فرنسا من خلال رغبتها التوسعية نحو داخل افريقيا إلى تحقيق مشروع استعماري واسع يقوم على ربط مستعمراتها في غرب إفريقيا وجنوب الصحراء بشمالها عبر الجزائر، تجسيدًا لفكرة إمبراطورية تمتد من البحر الأحمر شرقًا إلى المحيط الأطلسي غربًا [2]

وقد عبّر عن هذا التوجه وزير خارجيتها ريبو سنة 1891م مؤكدًا على الأهمية الاستراتيجية والأمنية لمنطقة توات، وضرورة إنشاء **خط سكة حديدية** نحو الجنوب انطلاقًا من عين الصفراء، تمهيدًا لإحكام السيطرة عليه و كذا العديد من الرحالة الذين أكدوا و نصحوا الفرنسيين بضرورة بسط فرنسا لنفوذها على منطقة الساورة و توات على أساس أهميتها الاقتصادية و الأمنية [3].

فلم يكن التغلغل الفرنسي في الجنوب الغربي مجرد تحرك عسكري عشوائي، بل استند إلى دراسات تقنية دقيقة هدفت إلى استبدال نظام القوافل التقليدي بمشاريع سكك حديدية عابرة للصحراء وتؤكد الوثائق التاريخية أن فرنسا وضعت نصب أعينها تحويل تدفق التجارة من المسالك الصحراوية القديمة لتصب في الموانئ الجزائرية المحتلة، ولا سيما وهران والجزائر العاصمة، لضمان السيطرة الاقتصادية التامة على عمق القارة الإفريقية [4].

وما عبر عنه أيضا مرشال سولت وزير الحربية الفرنسية بقوله (لا يجب إهمال الصحراء الجزائرية وذلك لما تقدمه لنا من ثروة ، والتي تعطي لنا بعدا ضروريا و سياسيا و تجاريا و ويجب أن بسود حكمنا فيها ...)[5].

---

[1] إبراهيم المياسي ، **التوسع الاستعمار الفرنسي في الجنوب الغربي الجزائري 1881 / 1912** ، المرجع السابق ، ص107 .

[2] عبد الكريم طهيري ، **توات في مشروع التوسع الاستعماري الفرنسي بالجزائري خلال القرن 19**، المرجع السابق ، ص511.

[3] نفسه .

[4] Camille Sabatier , Op ,cit ,t,71.

[5] أبو القاسم سعد الله ، **محاضرات في تاريخ الجزائر الحيث و بداية الاحتلال** ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزائر ، 1982 ، ص 25 .

فنجد ان فرنسا ارادت السيطرة على تمبكتو كما جاء في تخطيط جون كاميون الوالي العام للجزائر 1891 1897 م الذي كان يسعى الى احتلال منطقة عين صالح لكونها نقطة عبور نحو تمبكتو و نهر النيجر ، وقد استولى الفرنسيون على الطرق المؤدية الى عين صالح لكونها نقطة عبور الى تمبكتو و نهر النيجر ، لكنهم كانوا خائفين من ردة فعل المغاربة و الإيطاليين، و في الأخير استولت وحدة فرنسية على تمبكتو سنة 1894 م و كان لسقوطها في يد الفرنسيين تأثير عميق في نفوس المسلمين لكونها بلد ذائع الصيت في العالم الإسلامي ، و أصبحت فرنسا تبحث في الاستلاء على المناطق و الطرق المؤدية و بالتالي احتلال بقية المناطق الصحراوية [1].

و مما ما وجد في كتاب الفرنسيCamille Sabatier فكرة إنشاء خط سكة حديد يخترق الصحراء حتى "فم الخنق"، لربط الجزائر بالنيجر عبر توات، مما يؤكد أن الإقليم كان "دهليز السودان " (vestibule du Soudan)[2]

و يعود هذا الاهتمام إلى وقت مبكر، حيث فكرت فرنسا منذ سنة 1848 في ربط الجزائر بالسنغال عبر مسالك برية، وهو ما دفعها إلى تنظيم بعثات استكشافية ودراسة مشاريع خطوط حديدية عابرة للصحراء. ومع توسع نفوذها في إفريقيا، خاصة بعد سيطرتها على الجزائر والسنغال والغابون، ازدادت رغبتها في التوغل نحو السودان الغربي، ضمن استراتيجية تدريجية للسيطرة على المجال الصحراوي[3].

وقد تجسد هذا التوجه في سلسلة من الحملات التوسعية التي شملت مناطق متعددة مثل مالي وتشاد والنيجر، قبل أن تمتد نحو الجنوب الغربي الجزائري، حيث انطلقت من توات وقورارة نحو الساورة سنة 1903، معتمدة على البعثات الاستكشافية والقوات العسكرية، رغم مواجهتها لمقاومة محلية، إلى غاية استكمال سيطرتها على مناطق أخرى مثل تندوف سنة 1934، وبذلك تكون قد حققت جزءًا مهمًا من مشروعها الجيوسياسي في الصحراء [4].

---

[1] محمد صالح حوتية ، **توات و الازواد** ، ج2 ، دار الكتاب العربي ، 2007 ، ص 462 .

[2] Camille Sabatier، Op ,cit ,t, p 64.

[3] عبد الكريم طهيري ، **توات في مشروع التوسع الاستعماري الفرنسي بالجزائري خلال القرن 19** ، المرجع السابق ، ص 511 .

[4] نفسه .

وتوضح المخططات الفرنسية لتلك الفترة أن السيطرة على مسالك القوافل في الجنوب الغربي كانت جزءاً من صراع إقليمي أوسع. فبينما كانت إيطاليا تخطط لربط طرابلس بتشاد، سارعت فرنسا لترسيم مسارات تنطلق من فيليب فيل (سكيكدة) والجزائر ووهران لتصل إلى حوض النيجر وتشاد. هذا التنافس جعل من الواحات الجنوبية ومحطات القوافل أهدافاً عسكرية ذات أولوية قصوى لتأمين السيادة الفرنسية ومنع أي اختراق أجنبي للمجال الصحراوي الجزائري [1].

خلاصة الفصل :

قامت البنية السياسية في الجنوب الغربي قبيل الاجتياح الفرنسي على هيكلين منظمين ,على الأساس السياسي تمثل في نظام الجماعة و القصور و من جهة أخرى على أساس الديني الذي كانت فيه الزاوية هي المؤسسة الفعلية ، و كلاهما لعبا دورا رياديا في احكام المنطقة و إرساء الامن داخل المجتمع الصحراوي ككيان منفصل عن السلطة المركزية ، كما رافق هذا نظام اقتصادي محكم الذي شهدت من خلاله المنطقة حركية تجارية داخل المجال الصحراوي و خارجه عبر نظام القوافل ، هذا الأخير الذي ازدهر بفعل موقع المنطقة الاستراتيجي التي اعتبرت مركز ربط بين الشمال و الجنوب و الغرب و الشرق ، الامر الذي لفت أطماع القوة الخارجية كونها رأت في المنطقة مجالا حيويا لتحقيق مشاريعها التوسعية نحو افريقيا من هنا بدأت فرنسا في البحث عن الوسائل لاختراق هيكل الجنوب الغربي .

[1]. Camille Sabatier ,Op , cit ,t , p 71.

الفصل الثاني :

مرحلة الاستكشاف والاختراق السلمي

1881 / 1844

المبحث الأول: البعثات العسكرية والعلمية

المبحث الثاني: سياسة الاختراق غير مباشر

المبحث الثالث: ردود فعل المحلية

الفصل الثاني : مرحلة الاستكشاف و الاختراق السلمي 1844 / 1881

تمهيد :

مثّلت الفترة الممتدة ما بين 1844 الى 1881 مرحلة الأولى من الاستعمار الفرنسي للمنطقة، و التي في خلالها قامت بإرسال البعثات استطلاعية و استكشافية عملت على رسم صورة دقيقة للكيان الصحراوي .

وفي هذا الإطار، يتناول هذا الفصل الوسائل التي وظفتها الإدارة الاستعمارية لتحقيق أهدافها من خلال تنظيم البعثات العسكرية والعلمية. كما سيتم عرض سياسة الاختراق غير المباشر التي انتهجتها فرنسا عبر التحالف مع بعض القيادات المحلية والزوايا، إضافة إلى توظيف التجارة والدبلوماسية الاستعمارية لتسهيل نفوذها داخل المجال الصحراوي. وفي المقابل ردود الفعل المحلية تجاه هذا التغلغل، من خلال المواقف القبلية والحذر الصحراوي من الفرنسيين، وصولاً إلى بدايات المقاومة ضد الوجود الاستعماري في المنطقة.

المبحث الأول : البعثات العسكرية و العلمية

أولا: خرائط و استطلاع

بعد انهزام المغرب ضد فرنسا في **معركة اسلي 1844** رضخ المخزن لشروط فرنسا في معاهدة طنجة من نفس السنة 1844 م ، ثم جاءت معاهدة لالة مغنية مكملة لها حيث تم توقيعها بين الطرفين بتاريخ 18 مارس 1845 التي تطرقت الى ترسيم الحدود بين فرنسا في الجزائر و الدولة المغربية ، التي بموجبها تم ترسيم الحدود الى غاية منطقة فقيق في الجنوب ، و ما بعدها فقد اعتبرت الاتفاقية بقية الصحراء و منها الجنوب الغربي ارضا قاحلة مشاعة ليست ملكا لأحد [1].

[1] عبد الكريم طهيري و آخرون ، **توات في مشروع التوسع الاستعماري الفرنسي بالجزائر خلال القرم 19 م** ، المرجع السابق ، ص509

تضمنت المعاهدة سبع بنود و كان اهم بنودها رسم الحدود بين الدولة المغربية و مستعمرة الجزائر الفرنسية فتم اتفاق فيها على ان مناطق الجنوبية لا تحتاج الى رسم الحدود كونها منطقة خالية وهذا كان متعمدا من قبل السلطات الفرنسية لتسهيل اطماعها التوسعية فقد كانت تتطلع للتوسع نحو الجنوب الغربي مباشرة بعد ابرامها المعاهدة و القضاء على مقاومة الامير عبد القادر ، حيث كثفت من بعثاتها الاستكشافية لهذا الغرض[1].

و كما تم عرضه في الفصل السابق سعت فرنسا إلى ربط مستعمراتها في الشمال والغرب والوسط، إلى جانب خدمة مصالحها التجارية وفتح أسواق إفريقيا أمامها. ولتحقيق هذه الأهداف ركزت في مرحلة أولى على التعرف على الطرق الصحراوية القديمة، خاصة طرق القوافل، وذلك من خلال تنظيم حملات عسكرية وبعثات استكشافية مكثفة نحو الجنوب[2].

فاعتمدت هذه البعثات على مصادر متعددة، من بينها كتابات الرحالة والجغرافيين العرب الذين جابوا الصحراء ودوّنوا معلومات دقيقة حول مسالكها، مثل ابن بطوطة والإدريسي، وابن حوقل، والحسن الوزان، والبكري وغيرهم، حيث تضمنت أعمالهم وصفاً عاماً وخاصاً للطرق ووسائل المواصلات، مما ساهم في تكوين تصور أولي للمجال الصحراوي ومسالكه [3].

وانطلاقاً من هذه الجهود الأولية في التعرف على المسالك الصحراوية، انتقلت البعثات الفرنسية إلى مرحلة أكثر دقة تمثلت في تكثيف عمليات الاستطلاع الميداني ورسم الخرائط. حيث شهدت خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر تطوراً ملحوظاً، انتقلت من مجرد محاولات تقريبية إلى عمل ميداني دقيق يخدم الأهداف العسكرية الفرنسية.

وقد اعتمدت هذه العمليات على جمع المعطيات الجغرافية من خلال الاستطلاع المباشر، إلى جانب توظيف المخبرين المحليين مثل بلال بن محمد، الذي ساهم في تقديم تصورات أولية للمجال الصحراوي عبر وسائل بدائية كالحصى والخيوط، قبل أن تُحوَّل هذه المعطيات إلى خرائط ورقية أكثر

[1] بلعالم محمد باي ، **الرحلة العلية الى منطقة توات** ، ج2 ،ادرار ، 2007 ،ص 03 .

[2] د يحي بوعزيز ، **ثورات القرن العشرين** ، علم المعارف الجزائر ، 2009 ، ص 331 .

[3] المرجع نفسه ، ص 330 .

دقة. ومكّن هذا التعاون من تحديد مواقع استراتيجية في عمق الصحراء، مثل ورقلة وعين صالح وتوات، مما ساعد على رسم مسارات واضحة لتحرك القوات داخل بيئة جغرافية معقدة[1].

كما عمل الضباط الجغرافيون على تدقيق الخرائط وتصحيح المسارات العسكرية، وهو ما يتضح من خلال دور الضابط بيسويل (Bissuel) في مراجعة وتصحيح الخرائط السابقة، خاصة خريطة دوفيريه(Duveyrier) ، اعتماداً على القياسات الميدانية والاستطلاع المباشر. وقد ساهم هذا العمل في تجاوز الطابع التقريبي الذي ميز الخرائط الأولى، والانتقال نحو دقة أكبر في تحديد المسالك.

ولم يقتصر الاستطلاع على دراسة التضاريس، بل شمل أيضاً تحليل الشبكات المائية، حيث تم الاهتمام برصد مسارات الأودية مثل وادي مساورة (l'oued Messaoura) ووادي تغازرت (l'oued Teghazert)، إضافة إلى تحديد مواقع الآبار والممرات الحيوية المرتبطة بها[2].

المستكشفين مثلDeporter ، ركزوا على رصد الموارد المائية باعتبارها عنصراً حاسماً في تحديد المسالك. فالعثور على بئر بعمق معين كان كفيلاً بتحديد إمكانية التوقف أو إقامة مراكز مؤقتة، وهو ما جعل من دراسة المياه جزءاً أساسياً من عملية الاستطلاع. وفي السياق نفسه، ارتبط البحث عن مسارات جديدة بضمان أمن التنقل، حيث كان اختيار الطرق يتم وفق معايير تتعلق بسلامة القوافل وتفادي مخاطر النهب، مما يعكس أن ضبط المسالك لم يكن قائماً فقط على البعد الجغرافي، بل أيضاً على اعتبارات أمنية دقيقة[3].

كما تشير المصادر الفرنسية إلى اهتمام كبير بتحديد المحاور الرئيسية للتنقل داخل المجال الصحراوي، حيث تم الكشف عن وجود مسارين أساسيين ينطلقان من منطقة تيديكلت (Tidikelt)في اتجاه تمبكتو (Timbuktu) . ويتمثل الأول في محور غربي يمر عبر منطقة أولن (Ouallen)، بينما يمتد الثاني عبر محور شرقي يمر بمنطقة لوزيز .(Iuzize) وقد سمح هذا التحديد الدقيق للمسالك بتكوين تصور واضح لشبكة الطرق الصحراوية، مع المفاضلة بين هذه المحاور وفق معايير ترتبط بسهولة التنقل وتوفر الموارد الطبيعية على طول الطريق[4].

[1] Camille Sabatier , Op.cit . t, p9
[2] Ibid,t, p9
[3] Ibid,t, p10
[4] Ibid,t, p 19

ولم يقتصر الأمر على التعرف على الطرق، بل شمل أيضاً اختيار أنسبها لضمان فعالية التنقل داخل المجال الصحراوي، وهو ما يدل على دقة العمل الخرائطي الذي قامت به البعثات الفرنسية.

وفي سياق تطوير عمليات الاستطلاع، لم تكتفِ البعثات الفرنسية بالوصف العام للمجال الصحراوي، بل انتقلت إلى مرحلة أكثر دقة تمثلت في قياس المسافات بين الواحات وتحديدها بالكيلومترات، وهو ما يعكس تحولاً منهجياً من المعرفة الوصفية إلى المعرفة الكمية الدقيقة. وقد سمح هذا التطور بإعداد خرائط أكثر **دقة**، مكنت من تحديد المسافات الفعلية بين النقاط الاستراتيجية، وساهمت في تنظيم حركة التنقل داخل الصحراء بشكل أكثر دقة [1].

ومن جهة أخرى كانت تهدف الى رسم و كشف عن الطرق الآمنة من الناحية العسكرية بعيداً عن مناطق تمركز القبائل المقاومة. و في المقابل نجدها قد سعت من خلال ذلك إلى ضمان استمرارية خطوط الإمداد بين الجزائر العاصمة وأقصى الجنوب دون انقطاع، و ارتبط هذا بدراسة دقيقة للعلاقات القائمة بين القبائل في المنطقة، حيث تم التعرف على تركيبة بعض المجموعات واستغلال طبيعة العلاقات بينها لتسهيل التغلغل داخل المجال الصحراوي[2] .

وفي السياق نفسه، اهتمت من جهة أخرى بتحديد المسارات الطبيعية الدقيقة التي تمر عبر تضاريس معقدة، ومنه ما تم الإشارة اليه في كتاب كامييل إلى وجود طرق تمر عبر أودية محصورة بين كثبان رملية تعرف بـ"إغيف (Eguiff) "وجبال الأدرار السوداء، وهو ما وفر ممرات استراتيجية ذات أهمية عسكرية [3].

مما سمح هذا النوع من المعطيات الجغرافية بفهم طبيعة الممرات الغير معروفة التي يمكن استغلالها لتأمين تحرك القوات وتفادي الكمائن القبلية، خاصة في المناطق التي عرفت اضطرابات وهجمات سابقة . وقد سمحت ا بإعادة بناء تصور جغرافي واضح للمجال الصحراوي، من خلال ربط عدة محاور استراتيجية، مثل محور عين صالح نحو مناطق الجنوب، وهو ما ساهم في تحديد مسارات تنقل أكثر أماناً. وهكذا أصبحت الخرائط الناتجة عن هذه العمليات أداة أساسية لتنظيم التحرك داخل

[1] Ibid,t, p 14 19 .
[2] Ibid,t, p 14 19 .
[3] Ibid,t, p18.

الصحراء، حيث مكنت من تفادي الضياع والمخاطر الطبيعية، وضبط المسالك بدقة، مما يعكس الطابع المنهجي الذي ميز عمليات الاستطلاع في هذه المرحلة.

ثانيا : دور الضباط و الرحالة

كانت البدايات الأولى لرحلات الاستكشافية الفرنسية في الجنوب الجزائري مع تأسيس اللجنة الاستكشاف العلمي من قبل السلطة الفرنسية عام 1837م، حيث شكل القرار الوزاري رسميا عام 1839م هيكلة هذه اللجنة بـ 21 عضوا أغلبهم من أكاديمية العلوم وأكاديمية الآداب والفنون والكليات العسكرية، وهم من مختلف التخصصات العلمية (آثار، فلك، جغرافيا، أثنوغرافيا، تاريخ، طب اقتصاد، فلاحة).[1]

و كانت من بين أوائل الرحلات رحلة كولونيو بورين 1857 التي كانت هذه الرحلة بمساعدة حمزة من أولاد سيدي الشيخ الشراقة و الذي كان مواليا لفرنسا و لقد تم فيها رسم خرائط لعدة أماكن مختلفة من منطقة الجنوب الغربي [2].

أ / رحلة روني كاييه René Caillié

يُعدّ روني كاييه René Caillié[3] من أوائل المستكشفين الفرنسيين الذين توغلوا في أعماق الصحراء الإفريقية[4]. فقد انطلقت رحلته من فرنسا سنة 1816م على متن سفينة "لالوار" باتجاه السنغال، قبل أن يواصل مغامرته نحو الداخل الإفريقي.

وخلال رحلته الشهيرة إلى تمبكتو ما بين 1827 و1828م، مرّ بمنطقة توات، حيث دخلها في شهر جويلية، واستقر بمدينة تيمي في توات الوسطى فترةً من الزمن إلى أن تعافى من مرضه. وخلال

---

[1] احميدة عميراوي ، **قضايا مختصرة في تاريخ الجزائر الحديث** ، الدار الهدى ، عين مليلة ، 2005 ، ص 49 .

[2] محمد صالح حوتية : **توات و الازواد خلال القرن 18/ 19** م ، ج2 ، المرجع السابق ، ص 433.

[3] **روني كاييه:** ولد في فرنسا، وهو ابن أسرة فقيرة تعلم في مدرسة خيرية، تدرب بعد ذلك على الأعمال التجارية، وفي سن 16 ترك تجارته وذهب إلى البحر في سفينة كانت متجهة إلى السنغال، وقد زارها للمرة الثانية سنة 1824 محاولا اكتشافها، فزوده الحاكم الفرنسي بالسلع والمؤن، ومكنه من البقاء في السنغال وقتا كافيا، وكانت فكرته تتمثل في أن يسافر بمفرده وهو متنكر بزي رجل ورع مسلم، ودخل غرب إفريقيا وصولا إلى تنبكتو وقام بتدوين ملاحظاته عليها. ينظر : جوزفين كام ، **المستكشفون في إفريقيا**، تر: السيد يوسف نصر، مر: محمد على وقاد دار المعارف، القاهرة، 1983، ص 143-146.

[4] إبراهيم المياسي ، **التوسع الاستعمار الفرنسي في الجنوب الغربي الجزائري 1881/ 1912** ، المرجع السابق ، ص 47 .

إقامته، دوّن ملاحظات دقيقة وأنجز رسومات عن المنطقة، متخذاً صفة تاجر مصري نشأ في فرنسا لتفادي الشبهات لدى القبائل التي صادفها[1].

وقد قدّم من خلال هذه الرحلة معطيات جغرافية وحضارية قيّمة عن توات، استفادت منها الجهات الفرنسية لاحقاً في تمهيدها لاحتلال المنطقة. وتُعدّ رحلته من أوائل الرحلات الفرنسية المهمة في الجنوب الغربي الجزائري، بل يُرجّح أنها أول من أورد ذكراً لمنطقة توات في الأدبيات الاستكشافية الفرنسية. كما تُوّجت هذه الرحلة بحصوله على جائزة من الجمعية الجغرافية بباريس قُدّرت بـ10 آلاف فرنك [2].

ب /رحلة هنري بارث Heinrich Barth

يُعدّ (Heinrich Barth) هنري بارث من أبرز الرحالة الأوروبيين الذين ساهموا في كشف معالم الصحراء الإفريقية خلال القرن التاسع عشر. وقد جاءت رحلته في سياق التنافس الأوروبي الذي اشتدّ بعد رحلةRené Caillié ، حيث سعت بريطانيا إلى دخول مجال الاستكشاف في المناطق الممتدة بين نهر النيجر وشمال إفريقيا. ففي سنة 1836م و رغم محاول الرحالة John Davidson الوصول إلى تمبكتو انطلاقاً من المحيط الأطلسي، غير أنه قُتل في منطقة تندوف [3].

لكن لاحقاً اعتمدت بريطانيا على بعثة يقودها بارث رفقة كل من James Richardson وAdolf Overweg، حيث انطلقت الرحلة من طرابلس سنة 1850م. وبعد مسار طويل وشاق، تمكن بارث وحده من بلوغ تمبكتو سنة 1853م، ليعود إلى لندن سنة 1855م بعد رحلة استكشافية واسعة. وقد قدّم من خلالها معلومات دقيقة حول الأوضاع الجغرافية والاجتماعية في

[1] عبد القادر بوباية ، **دور الرحالة و المستكشفين في حركة التوسع الفرنسي في الصحراء الجزائرية** ، مجلة العصور ، جامعة وهران ، ع 5و 6 ، ديسمبر 2003 ، جوان 2004 ، ص 156 .

[2] عبد المالك الطاهري و احمد بوسعيد ،ال**رحالة و المستكشفون في توات خلال القرن التاسع عشر و دورهم في احتلال المنطقة** ، مجلة عصور الجديدة، جامعة احمد دراية ، ادرار ، ع 04 ،م 10 ، ص 315 .

[3] المياسي ابراهيم ، **الاحتلال الفرنسي للصحراء الجزائر 1837 / 1934** ، المرجع السابق ، ص 406 407.

الصحراء، بل ووجّه دعوة لفرنسا من أجل بسط نفوذها على تلك المناطق وربطها بالجزائر، مع ضرورة مراعاة خصوصيات السكان المحليين ومعتقداتهم[1].

ج / رحلة الرائد Colonieu والملازم Borin

وفي سياق المحاولات الفرنسية للتوغل في الجنوب الغربي الجزائري، قام كلّ من الرائد Colonieu والملازم Borin بمحاولة استكشافية أواخر نوفمبر 1860م، حيث رافقا قافلة تجارية موسمية تنشط بين مناطق سعيدة والبيض وقورارة وتوات، مدعومين بعدد من الجنود. وقد وصلت الحملة إلى إقليم قورارة، وبالتحديد إلى قصور دلدول سنة 1861م، **غير أنّها واجهت رفضاً شديداً من سكان المنطقة**، إذ رفض أهل قصر بلغازي وتيبرغمين استقبالهم، واشترطوا ابتعاد الفرنسيين للسماح للقافلة التجارية بالدخول[2].

وبعد انسحابهم إلى تيميمون، حاولوا مجدداً التوجه نحو منطقة تيمي بتوات عبر مسلك آخر، إلا أنّ خبرهم كان قد انتشر، فواجهوا الرفض ذاته في مختلف المناطق. وفي النهاية، اضطروا للعودة إلى مدينة البيض، لتنتهي مهمتهم بالفشل من حيث التوغل، رغم نجاحهم في إعداد بعض الخرائط الخاصة بالإقليم [3].

د / رحلة دوماس Eugène Daumas

تعد رحلة دوماس اوجين[4] من أبرز الرحلات الاستكشافية الفرنسية في الصحراء الجزائرية خلال القرن التاسع عشر. فقد التحق بالجزائر سنة 1835م، وعُيّن قنصلاً لدى دولة الأمير عبد القادر في معسكر، قبل أن يتولى لاحقاً منصب مدير الشؤون العربية بقسنطينة.

---

[1] المياسي ابراهيم ، **الاحتلال الفرنسي للصحراء الجزائر 1837 / 1934** ، المرجع السابق ، ص 406 407 .

[2] عبد الكريم الطاهري و آخرون ، **توات في مشروع التوسع الاستعماري الفرنسي بالجزائر خلال القرن 19 م** ، المرجع السابق ، ص 506 .

[3] عبد الكريم الطاهري ،نفسه .

[4] **دوماس ميلشوار جوزيف أوجين** كاتب فرنسي في 04 أكتوبر 1803 في ديلمور بسويسرا، وتوفي 29 أفريل 1871 في كمبلان جيروند، انخرط متطوعا سنة 1822 كملازم مساعد، ووصل إلى الجزائر سنة 1835 ليعين كفصل في دولة الأمير عبد القادر بمعسكر، وتميز في مهامه الصعبة التي كلفه بها الجنرال لاموريسيار مدير الشؤون العربية بمقاطعة قسنطينة وفي سنة 1841 شجعه الجنرال بيجو لاكتشاف الأراضي الجزائرية التي من خلالها ألف كتابا بعنوان الصحراء الجزائرية، كما كانت له عدة مؤلفات

وقد قام برحلة استكشافية واسعة ما بين سنتي 1843 و1845م، بدعم من الجنرال توماس روبارت Thomas Robert Bugeaud. في البداية، استكشف دوماس الجنوب الشرقي للجزائر، ثم اتجه نحو الجنوب الغربي. وتمكن من الوصول إلى منطقة توات عبر رحلتين: الأولى انطلقت من الجزائر العاصمة باتجاه الجنوب الغربي مروراً بفقيق المغربية، حيث دخل توات، أما الثانية فانطلقت من الجزائر العاصمة عبر غرداية والمنيعة، ثم دخل توات عن طريق عين صالح.

وقد قدّم دوماس أوصافاً دقيقة لمختلف المسالك المؤدية إلى توات، كما وصف قصور المنطقة وتقسيماتها، حيث قسمها إلى خمس مقاطعات هي: مهارزة، القرارة، أوقروت، توات، وتيدكلت. كما تناول في ملاحظاته أوضاع القبائل المحلية، متطرقاً إلى جوانب حياتهم الاجتماعية والاقتصادية [1].

هـ / رحلة بول صولي Jean-Joseph-Marie-Michel-Paul soleillet

شرع بول صولي [2] في تحضير لرحلته منذ سنة 1866 م وذلك بالتعرف على عادات و تقاليد سكان الجزائر و التعود على لغتهم كما درس كتب التاريخ و الجغرافيا و كتابات الاقتصادية الأخرى

غادر مرسيليا في 6 ديسمبر 1872 م متجها الى الجزائر و بعد انهاء الاستعدادات بدأ رحلته نحو عين صالح فزار الاغواط و غرداية ثم دخل متليلي ، وفي 1873 بدأ كما يقول رحلته الاستكشافية الحقيقية في 17 فيفري 1837 من المنيعة الى عين صالح و كانت البعة تتكون م من 26 فرد و عشر جمال و ثلاثة خيول وصل الى المنيعة و في 6 مارس 1873 م وصل الى مشارف عين صالح التي رفض أصحاب قصبتها ان يفتحوا الأبواب للبعثة فاضطر صولي الى العودة من حيث

أخرى ومن بينها كتاب القبائل الكبرى وحياة العرب والمجتمع المسلم. ينظر : عبد القادر مرجاني ، **السياسة الفرنسية و دور المستكشفين في التوغل في الجنوب الجزائري خلال القرن 19 م** ، تاريخ الحديث و معاصر ، جامعة الجيلالي ليابس ، سيدي بلعباس ، 2019/ 2020 ، ص33 .

[1] عبد المالك طهيري و آخرون ، المرجع السابق ، ص 315 .

[2] ولد **جون جوزيف ماري ميشال بول صوليه** Jean-Joseph-Marie-Michel-Paul soleillet في فرنسا بتاريخ 29 أفريل 1842م وهو ابن لويس ميشال أمبرواز صوليه وأمه هي أنايس ،صوليه قضى سنوات صغره ومراهقته وشبابه في أفينيون ومنذ طفولته كانت له رغبة كبيرة في حب السفر والترحال والمغامرات إلى الأماكن المجهولة خاصة في إفريقيا، دخل الجيش الفرنسي سنة1880 اختصاص مشاة، توفي بأدن 10 سبتمبر 1888م. ينظر عبد القادر مرجاني ، المرجع السابق ، ص 42 .

اتى ومع ذلك فانه قدم معلومات هامة في كتابته و خاصة حول هضبة تادمات و ماجورها و التي استفادت منها سلطات الاستعمار في توسعها في الجنوب [1].

ومن هم أيضا فيل رحلة الى حوض الحضنة و الصحراء في أواخر الستينيات كما قام ايروينق دوباري برحلة قادته الى مدينة غات و زار بعدها توارق بجار و الطاسيلي و توفي بمدينة غات خلال رحلته هاته وذلك عام 1877 [2].

و/ الرحالة الألماني جيرهارد رولفس Gerhard Rohlfes

قام بين 1862-1867 م برحلات استكشافية للصحراء الكبرى، استعان فيها بانضمامه لفرقة اللفيف الأجنبي الفرنسي بالجزائر، حيث انطلق برحلته الأولى من تافيلالت والسوس وفيفيف ثم وهران، ثم برحلته الثانية من طنجة إلى غاية وصوله لوادي الساورة وايقلي وبني عباس، ثم واحات توات وتيديكلت وعين صالح [3] و يعتبرها كثيرا من المؤرخين اهم ما استندت عليه فرنسا في اطماعها التوسعية نحو المنطقة ، فهو أول من نصح فرنسا بنقل حدودها الى غاية وادي الساورة ، والا لن يكون هناك هدوء دائم في الجنوب الوهراني [4].

ز / مرسال بلات Marcel Palat

يُعدّ مرسال بلات Marcel Palatضابطاً فرنسياً تخرّج من مدرسة Saint-Cyr Military Academy، وعمل ضمن الفرقة العسكرية بوهران، ثم أُلحق بالمكتب العربي بسعيدة نظراً لإتقانه النسبي للغة العربية.

وبفعل اهتمامه باستكشاف الصحراء، خاصة منطقة توات، انطلق في رحلته سنة 1885م من الجزائر العاصمة نحو البيض، ثم المنيعة، ليدخل توات عبر تنقورارين بتاريخ 22 جانفي 1886م. واصل بالات مساره نحو تنركوك عبر تعنطاس، غير أن السكان انتبهوا إلى هويته بسبب ضعف تمكنه

[1] عبد القادر بوباية ، دور الرحالة و المستكشفون الأوروبيون في احتلال الفرنسي للصحراء ، المرجع السابق ، ص25 .

[2] نفسه .

[3] مياسي ابراهيم، **الاحتلال الفرنسي للصحراء الجزائرية** ، المرجع السابق ، ص 416 ، 417 .

[4] عبد المالك الطاهري و آخرون ، مرجع السابق ، ص 507 .

من العربية. ثم اتجه إلى دلدول حيث التقى بالشيخ بوعمامة ، قبل أن يواصل رحلته نحو عين صالح. وأثناء تنقله بين عين صالح وعين بلبال، تعرّض للاغتيال يوم 21 فيفري 1886م.

ورغم نهايته، مكّنته رحلته من استكشاف الطريق الرابط بين البيض وعين صالح، والتعرّف على قصور وواحات توات، إضافة إلى الوقوف على النشاط التجاري الذي يميز هذا المسار الصحراوي[1].

و آخرون مثل **الضابط اوجيرا** الذي درس الجوانب العلمية و الفلكية و المظاهر الطوبوغرافية لواحات الساورة و توات و موريطانيا ، و كذا **الظابط برنار** في دراسة حوض الساورة و زوزفانة وقصورها .

ونجد أيضا ممن درسوا المنطقة **بيسي الذي درس** تيديكلت من الناحية الجغرافية و السكانية و السلالات و العادات و مصادر الثروة كما تحدث عن عن مناطق المويدر و اهنيت و الهقار و ادرار و تانزروفت ، و زيادة على ذلك **الظابط هنري بيسول** الذي درس تاريخ وعادات التوارق و أسلحتهم و أساليب حروبهم و درس منطقة تادمايت و تيديكلت و توات و قورارة و دعا الى ضرورة تركيز الاحتلال فيها لاهميتها ف ربط الجزائر بتشاد [2]. .

كما درس **دولوك** مصادر المياه و مظاهرها في الجنوب الوهراني بالاجلي و جنان الدار و تاغيت و بني عباس ، درس كما كانسيل جغرافية واد الساورة و عرق ايقدي [3].

ثالثا : المعرفة كأداة استعمار

ومن خلال ما تم عرضه في المطلب السابق نرى ان البعثات الاستكشافية الفرنسية نحو الجنوب الغربي في أغلبها نجدها من ضباط عسكريين ورحالة ، بتوجيه من جهات رسمية كالحاكم العام ووزارة الأشغال العمومية، وبالتنسيق مع جمعيات مختصة لانتداب مستكشفين لخدمة أغراض اقتصادية وعسكرية توسعية [4].

---

[1] نفسه .

[2] يحي بوعزيز ، **ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر و العشرين** ، المرجع السابق ، ص ص 329 330 .

[3] نفسه .

[4] عبد المالك الطاهري و آخرون ،المرجع السابق ، ص 319 .

و التي رفعت هذه البعثات تقاريرها إلى الجهات الحكومية، ولا سيما العسكرية منها، التي استثمرت تلك التوصيات طيلة القرن التاسع عشر للتمهيد للسيطرة الفعلية على توات مع مطلع القرن العشرين؛ إذ جاءت تلك التقارير محفزة للقرار السياسي والعسكري بضرورة الاحتلال، التي من خلالها جعلت المعرفة أداة للاستعمار [1].

فنجد هذ المعطيات التي كانت نتيجة الاستكشافات خدمت الرؤية الفرنسية لمنطقة على المستوى السياسي و العسكري و الاقتصادي ، فالحصيلة المعرفية الاقتصادية والجغرافية تجسدت تركيز المستكشفون في رحلاتهم نحو الجنوب الغربي على رصد الإمكانات الاقتصادية والخيرات المتوفرة، مع دراسة دقيقة للمظاهر الطبيعية، التضاريسية، المناخية ومصادر المياه بغرض استغلالها واستثمارها.

وقد شملت الدراسات أساليب السقي، الإنتاج الفلاحي، والأوضاع العمرانية التقليدية، وصولاً إلى الجوانب العلمية والفلكية[2]. وفي هذا السياق فيما وجد في تقرير المستكشف "**دو كولومب**" الذي وصف توات بدقة قائلاً: (..إنها عبارة عن جزر مخضرة وسط محيط من النار..) [3].

مما أدى الى خدمة الجهة العسكرية التي ساهمت هذه الدراسات في إنشاء مراكز عسكرية أمامية في أعماق الصحراء خلال العقد الأخير من القرن التاسع عشر لتنظيم الغزو. وقد اعتمدت الحملات العسكرية بشكل مباشر على الخرائط والدراسات التي أنجزها المستكشفون كما رأينا سابقا وسلكت الطرق التي حددوها مسبقاً. ويظهر ذلك جلياً في حملة "**فلامون** (Flamand) "سنة 1900م لاحتلال توات (بدءاً من عين صالح عاصمة إقليم تيديكلت)، وهي الحملة التي انطلقت في أصلها على شكل بعثة استكشافية في نوفمبر 1899م[4].

[1] نفسه .

[2] إبراهيم المياسي ، **التوسع الاستعمار الفرنسي في الجنوب الغربي الجزائري** ، المرجع السابق ، 38 .

[3] عبد المالك الطاهري و آخرون ، المرجع السابق ، ص320 .

[4] المرجع نفسه .

فالدراسات التي تمت من قبل الضباط و الرحالة أثبتت أن الموقع الجغرافي لتوات في قلب الصحراء يجعلها حلقة ربط بين المدن التجارية الإفريقية ونقطة التقاء للقوافل المتجهة جنوباً نحو بلاد السودان، أو شمالاً نحو التل، أو شرقاً (غدامس وغات)، وغرباً (تافيلالت) [1].

وباعتبارها تقع في منتصف الطريق بين الجزائر وتمبكتو ، جعلت فرنسا ترى أن الوصول إليها سيفتح آفاقاً استراتيجية واسعة في إفريقيا ونجد هذا في ما قدمه "دوماس" الذي قدم معطيات حيوية حول هذه الطرق في كتابه "الصحراء الجزائرية" (1845م)، وكذلك "دو كولومب" في مؤلفاته، مما وفر للسلطات الفرنسية القاعدة المعرفية اللازمة لاتخاذ قرار التوسع النهائي في المنطقة[2].

و استنادا الى تلك التقارير اسست فرنسا سنة 1880 م لجنة مختصة لتنظيم و تطوير تجارة القوافل العابرة بين الاسواق توات.[3]بهدف توجيه القوافل المتجهة الى المغرب نحو الاسواق الفرنسية في الجزائر، و استطاعت هذه اللجنة تحقيق نتائج سياسية و اقتصادية و ساهمت في سيطرة الفرنسيين على المنطقة[4].

وما قدمته أيضا المعطيات حول الإقليم كونه كان "عمقاً استراتيجياً" للمقاومة الشعبية؛ حيث اتخذها القادة والمجاهدون ملاذاً لإعادة تنظيم صفوفهم بعيداً عن ضغط الموازين العسكرية غير المتكافئة. وفي هذا الصدد، تبرز شهادة الرحالة "جيرهارد رولفس" (1864م) كأداة تنبيه أمني، حين أكد ضرورة نقل الحدود الفرنسية إلى نهاية "وادي الساورة" لقطع الطريق أمام المصاعب الأمنية في مقاطعة وهران، مشدداً على أنه لا هدوء لفرنسا دون السيطرة على هذه الحدود الطبيعية[5].

فأدركت أن السيطرة على الشمال والواحات الشمالية تظل منقوصة ما لم يتم احتلال توات؛ كونها "المعقل الحصين" الذي يفر إليه الثوار لاستعادة قواهم، كما حدث مع الشيخ بوعمامة الذي

---

[1] عبد القادر بوباية ، المرجع السابق ، 160 .

[2] نفسه .

[3] احمد العماري ، **توات في مشروع التوسع الفرنسي بالمغرب من حوالي 1850/ 1902 م** ، ط1 ، منشورات كلية الادب و العلوم الانسانية بفاس ، جامعة سيدي محمد بن عبد الله ، 1988م، ص 69 .

[4] عبد المالك الطاهري و آخرون ، المرجع السابق ، 320 .

[5] إبراهيم المياسي ، **التوسع الاستعمار الفرنسي في الجنوب الغربي الجزائري 1881/1912** ، المرجع السابق ، ص 77 .

استغل عدم السيطرة الفرنسية على المنطقة لتنظيم جيوشه وترتيب أحواله. لذا، تحولت المعرفة بسوسيولوجيا المقاومة في توات إلى "دافع استراتيجي" حسم قرار الاحتلال الكلي للجزائر[1].

فقد تجسدت الخدمة التي قدمها المستكشفون في تحويل المعطيات على المستوى (الاقتصادي، البشري، والطوبوغرافي) إلى "خطة استعمارية مكنت جيوش الاحتلال مع نهاية القرن التاسع عشر من تهيئة الجانب المادي واللوجستي للاستيلاء على المنطقة. وبفضل هذه المعطيات ، ورغم المقاومة تمكنت حملات الاحتلال من اختراق الأقاليم بدءاً بإقليم تيديكلت (ديسمبر 1899م)، ثم إقليم قورارة (مارس 1900م)، وصولاً إلى السيطرة الكاملة على توات الوسطى في جويلية 1900م [2].

وعليه يتضح أن هذه الحصيلة المعرفية بمختلف أبعادها الجغرافية، الاقتصادية، والأمنية، لم تكن مجرد تدوينات استكشافية عابرة، بل شكلت 'القاعدة الاستخباراتية ، التي ارتكز عليها القرار العسكري الفرنسي. فمن خلال تجريد إقليم توات من غموضه الطبيعي، وكشف مكامن ثرواته ومصادر مياهه، وتحديد ثغراته القبلية والأمنية، استطاعت فرنسا تحويل هذه المعطيات إلى أداة سيادة فعلية.

وبذلك لم يكن الزحف العسكري سنة 1900م إلا النتيجة الحتمية لسنوات من الاستعمار المعرفي الذي مهد الطريق لإحكام القبضة على المنطقة، وتحويلها من معقل للمقاومة وعصب للتجارة القوافل إلى حلقة وصل حيوية ضمن المشروع التوسعي الفرنسي في أعماق إفريقيا .

المبحث الثاني : سياسة الاختراق غير مباشر

أولا : التحالف مع القيادات المحلية

لم يكن التغلغل الفرنسي في الجنوب مجرد زحف عسكري ، بل استند في جوهره الى استراتيجية الاختراق غير مباشر ، التي اتخذت من التحالف مع القيادات المحلية واجهة لتمرير المشروع الاستعمارية.

[1] عبد المالك طاهري و آخرون، المرجع السابق ، ص 321 322 .

[2] نفسه ، ص 320 .

ومنها سياسة فرق تسد التي تعد من السياسات التي طبقتها فرنسا بصرامة في الجزائر ، بهدف احكام السيطرة على الشعوب من خلال إذكاء روح العداوة و الفتنة بين مكونات القبيلة ، ومن أجل كسب ولاء العائلات و القبائل الكبرى ،عمدت الى اغداق المال و الجاه و منح الوظائف و الاوسمة لبعض الشخصيات المؤثرة ، مما أدى الى بروز تنافس على السلطة بين العائلات المحلية الكبرى مثل عائلتي أولاد سيدي الشيخ بفرعيهم الغرابة و الشراقة [1].

و من جهة أخرى طبقت سياسة الاغراء و توزيع الألقاب عن طريق اغراء بعض العائلات الصحراوية بتقليدها بعض الألقاب كالقايد و الاغا و الخليفة ، والتي حرصت على اعطائهم القوة في الحكم نظرا لكونها تعلم انه ليس من السهل على هؤلاء القياد ان يمارسوا سلطتهم وسط الشعب الذي ينقاد الهم بسهول [2].

و عائلة ابن ادريس هي الأخرى أفادت الفرنسيين فائدة كبيرة في ترويض الصحراء من خلال ما قام به السعيد اغا ورقلة و اخوه محمد اغا تقرت حيث القوا القبض على الشريف بوشوشة في عين صالح سنة 187م . و نجد أيضا عائلة آل مصرلي التي لعبت دورا كبيرا في مساعدة الفرنسيين بتوسعهم و تغلغلهم في اقصى الجنوب و بالخصوص عبد العزيز مصرلي الذي قيل عنه انه خدم الفرنسيين خدمة كبيرة في اخضاع الطوارق و الاستلاء على تيميمون [3].

و استعانت فرنسا ببعض الشخصيات القيادية والروحية من قبيلة أولاد سيدي الشيخ، مثل **سي حمزة** وأبنائه **سي الزبير وسي بوبكر**، الذين كان لهم دور في سقوط بعض واحات الجنوب، إضافة إلى تزويد السلطات الاستعمارية بمعلومات عن المنطقة خلال الفترة ما بين 1852 و1861، خاصة من خلال تعاونهم مع بعض الرحالة الفرنسيين مثل كولونيو وغيره[4].

---

[1] أ.د/رضوان شافو ، **جوانب من السياسة الاستعمارية في صحراء الجزائر من خلال الوثائق الارشيفية و تقارير السلطة الاستعمارية** ، دار الوسائط ،ص ص 65 66 .

[2] أ.د/رضوان شافو ، المرجع نفسه ، ص 78 79 .

[3] رضوان الشافو ،المرجع السابق ، ص81 .

[4] مولاي التوهامي الغيثاوي ، **لفت الأنظار الى ما وقع من نهب و تخريب و الدمار بولاية ادرار ابان احتلال الاستعماري** ، ط 2، دار الكتاب العلمية ، بيروت ، 2011 , ص ص 72 73 .

ورغم أن قبيلة أولاد سيدي الشيخ عُرفت بمقاومتها الشعبية الشرسة التي أرهقت فرنسا، إلا أن سلطات الاحتلال تمكنت لاحقًا من استمالة بعض أفرادها عبر الإغراء بالامتيازات والمناصب، بينما مارست ضغوطًا عسكرية وأججت الخلافات القبلية بين صفوفهم، ما أدى إلى انحراف بعض قياداتهم نحو خدمة المصالح الفرنسية وتسهيل توسعها في مناطق الجنوب الغربي[1].

وقد استفاد هؤلاء القادة الذين انحرفوا عن ثورة أولاد سيدي الشيخ من عدة امتيازات، مثل الرواتب ونسبة 5% من الضرائب، إضافة إلى منحهم رتبة "الآغا"، وذلك في إطار اتفاقية توماسين سنة 1883. وقد شجعهم ذلك على دعم السياسة الاستعمارية والعمل على ضم الواحات إلى إقليم الآغا الذي أنشأته فرنسا في الجنوب الوهراني [2]

ومن بين هؤلاء **سي الدين بن حمزة**، الذي تمكن بفضل أتباعه من تنظيم عمليات التجسس ومراقبة المراسلات والاتصالات في المنطقة، وإبلاغ السلطات الفرنسية بكل ما يجري.كما نجح في استمالة بعض الشخصيات من منطقة قورارة، مثل الشيخ حمو بن الحاج أحمد من الخنافسة، الذي حاول مع مجموعة من أنصاره التفاوض باسم قبيلة الخنافسة، وهو ما أثار استياء سكان قورارة وأساء إلى سمعتهم،[3] خاصة بعد أن تمكنت فرنسا من إبرام اتفاقيات مع بعض الفصائل في قورارة وعين صالح، إضافة إلى قبائل ذوي منيع والغنائمة [4].

و نجد من بين الزعامات الذين خدموا فرنسا حمزة ولد بوبكر وهذا بالاعتراف الفرنسيين بأنفسهم (.. ربط قضيته بقضيتنا وكان وفيا لنا ، كان يرغب في سلطنة ورقلة ليكون بين أيدينا ، و يكون الشخص المهم في توسعنا بأقصى الجنوب ، كان طموحه حكم الجنوب حتى تمبكتو ، او على الأقل ورقلة حتى توات ..)[5].

---

[1] عبد الكريم طاهيري ، منطقة توات و اسهاماتها في المقاومة الشعبية بالجزائر، المرجع السابق ، ص 165 .

[2] نفسه .

[3] نفسه .

[4] احمد العماري، **توات في مشروع التوسع الفرنسي** ، منشورات كلية الاداب ، فاس ، المغرب ، 1988 ، ص83 .

[5] أ. رضوان شافو ، المرجع السابق ، ص 80 .

ونتيجة لخدمته للفرنسيين في مساهمته في اخضاع القبائل الموالية للشريف محمد بن عبد الله و مساهمته في احتلال الاغواط سنة 1852 م و ورقلة في 27 جوان 1853م كرمته فرنسا سنة 1853 م حيث عينته خليفة على كل المناطق التي تمتد من البيض بحوض الساورة الى ورقلة [1].

أما سي **قدور بن حمزة**[2]، الذي كان من المقاومين لفرنسا في السابق، فقد تمكنت السلطات الاستعمارية بدورها من استمالته، حيث منحته امتيازات خاصة، ما أدى إلى تغير موقفه وانخراطه في خدمة الإدارة الاستعمارية. الذي في سنة 1883م، قدّم دعمه للرحالة الفرنسي أثناء مروره بمنطقة قورارة.

وقد أشار هذا الأخير في رسالة مؤرخة في 25 جانفي 1886، من قصر سموطة، إلى أن سي محمد ولد سي قدور استقبله ووفّر له الحماية، كما زوّده بمرشدين موثوقين لمواصلة رحلته[3]. بالإضافة الى هذا بادر بإبرام صلح بتاريخ 27 مارس 1887 بين قبيلتي ذوي منيع وأولاد جرير، كما مثّل قبائل الخنافسة والمحارزة والشعانبة في قورارة. وقد كان يوقّع وثائقه بختم تسلّمه من السلطات الفرنسية، في دلالة على ما حظي به من مكانة ونفوذ[4].

وخلال زيارة الجنرال توماسان إلى المنيعة سنة 1892، رفقة الحاكم العام جول كامبون، أكّد سي قدور التزامه بتوجيه جهوده لخدمة المصالح الفرنسية في منطقة توات، مما يعكس حجم التحوّل في مواقفه وانخراطه في دعم السياسة الاستعمارية.[5]

اما في ما يخص سياسة اذكاء الصراعات الداخلية وتوظيف الخلافات البينية داخل الأسرة الواحدة عمدت السلطات الفرنسية التعامل مع قبيلة أولاد سيدي الشيخ عقب معاهدة لالة مغنية؛

---

[1] نفسه .

[2] **سي القدور بن حمزة** ، من ابرز القيادات و الزعماء في قبيلة أولاد سيدي الشيخ الشراقة ، قاد المقاومة ضد الفرنسيين منذ 1868 ثم توافق مع فرنسا ثوماسين سنة 1883 ، لكنه لم يوقع عليها الا في سنة 1892 ، ومع ذلك فقد رفض تقاضي أي اجرة شهرية او منصب ، و اعتزل بقية حياته حتى توفي سنة 18897 ، وقد اقرت الصحافة الفرنسية انه قاوم 15 سنة . ينظر عبد الكريم طاهيري ، المرجع السابق ،ص 166 .

[3] عبد الكريم طهيري ، منطقة توات و اسهاماتها في المقاومة الشعبية بالجزائر...، نفسه .

[4] نفسه .

[5] عبد الكريم الطاهري ، نفسه ، ص ص 166 165 .

حيث نجح الجنرال 'رونو' (Renault) عام 1848 في استمالة فرع 'الشراقة' الذين أعلنوا ولاءهم للفرنسيين وقدموا ضريبة قُدرت بـ 18 ألف فرنك. هذا النجاح الفرنسي في شق وحدة أكبر قبيلة في المنطقة لم يكن مجرد إجراء مالي، بل كان اختراقاً سياسياً يهدف إلى إضعاف جبهة المقاومة وتأمين مداخل الصحراء عبر قيادات محلية منقسمة الولاء[1].

و يذكر أيضا النزاع الذي كان بين عائلة بوعكازة ابن قانة في منطقة بسكرة و الاوراس فهذا النزاع ساهم في اضعاف هذه الاسرة و تمكين الاستعمار للنفوذ بسهولة في الجنوب الوهراني[2].

ثانيا : استمالة الزوايا

وكما كان الحال مع شيوخ الزوايا و الطرق الصوفية فنجد ان فرنسا قامت باستغلال مكانتهم و نفوذهم الاجتماعي و منحهم بعض الاوسمة و الألقاب مثل قايد آغا ، باشا وغيرها من الألقاب .[3] وهذا راجع الى المكانة التي كانت تحملها الزوايا كما سبق ذكر في الإقليم كونها المرجع الأساسي لسكان المنطقة ما جعلها مؤثرة في مختلف الجوانب خاصة منها الطريقة التيجانية و السنسونية و الطيبية و الشيخية [4]، وهذا لتسهيل توغلها في الجنوب الجزائري بطرق سلمية .

ففي بداية احتلالها للجنوب استعانت ببعض القيادات الروحية، مثل شريف وزان الحاج مولاي عبد السلام، شيخ الزاوية الوزانية الطيبية بجنوب المغرب حيث كانت له علاقات طيبة مع الفرنسيين، مما سمح له بتفقد زواياه في مختلف أنحاء الجزائر. كما اختار الحماية الفرنسية حتى في المغرب الأقصى، وتزوج من امرأة إنجليزية[5].

---

[1] د.مبخوت بوداوية , **الاهتمام الفرنسي بالجنوب الغربي الجزائري وظروف احتلاله** , المجلة المغاربية للدراسات التاريخية , ع 1 ,جامعة ابو بكر بلقايد , تلمسان ,ص 119 .

[2] بلعروسي عبد الفتاح ، **المقاومة الثقافية في اقليم توات خلال الفترة الاستعمارية 1900 / 1962** ، اطروحة لنيل شهادة الدكتورة ، جامعة ابي بكر بالقايد ، ص 33 .

[3] احميدة عميراوي ، **السياسة الإدارية في الشرق الجزائري من خلال مشروع لويس بلانكي** ، المصادر ،ع السادس ، مارس 2002 م ، ص ص 85 87 .

[4] عبد الكريم طهيري ، **منطقة توات و اسهاماتها في المقاومة الشعبية بالجزائر**...، المرجع السابق ،ص 166 .

[5] أبو القاسم سعد الله ، **تاريخ الجزائر الثقافي** ، ج4 ، دار الغرب الاسلامي ، بيروت ، 1998 ، 295 .

وفي سنة 1888م قام أحد أعوانه بإبلاغ الفرنسيين بمعلومات عن الشيخ بوعمامة في دلدول. وبحكم مكانته بين أتباع الطريقة الطيبية، عمل على تهدئة سكان قورارة وطمأنتهم بشأن بناء الأبراج العسكرية الفرنسية في المنيعة، حيث راسلهم يوم 30 نوفمبر 1887م مؤكدًا أنه "لا خوف عليهم". كما أنه، رغم خلافه مع المخزن، كان يجمع الهدايا ومحاصيل زواياه الممتدة من قصر سيدي منصور بتينركوك إلى تيمي وعين صالح، وسخّر نفوذه وتأثيره لخدمة فرنسا [1].

وقبل هذا استغلت نفوذ شيوخ الطريقة التيجانية،. فقد أوعزت إلى الشيخ أحمد التيجاني بتوظيف سلطته الروحية، حيث دعا أتباعه في تيديكلت وتوات إلى مساعدة الفرنسيين والخضوع لهم. كما انتهج قائد الطريقة التيجانية بزاوية تيماسين، سيدي محمد العيد (1853–1876)، سياسة قائمة على مسالمة الفرنسيين والتعاون معهم.

وقد انعكس هذا التوجه على دعم الرحالة والبعثات الفرنسية، إذ ساعدت الطريقة التيجانية الرحالة هنري ديفيريي سنة 1860، وكذلك بعثة فلاترز سنة 1879، التي كان يرافقها مقدم الطريقة التيجانية في ورقلة عبد القادر بن حميدة، والذي قُتل مع البعثة قرب عين صالح. كما قدمت زاوية عين ماضي رسائل من الشيخ أحمد عمار التيجاني إلى بعثة شوازي سنة 1880، تدعو فيها مسلمي وأتباع المناطق التي تمر بها البعثة إلى تسهيل مهمتها [2].

كما نجد من بين الشخصيات التي تمكنت منها فرنسا **محمد بن بلقاسم الحملاوي** ، رئيس اخوان الطريقة الرحمانية [3]، الذي اتخذ موقفا معاديا من ثورة بوعمامة و حث احدى رسائله الى سي قويدر بن عبد الله ، جميع اتباعه بمسالمة الفرنسيين و من ضمن ما جاء فيها (.. وأن رجلا يقال له بوعمامة خرج من عمالة وهران على رأي الدولة الفرنساوية و اتبعه شرذمة من العرب حكم وهران من

[1] عبد الكريم طهيري، ، منطقة توات و اسهاماتها في المقاومة الشعبية بالجزائر، المرجع السابق ، ص 166.

[2] المرجع نفسه ،ص 167 .

[3] بلعروسي عبد الفتاح ،**المقاومة الثقافية في اقليم توات خلال الفترة الاستعمارية 1900/ 1962** ، المرجع السابق ، ص 33.

لا عقل منهم ... ولو كان له عقل ما اظهر محاربة الدولة بل يلتجئ لهم بطلب المن منهم و العافية مع الصدقة و صفاء سريرته ..)[1].

و هذا ما يوضح تمكن الاحتلال الفرنسي من استمالة بعض الشخصيات و الوجهاء مقابل مناصب إدارية و امتيازات اجتماعية معينة دون ان ينقص ذلك من دور هذه الطرق الصوفية التي أعطت أمثلة في مقاومة الاحتلال رغم تمكنها من بعض ضعاف النفوس عن طريق الألقاب و الامتيازات [2].

وبعد ثورة بوعمامة ومقتل بعثة فلاترز، شكّت السلطات الفرنسية في أحمد التيجاني واتهمته بعدم الولاء لها حتى أن المكتب العربي في تلمسان تحدث عن وجود مؤامرات للتيجانية في عين ماضي، فقاموا باعتقال بعض السكان ونفيهم إلى جزيرة كورسيكا لكن التحقيقات لم تثبت أي علاقة للتيجاني أو طريقته بهذه الأحداث. بل تبين أنه كان يدعو الناس إلى الهدوء وعدم المشاركة في ثورة بوعمامة، كما أنه ساعد السلطات الفرنسية بشكل غير مباشر في تسهيل مهمة العقيد ديبورد نحو السودان [3].

كما حاولت فرنسا تحييد بعض الطرق الصوفية عن أهدافها الحقيقية، فعملت على تحويلها إلى **مراكز لنشر الخرافات والبدع**، من خلال استمال بعض زعمائها بالمناصب والامتيازات. كما سعت إلى زرع الخلافات بينهم، مثلما حدث مع الحنصالية والعيساوية، وأيضًا الصراع المفتعل بين القادرية والتيجانية[4].

---

[1] زوزو عبد الحميد ، **ثورة بوعمامة 1881 1908 م** ، جانبها العسكري 1881 1883 ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزائر 1986 م ، ص ص 51 ،53 .

[2] بلعروسي عبد الفتاح ، المرجع السابق ، ص 332 .

[3] أبو القاسم سعد الله ، **تاريخ الجزائر الثقافي** ، ج4 ، المرجع السابق ، ص 327 .

[4] أبو القاسم سعد الله ، **الحركة الوطنية الجزائرية 1830 190**، ط1 ، بيروت ، دا الغرب الإسلامي ، 1992 ، ج1 ، ص 299 .

وبذلك استغل الاستعمار هذه الطرق كوسيلة لمحاربة الإسلام، لأنه كان يرى أن الشعب الجزائري لا يمكن إخضاعه ما دام متمسكًا بدينه. لذلك عمل على فصله عن مصادر دينه، لأن هذا الشعب حتى لو خسر الحرب، لا يفقد روحه وأمله في النصر[1].

فتُعدّ حادثة الاحتفال الذي أُقيم في الجامع الجديد بالجزائر تكريمًا لأحمد التيجاني سنة 1897م مثالًا واضحًا على سياسة الاستعمار الفرنسي في استمالة الزوايا. فقد حضر هذا الاحتفال مفتي الحنفية محمد بوقندورة إلى جانب مسؤولين مدنيين وعسكريين، حيث لم يكن الهدف دينيًا فقط، بل سياسيًا أيضًا، إذ تم الإشادة بولاء العائلة التيجانية لفرنسا، وذكر تعاونهم معها، مثل إرسال عبد القادر بن حميدة لمرافقة الكولونيل فلايترس في حملاته نحو توات، إضافة إلى إبراز دور أحمد التيجاني في توسيع النفوذ الفرنسي في مناطق مثل عين صالح وعلاقاته مع ملوك بورنو. كما تم التطرق إلى زواجه من الفرنسية "أورلي بيكار" كدليل على هذا التقارب[2].

مما يظهر هذا اكيف عملت فرنسا على تكريم بعض شيوخ الزوايا واستغلال مكانتهم للتأثير على المجتمع، وجعلهم وسيلة للسيطرة غير المباشرة بدل المواجهة المباشرة.كما وجد الاستعمار بعض العملاء الذين يلبثون الحق بالباطل و يزيفون الواقع و يحرفون الإسلام عن موضعه[3] ،كما جاء في منشور فرنسي الذي دعت فيه فرنسا الى الاستسلام بسقوط توات ومنها

(... حيث ان قدر الله بدخول العساكر الفرنسية الى خطوط الصحراء الجزائرية و ضواحي توات و استيلائها على قصور عين صالح و عين الفار و ايكلي و كثير من الجهات ، وذلك لمصلحة عمومية و حكمة الاهية لا يعلم حقيقتها الا الله عظيم الشأن كبير السلطان ، فعلى العاقل تسليم القضاء ....، ولا تتعرض للأموال و الأملاك و لا العوائد و لا لعرف الأوطان بل تؤمن خوفهم و تحقن دمائهم و نساءهم و أولادهم و الكل في امان في ظل السلطان ..) [4].

---

[1] محمد باي بلعالم ، **الرحلة العلية** ، ج1 ، دار الهومة ، الجزائر ، 2005 ، ص 361 .

[2] عبد الحميد زوزو ، **نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر المعاصر 1830 /1900** ، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ، الرغاية الجزائر ، 2009 ، ص ص 259 261 .

[3] بلعروسي عبد الفتاح ، المرجع السابق ، ص 3.

[4] غيثاوي التهامي ، **لفت الأنظار** ، المرجع السابق ، ص ص 175 177 .

و يظهر جانب اخر من سياستها أيضا من خلال مسألة الفتوى النازلة التي طرح فيها سكان قورارة مسألة دينية مهمة وطلبوا فتوى من علماء مكة حول حكم البقاء تحت حكم الكفار أو الهجرة[1].

فسارعت الإدارة الفرنسية إلى مواجهة هذا التوجه، ليس بالقوة المباشرة بل روّجت لفكرة أنها دولة تقوم على مبادئ الإنسانية وحقوق الإنسان، وأن وجودها يهدف إلى مساعدة السكان على الخروج من العزلة وتحسين مستوى معيشتهم. وفي الواقع كانت تسعى إلى كسب الوقت وتهدئة الأهالي، واستغلال الظروف الاقتصادية لنشر نفوذها، بل وحتى التمهيد لنشر المسيحية وتلميع صورتها[2].

كما لجأت إلى التضليل ونشر الإشاعات لتضعيف الروح الدينية، مثل ترويجها أن سبب هزيمة جيش أحمد عرابي في معركة التل الكبير سنة 1882م يعود لانشغال الجنود بالأذكار، في محاولة للاستهزاء بالدين والتقليل من دوره في المقاومة. وهذه الأساليب مجتمعة تكشف كيف حاولت فرنسا ضرب الوعي الديني وتشويه حقيقته للسيطرة على المجتمع.

ثالثا :التجارة والدبلوماسية الاستعمارية :

ومن جهة أخرى اعتمدت الاستراتيجية الفرنسية في توغلها نحو الجنوب الجزائري على عقد اتفاقيات مع القبائل في إطار الدبلوماسية التجارية الاستعمارية كتمهيد للسيطرة العسكرية؛ حيث أبرمت سلسلة من المعاهدات الاستراتيجية لتأمين المسالك التجارية. شمل ذلك معاهدة الحماية مع بني ميزاب (1853) التي منحت فرنسا نفوذاً إدارياً مقابل ضمان حرية التنقل التجاري للأهالي، وتبعها اتفاقيات مع زعماء الطوارق (الأزجر)، ولاسيما مع الشيخ إيخنوخن، والتي ركزت في جوهرها على إقرار الصداقة وتأمين مرور القوافل نحو عمق إفريقيا (السودان) وتنظيم المكوس الضريبية [3].

فلم تكن هذه الاتفاقيات مجرد معاهدات اقتصادية، بل كانت أداة دبلوماسية لفتح أبواب الاستعمار وتوسيع شبكات النشاط التجاري الفرنسي في الصحراء عامة و في الجنوب الغربي خاصة ،

[1] محمد امين بلغيث ، **سياسة التوسع الفرنسي في الجنوب الغربي من خلال فتوى قورارة** ، ص 134 .

[2] محمد امين بلغيث ، نفسه، ص 134 .

[3] عبد القادر مرجاني ، المرجع السابق ، ص 236 .

مما سمح لفرنسا باستغلال موارد المناطق الجديدة وتأمين احتياجاتها من المنتجات الصحراوية والمدارية، ممهدةً الطريق لتحويل الصحراء من فضاء تجاري حر إلى منطقة خاضعة للهيمنة الإمبريالية.

ومن جهة أخرى وفي الوقت الذي كان فيه الفرنسيون جادين في الغزو والتوسع إلى جنوب الجزائر والصحراء أولوا اهتمامهم بموضوع المواصلات التي تمثل العنصر الأساسي والفعال في اختراقهم للتجارة الصحراوية ، وكان هدفهم من ذلك:

أ- تسهيل عمليات تنقل قواتهم العسكرية الغازية، وتذليل ظروف استقرارها في المراكز العسكرية المختلفة التي أنشأوها فعلا أو التي سينشؤها مستقبلا في الواحات والمناطق الإستراتيجية.

ب – ربط مستعمراتهم المختلفة ببعضها البعض في الشمال والغرب والوسط [1].

ج –تنشيط الاقتصاد الفرنسي والعمل على ازدهاره وخاصة قطاع الخدمات، وذلك من خلال استغلال الثروات الطبيعية الظاهرة والباطنية التي تزخر بها الصحراء الجزائرية فإقليمي قورارة وتوات غني بالمعادن كالفحم الحجري وذلك حسب الدراسة التي قدمتها "دفلامون" وهضبة تاهيت الغنية بمركبات الكبريت حسب ما ذهب إليه "رولان" بالإضافة إلى العديد من المعادن الأخرى كالرصاص والزنك والنحاس والأنتيمون [2].

د –الحد من تجارة القوافل المغربية والطرابلسية والمالية العابرة للصحراء الإفريقية والمحملة بكل أنواع الزينة كالعطور والروائح والمنسوجات الصحراوية وريش النعام وبعض المعادن التنمية كالذهب والفضة والنحاس، ومنافسها في الوصول إلى مصادر هذه الثروة واستغلالها واحتكارها لصالح الشعوب الأوروبية

فقد لجأت السلطات الاستعمارية إلى تشجيع وإغراء المهاجرين الفرنسيين والأوربيين بمد خط السكك الحديدية بموجب مرسوم 29 أفريل 1874م أرزيو – سعيدة، من خلال اتفاق لمدة 99 عاما المؤرخ بتاريخ 20 ديسمبر 1873م بين الحاكم العام للجزائر والهيئة الفرنسية الجزائرية، الذي يمتد ويتواصل نحو الجنوب حيث تم إنجاز خط جنوب وهران بمنطقة الجنوب الغربي لأسباب عسكرية

[1] عبد القادر مرجاني ، المرجع نفسه ، ص 257 .

[2] **الانتيمون** : معدن يستخدم غالبا في ادوات الزينة و هو معروف عند العامة من الناس بالكحل . ينظر : عميراوي احميدة و زاوية سليم، السياسة الفرنسية في لصحراء الجزائرية 1844 /1916 ، دار الهدى و الجزائر ، 2009، ص 78

طوله 440 كلم من الخيثر إلى كولومب بشار،[1] إلى جانب تعبيد الطرق نحو الجنوب الوهراني والصحراء الجزائرية، فارتبط الاستيطان بالتوسع في هذه المناطق باستغلال الثروات الطبيعية والمنجمية مثل النحاس في منطقة عين الصفراء والفحم في منطقة القنادسة وبشار وثروة الحلفاء، إلى جانب الاستغلال البشع لليد العاملة الرخيصة التي تتكون من سكان البدو الرحل [2].

وصل خط السكة الحديدية إلى مشرية سنة 1882م وإلى منطقة عين الصفراء، 1887م ضمن إستراتيجية ذات بعد عسكري، مع استغلال الحلفاء من طرف الشركة صاحبة الامتياز باستغلال مساحة قدرها 300000 هكتار، وينتشر نبات الحلفاء بشكل كبير في مناطق الهضاب العليا وشمال الصحراء وحتى المناطق شبه الصحراوية وتستغل في تغذية الحيوانات وفي الاستغلال الصناعي، حيث يتم شحنهاعن طريق السكك الحديدية إلى أرزيو ومنها إلى إنجلترا [3].

وتدعيما لذلك تم إنشاء أسواق أسبوعية في كل من سعيدة بقطب عين الصفراء وبني ونيف وقد رأت السلطة الاستعمارية في هذه الأسواق عمل وطني ومكمل أساسي للسكك الحديدية وذلك لربط مستعمراتها بفرنسا تجاريا [4].

كما انها وظفت الإدارة الاستعمارية دبلوماسية الاستعمارية لحماية مصالحها التجارية وتمهيد الطريق لاختراق الأسواق الصحراوية. ويظهر ذلك بوضوح في استغلال فرنسا لشكاوى القبائل المتضررة من غزو القوافل القادمة من إقليم قورارة؛ حيث لم تكتفِ فرنسا بالرد العسكري، بل أرسلت وفداً دبلوماسياً إلى سلطان المغرب عبد الرحمن بن هشام للضغط عليه وتحييد دور القوى المحلية (مثل الشيخ بن طيب) التي كانت تعطل التجارة المارة نحو المناطق الخاضعة للسيطرة الفرنسية [5].

---

[1] عميراوي احميدة و آخرون ، المرجع نفسه ، ص 78

[2] ايزابيل ابرهاردت ، **يوميات الطريق "عودة العاشق المنفي "**، تر: ميهي عبد القادر ، مطبعة الوليد ، الجزائر ، 2006 ، ص 139 .

[3] عبد القادر مرجاني، المرجع السابق ، ص 102 .

[4] إسماعيل العربي ، **الصحراء الكبرى و شواطئها** ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، ص 102 .

[5] د.مبخوت بوداوية ، المرجع السابق ، ص 19 .

لقد كانت هذه التحركات الدبلوماسية تهدف في جوهرها إلى عزل أقاليم توات وقورارة عن حماية المخزن المغربي، وتحويلها إلى منطقة نفوذ فرنسي خالص تحت غطاء تأمين المسالك التجارية [1].

وبجانب هذا فنجدها قد عملت على منع التبادلات التجارية بين مختلف القبائل، والتضييق على نشاط التجار الصحراويين، إلى جانب إغراقهم في القروض الربوية، مما زاد من تدهور أوضاعهم المعيشية. كما أثقلت كاهل الأهالي بأنواع متعددة من الضرائب التي ظهرت منذ بداية الاحتلال .

وتجلى ذلك في المرسوم الصادر في 17 جانفي 1845م، الذي حدّد جملة من الضرائب واستحدث أخرى مست عمالة قسنطينة والقبائل ومناطق الجنوب، خاصة ما تعلق بالنخيل.[2]

ثم تعزز هذا التوجه بإقرار ضريبة جديدة بتاريخ 13 جويلية 1874م عُرفت بالضريبة العربية، والتي أضيفت إلى الضريبة الفرنسية المباشرة. وقد طُبقت هذه السياسات بشكل خاص على السكان الذين ثبتت مشاركتهم في أي شكل من أشكال المقاومة الشعبية ضد التوسع الفرنسي في الجنوب الجزائري، في إطار مسعى استعماري لإضعافهم اقتصادياً وكسر قدرتهم على المواجهة [3] .

المبحث الثالث : ردود فعل محلية

أولا : مواقف قبائل

من خلال ما تم التطرق اليه سابقا نجد ان مواقف القبائل متباينة بين الرفض والتحالف مع الفرنسيين فنجد في الأخير وكما ذكرنا سابقا ان كان هناك تحالفات بين اعيان وسكان المنطقة وهذا ما نجده في نجاحها في استمالة بعض قادة سيدي الشيخ وعائلات أخرى في المنطقة حيث ان هناك من الاعيان قبلت بالوجود الفرنسي مقابل الحفاظ على المكانة الاجتماعية وتباين راجع الى طبيعة القيادة التي لم تكن موحدة.

[1] نفسه.

[2] راضوان شافو ، المرجع السابق ،ص ص 74 75 .

[3] نفسه .

بينما في المقابل رفض للوجود الفرنسي و هذا ظاهر من خلال الاحتضان الشعبي لفلول و لاجئ المقاومة الشعبية بقصور الجنوب الغربي و ومعارضة و استهداف البعثات و الرحالة الفرنسيين من حين لآخر، وهما حالتين واضحتين من مواقف المنطقة من الاستعمار الفرنسي [1].

و ما نجده تجلى بالرفض و الوقوف ضده حتى قبل الزحف الفرنسيين الى الأراضي المنطقة ورغم أن السلطات الفرنسية حاولت مرارا وتكرارا التواصل مع سكان و اعيان المنطقة تمهيدا لقبولها و للتعامل معها ، إلا ان معظم تلك المحاولات اصطدمت فيها بمواقف سلبية [2]. ورغم التوتر القائم بين سكان منطقة الجنوب الغربي والفرنسيين، حاول بعض أعيان المنطقة التعامل مع هذا الوضع بطرق حذرة تشبه أساليب الفرنسيين أنفسهم.

فحادثة مقتل مارسيل بالات سنة 1886، والتي أثارت غضب الفرنسيين، دفعت الحاج عبد القادر باجودة ، ممثلاً عن أهل عين صالح، إلى معاقبة المسؤولين عن الحادثة، ثم جمع ممتلكات بالات وتسليمها إلى الشيخ بوعمامة في دلدول ليكون وسيطاً مع الفرنسيين، حيث قام هذا الأخير بإرسالها إلى حاكم عين الصفراء. وقد فُسرت هذه الخطوة من طرف الفرنسيين على أنها محاولة لتهدئة الأوضاع وتفادي إعطائهم مبرراً للتوسع في المنطقة[3].

وفي سياق متصل، يشير لويس فوانو إلى تزايد قدوم الرحالة الأوروبيين إلى المنطقة، خاصة عبر الجهة الشمالية الشرقية لتيديكلت. وأمام ذلك، أرسل سكان عين صالح رسولين إلى شعانبة ورقلة يطلبون منهم عدم مرافقة "الكفار" ورفض إدخالهم إلى أراضيهم. وقد استجاب الشعانبة لهذا الطلب، مما أدى إلى إلغاء رحلة لارجو التي كانت متجهة نحو الهقار عبر تيديكلت. وهذا يدل على أن سكان توات كانوا يرفضون مرور الرحالة الأوروبيين، بل وقد يلجؤون إلى طردهم أو الاعتداء عليهم إذا خالفوا قراراتهم[4].

---

[1] عبد الكريم طهبري ، **منطقة توات و اسهاماتها في لمقاومة الشعبية في الجزائر 1883 / 1903** ، المرجع السابق ، ص 259.

[2] المرجع نفسه .

[3] نفسه .

[4] عبد الكريم طهيري، المرجع السابق ، ص 260

ومع ذلك، سعى بعض كبار الشخصيات في توات إلى فتح التواصل مع الفرنسيين، ليس بدافع القبول بهم، بل لتجنب خطر التدخل العسكري. ويذكر فوانو أن سكان تيديكلت كانوا عموماً غير متعاطفين مع الفرنسيين، لكن الحاج عبد القادر باجودة حاول التقرب منهم كإجراء احترازي.

ففي سنة 1857، وبعد احتلال الأغواط، أرسل مبعوثين إلى الحكومة العامة في الجزائر للتفاوض حول اتفاق شبيه باتفاق بني ميزاب سنة 1853، بل عرضوا دفع الضرائب والاعتراف بالتبعية لفرنسا، غير أن طلبهم لم يُقابل بالرد. كما أنه بعد سقوط المنيعة سنة 1873، بعث سكان عين صالح رسائل تعبر عن رغبتهم في إقامة علاقات ودية مع الفرنسيين [1].

وكانت المواقف و المناورات لبعض القيادات المنطقة لا تختزل في رفض الفرنسيين او تواصل و التفاوض معهم فحسب بل سعت بعض القيادات الى الاستنجاد بالقصر العلوي المغربي بحكم علاقتهم الثقافية و التاريخية ، فمثلا انتفض اهل توات سنة 1886 ضد المراكز العسكرية في المنيعة ووجهوا رسائل احتجاج للفرنسيين و تواصلوا مع السلطان المغربي ، مما جعل السلطات الفرنسية تستعين بشريف وزان الذي كتب الى اهل المنطقة رسالة يطمئنهم فيها و يدعوهم لتقبل وجود الفرنسيين[2].

و حسب ما أشار اليه شامبو في كتابه أن الوظائف مثل القاضي و الامام و الطلبة ظلت مستقلة في البداية حيث ان القبائل كانوا في البداية يهادنون في السياسة او التجارة لكنهم اظهروا رفضا مطلقا لأي تدخل فرنسي في القضاء الشرع او التعليم القرآني و هذا ما جعل فرنسا تحذر و تترك هذه الوظائف لأهل المنطقة لامتصاص الرفض الشعبي [3].

ثانيا : الحذر الأهالي الجنوب الغربي من الفرنسيين

من المعروف ان اهل مناطق الجنوب كانوا معروفين بحبهم للغرباء و حسن الضيافة و الكرم في اخلاقهم الا انهم لما اكتشفوا حقيقة الاوربيين الذين كانوا يستهدفون التغلغل في الداخل الافريقي ،وان معظم الرحالة و المغامرون الذين كانوا يتجولون في الصحراء و ادغال افريقيا كانوا مجرد وسائل وأعوان

[1] عبد الكريم طهيري، المرجع السابق ، ص 261 .

[2] نفسه .

[3] Champeaux Guillaume ,A travers les oasis saharienne les spahis sahariennes, Ed R.chapelot , paris 1903.P

للحركة الاستعمارية الأوروبية ، فسرعان ما نبذوهم و أبانوا لهم عن موقفهم الرافض لزياراتهم ولو مرورا بهم ، الى درجة ان كيف أن بعض الرحالة اضطروا للتنكر بملابس و شخصيات ووظائف كاذبة تمويها لجنسياتهم الحقيقية [1].

وكان اهل المنطقة منذ البداية مدركين أطماع و المحاولات الفرنسية بل وشعروا بخطورتهم قبل أن يدخل المخزن الخط، وهذا نجده عندما قاد بعض أعيان منطقة تيديكلت حملة رد عن الاطماع الفرنسية بحيلة التفاوض المسبق .

حيث و انه في عام 1857 و بعد احتلال فرنسا لمدينة الاغواط أرسل الحاج عبد القادر باجودة مبعوثين الى الجزائر العاصمة ، ليتفاوضوا مع الحاكم العام سعيا للحصول على اتفاق مشابها لاتفاق ميزاب سنة 1853 بهدف منع الفرنسيين من احتمال احتلال توات ، و كإشارة عن حسن النية تمت حماية الرحالة الألماني جيرهارد رولفس من طرف الشيخ باجودة [2].

وفي هذا السياق نذكر منها مواقف ذكرنها ضد البعثات الاستكشافية فنجد منهم سنة 1861 الرائد كولونيو برفقة الملازم بورين الذي قوبل برفض عند دخولهما لقصور قورارة في كل من دلدول و اوقروت ، و عادا أدراجهما دون ان تكمل رحلتهما و اغلق أبواب القصبة في عين صالح في وجه رحالة بول سولايي سنة 1873 ، كما سنة 1876 قتل ثلاثة من الإباء البيض مينوري و بولمي و بوشارد في حاسي اينفيل [3]

و ابديت بعثة فلاترز قرب عين صالح سنة 1881 م ، وقتل ماسيل بالت سنة 1886 بين اوقروت و عين صالح و نفس الشيء اغتيل كاميل دولس في جهة اولف سنة 1889 م، و رفض مرور بعثة فلامون على عين صالح سنة 1899 [4] .

---

[1] عبد الكريم طهبري ، **منطقة توات و اسهاماتها في لمقاومة الشعبية في الجزائر 1883 / 1903** ، المرجع السابق ، ص 251.

[2] نفسه ، ص 113 .

[3] نفسه ، ص 251 252 .

[4] نفسه .

كما استعملت بعض السكان سلاح المعلومات المضللة حيث تذكر المصادر الفرنسية أن السكان المحليين في منطقة "تيت" Titt بالهقار قدموا أرقاماً "خيالية (chiffre fantastique) "عن تعدادهم السكاني ادعوا أنهم 10 آلاف نسمة ، وهذا يثبت أن الاستطلاع الفرنسي واجه تضليلاً متعمداً حيث استخدم السكان المحليون المبالغة في الأعداد كاستراتيجية ردع عسكري لإحباط مخططات التغلغل.

كما أشاره المصادر الفرنسية كذلك أن السكان كانوا يخفون مواقع نقاط المياه أو يذكرون بئراً واحداً فقط بينما تؤكد الأبحاث الفرنسية وجود "خزانات طبيعية عديدة". وهو ما ذكر عن "أهل عين صالح "الذين قاموا بردم الآبار (comblaient si vite le Hassi) لعرقلة تقدم بعثة "فلاترز . فالسكان أدركوا أن "الخريطة المائية" هي مفتاح الاحتلال، فاستخدموها لتعطيل الاستطلاع العسكري ومنع البعثات الفرنسية من التوغل في الجنوب الغربي[1].

كما واجه المستكشفون خلال محاولاتهم لرسم الخرائط والاستطلاع بعض الصعوبات الميدانية نتيجة مواقف السكان المحليين الذين أبدوا تحفظا و رفضا أحيانا لتقديم المعلومات حول المنطقة [2].

كما تصدى سكان منطقة توات لطلائع الاجتماع الفرنسي لاحتلال المنطقة في البداية عن طريق المقاطعة، لكنها فشلت نظرا لظروف القحط والمجاعة التي كانت تصيب المنطقة، فبين سنة 1854م 1860م أصيبت المنطقة بثلاث سنوات من القحط فكان الفرنسيون يسيرون القوافل التجارية المحملة بمختلف المواد التويتية[3].

فلجأ سكان المنطقة إلى عقد التحالفات مثل: تحالف الغنائمة مع تامريزت ونادماين بنوات سنة 1870م اثر وصول حملة قامقن إلى وادي كبير، وتحالف ذوي منيع والعوابد والبربوشيين 1871م، وبين ذوي منيع وزاوية سيد البكري والغنائمة 1877م، وتحالف احمد ولد سي المختار الجديدي من نامست والشيخ يعقوب بن علال من بين سي الحبيب وسي الغنائمة[4].

[1] Camille Sabatier، Op , cit , pp12 19.
[2] Ibidt , t, p12 19 .
[3] بلعروسي عبد الفتاح ، المرجع السابق ، ص 47 .
[4] نفسه .

في 26 أكتوبر 1878م والتحالف بين أهالي يتيمي والبرابر ضد أي خطر سنة 1883م، وتحالف بين المحاميد وبودة سنة 1887م، أي بعد مقتل بالا – والتهديد الذي نتج عن ذلك وغيرها من الأحلاف الكثيرة التي وقعت بين سكان الواحات والقصور والقبائل".[1]

كما اشير شامبو في كتابه ان السكان لم يكونوا متعاونين بسهولة ، حيث كان لازما على فرنسا تعيين وسطاء بينهم و بين القبائل ، لان القبائل كانت تنظر بريبة ما كان يحث في الشمال و لا تثق الا في من يتحدث لغتها و يعرف اعرافها [2].

كما ان موقف الذي جرى عند تأسس لا فيجري جمعية الآباء البيض مستغلا ظروف المجاعة والقحط الشديد الذي ألم بالبلاد عام 1867 ، وفي عام 1874 التي استكملت هاته الجمعية تنظيمها وبدأت في تأسيس مراكز لها بجنوب البلاد بسكرة الاغواط ، متليلي، والابيض سيدي الشيخ كما حاولت النفاذ نحو الجنوب. لكن الجهود التي بذلها الاباء البيض بعيدا عن حماية قوات الاحتلال باتت بالفشل الذريع [3].

حيث لقى عدد من المبشرين حتفهم على ايدي أدلتهم أنفسهم عندما تجرؤا وخرجوا من المراكز المحصنة التي تحميها القوات الفرنسية . فليس من عادة سكان الجنوب النيل من سلامة المسافرين العزل مهما كانت معتقداتهم، ولكنهم لم يجدوا حرجا للنيل من حياة هؤلاء لأنهم يدعون الى غير دين الله [4].

ثالثا : بداية المقاومة

كانت بداية المقاومة في منطقة الجنوب الغربي عبر لجوء قيادات المقاومة الشمال الى المنطقة التي كانوا يعتبرونها مكانا لتنظيم و التجييش للعودة للقتال و كلما ضاقت بيهم السبل كانوا يترددون على المنطقة من حين لآخر و هكذا دواليك ، فقد كانت تعتبر المنطقة قاعدة خلفية لقبائل التل الجزائري و الشخصيات المناوئة للاحتلال الفرنسي .

---

[1] نفسه .

[2] Camille Sabatier، Op , cit , P 19 .

[3] جمال قنان ، **قضايا و دراسات في تاريخ الجزائر الحديث و المعاصر** ، منشورات المتحف الوطني للمجاهد ، المؤسسة الوطنية للاتصال و الاشهار ، الجزائر ، 1994, ص 143 .

[4] جمال قنان ، المرجع نفسه .

فقد اكتشف الاحتلال الفرنسي الدور الذي لعبته الجنوب الغربي حتى قبل أن تطأ اقدامه ارضها و قصورها ، فنجد في ذلك اعتراف بعض الرحالة مثل جيرهاد رولفس و بول سولاي ، بل كذلك الحاكم العام الفرنسي كامبون أشار الى خطورة احتضان قصور المنطقة للمعارضين و المتمردين[1] .

أ / ثورة أولاد سيدي الشيخ

تمثل شخصية الشيخ بن طيب (زعيم أولاد سيدي الشيخ الغرابة) نموذجاً لرد الفعل في الجنوب الغربي الذي زاوج بين المقاومة السياسية والعمل الميداني؛ ففي ظل الغموض الذي طبع الموقف الفرنسي، سارع الشيخ بن طيب عام 1849 إلى إعلان ولائه للمغرب مدعياً تعيينه خليفة على الجنوب الشرقي للمغرب [2].

هذا الموقف لم يكن مجرد ولاء روحي، بل كان محاولة استراتيجية لمواجهة التمدد الفرنسي. وبالرغم من الضغوط العسكرية التي مارسها جنرالات فرنسا أمثال بيليسييه Pélissierو ماكماهون Mac-Mahonلتأديب أتباعه والسيطرة على المناطق الحدودية، إلا أن هذه الفترة مهدت لانفجار الثورات الكبرى لاحقاً عام 1864، وأثبتت أن سياسة في الحدود التي أقرتها معاهدة لالة مغنية قد ولدت مقاومة استماتت في الدفاع عن هوية المنطقة [3].

ومنها انتفاضة سكان منطقة الجنوب الوهراني (1864) تحت قيادة سي لعلا من اولاد سيدي الشيخ التي كانت ضربة في الصميم وجهتها المقاومة لهذه المحاولات. لقد شلت هذه الانتفاضة جميع الجهود التي بذلها الفرنسيون وابطلت كل المساعي والنتائج الأولية التي حققوها في هذا الصدد قبل هذا التاريخ. وعندما يدلى الكاردينال لافيجري بدلوه بسياسته المعروف بها والزامية الى تمسيح البلاد سيزيد ذلك من إصرار سكان الجنوب على مقاومة المحاولات الفرنسية بأي وجه تبدو عليها [4].

ب / ثورة الشريف محمد بن عبد الله

---

[1] عبد الكريم طهيري , **منطقة توات و اسهاماتها في المقاومة الشعبية**، المرجع السابق ، ص 109 ،

[2] د.مبخوت بوداوية , المرجع السابق ,ص 19.

[3] نفسه .

[4] جمال قنان ، المرجع السابق ,ص143 .

انقسمت ثورة محمد بن عبد الله [1]الى عدة مراحل من 1851 / 1854 التي في هذ المرحلة انطلقت من ورقلة ضد الفرنسيين ثم ضد الباشاغاوات فرنسا ، ومن 1854 / 1858 اللجوء الى تونس و بقائه فيها تحت الإقامة الجبرية ومراقبة الفرنسيين ، ثم من 1858 1861 الهروب من تونس و العودة الى الجزائر و بالضبط الى الجنوب الغربي توات حيث استطاع من خلالها جمع المئات من المتطوعين من تيديكلت و الطوارق و الشعانبة ثم هاجم مجددا الفرنسيين و الفرق القومية نواحي ورقلة و الاغواط [2].

فبدئت مقاومة الشريف محمد بن عبد الله بفضل الدعم الأولي لزعامات أولاد سيدي الشيخ (مثل سي حمزة وسي النعيمي). إلا أن هذا التحالف شهد تصدعاً حاداً نتيجة السياسة الاستعمارية القائمة على الإغراء،[3] مما حول سي حمزة من حليف إلى خصم قاد حملات عسكرية أدت لهزيمة الشريف في موقعة الرويسات (1853) وإخضاع مناطق ميزاب وورقلة [4].

وبالرغم من محاولات الشريف محمد بن عبد الله المستمرة للعودة عبر جمع الأنصار من الطوارق والشعانبة في توات، إلا أن التحالف الفرنسي مع القوى المحلية (سي بوبكر وسي الأعلى) أدى في النهاية إلى ملاحقته وأسره قرب ورقلة عام 1861 [5].

ج /ثورة بوشوشة بين 1870 / 1874م

كما اندلعت في منطقة الجنوب الغربي مقاومة أحمد بن التومي بن إبراهيم المدعو بوشوشة[1]، الذي ولد بالمنيعة سنة 1827 ، الذي أعلن الثورته ضد فرنسا، فاتخذ من عاصمة تيديكلت مقرا لجماعته وبويع زعيما بعين صالح في فيفري 1870.

---

[1] **الشريف محمد بن عبد الله** : المدعو إبراهيم بن ابي فارس المدني ، بعض الرويات تربطه بأولاد سيدي الشيخ ، و أنه تعلم في قرية قرب تلمسان ، و أنه كان لغاية 1840 يدرس في زاوية سيدي يعقوب التابعة لأولاد سيدي الشيخ . أبو القاسم سعد الله ، الحركة الوطنية الجزائرية ، المرجع السابق ، ص 355 .

[2] عبد الكريم طهيري ، منطقة توات و اسهاماتها في لمقاومة الشعبية الجزائرية ،المرجع السابق ، ص ص 192 193 .

[3] احمد عماري ، المرجع السابق ، ص 67 .

[4] عبد الكريم طهيري ، المرجع السابق ، ص 192 .

[5] نفسه .

فبعد أن تمت الزعامة البوشوشة، استعاد زمام المبادرة ضد الوجود الفرنسي بالصحراء الجزائرية، كانت مقاومته في البداية بنواحي متليلي حيث اصطدم لأول مرة بالقوات الفرنسية في بداية 1870م، وحقق انتصارات كبيرة عليها، في الميدان فانتقل إلى جهات أخرى من الجهة الجنوب الشرقي، و بعدها رجع إلى عاصمته عين صالح الجمع الأنصار والمؤن استعدادا لجولة أخرى[2].

كما نسق ثورته مع الشريف محمد بن عبد الله وبن ناصر بن شهرة مما مكنه من تحقيق انتصارات باهرة، لكن فرنسا قد وضعته صوب عينيها ،حيث كانت قد قضت على ثورة المقراني (1871-1872م) وتفرغت للقضاء عليه، فحدث هجوم عنيف يوم 2 جانفي 1872م، فاضطر إلى التراجع نحو وسط الصحراء .

حيث اقتصر نشاطه على توات بقصوره المختلفة كتيديكلت وتيميمون وموديدر و شروين وطلمين وأوقروت ودلدول وتاغوزي، وقاد منها حرب عصابات ضد الوجود الفرنسي على مشارف وحدود إقليم توات حتى ألقي عليه القبض في المنيعة بعد معركة الميلوك من طرف أحد أعدائه الذي سلمه الفرنسا، فنفذ فيه حكم الإعدام يوم 29 جوان 1874 بمعسكر الزيتون بقسنطينة ،بينما استقر أنصاره في عين صالح ، وانضم آخرون المقاومة الشيخ بوعمامة بقصر أولاد عبو بمنطقة دلدول لاحقا واتجه التوارق منهم إلى منطقة الأهقار المواصلة نشاطهم المقاومة هناك[3].

نجح بوشوشة في استهداف الوجود الفرنسي في وسط الصحراء الجزائرية، من خلال استهداف قواتها وعملائها، مما جعلها لا تدخر جهدا في القضاء عليه، وما كان لها أن تتمكن من ذلك لولا عملائها الكثر بالمنطقة، مما جعل ثورته تستنفد حل مجهوداتها ضد أعدائه من العملاء، ومن ثم

---

[1] **محمد بن التومي بن إبراهيم الملقب بـ بوشوشة**، هو شخصية جزائرية من منطقة الغيشة قرب آفلو، عُرف بالفروسية والتنقل بين مناطق الجنوب الغربي، وبممارسة الرقية والعلاج الشعبي في القرن 19م. اختلفت المصادر حول تاريخه، ووصفتْه الروايات الفرنسية بشكل سلبي كـ"ساحر" في إطار تحامل استعماري على الممارسات الشعبية السائدة آنذاك. سُجن سنة 1862 بتهمة إثارة الاضطرابات، ثم برز لاحقًا كأحد الشخصيات التي بدأت تجمع أنصارًا في سياق المقاومة المحلية ضد الوجود الفرنسي ، ينظر .أ.عواريب لخضر ، **بعض الحقائق عن مقاومة الشريف بوشوشة من خلال بعض المصادر المحلية و منها الشهادة التي أملاها بوشوشة على سجانه** ، مجلة العلوم الإنسانية و الاجتماعية ، ع 17 ، 2014 ، ص 296 .

[2] رموم محفوظ ، **الاحتلال الفرنسي لأقصى الجنوب الغربي الجزائري و المجابهة العسكرية و الثقافية** ،المرجع السابق ، ص 58.

[3] رموم محفوظ ، **الاحتلال الفرنسي لأقصى الجنوب الغربية و المجابهة العسكرية و الثقافية** ، المرجع السابق ، ص 58

استنفد قوته في المعارك الجانبية، ولو أن ذلك لا ينقص من عمله شيئا، فحسبه أنه حارب ضد القوات الفرنسية كما حارب [1].

ويتضح من هذه اللمحات السريعة عن ردود الفعل ازاء الغزو، ان هناك اجماعا وطنيا على ضرورة حمل السلاح لصد المعتدين وذلك بالنسبة لجميع مناطق البلاد ولكننا نلاحظ في نفس الوقت ان هذا الاجماع لم يتبلور ولم ينمو في اتجاه توحيد قيادة المقاومة في اطار تعبئة كل الجهود والامكانيات المحاصرة العدو والتضييق عليه في المواقع التي يسيطر عليها .

و كما يبدو انه لم يكن هناك اتفاق حول تحديد اهداف العدو ونواياه ازاء البلاد بالنسبة للمستقبل، وهذا الموضوع هو الذي يشكل نقطة الضعف الرئيسية بالنسبة للمقاومة في مرحلتها الأولى كما انه يمثل تغرة مكنت العدو من النفاذ من خلالها الى صفوف الجزائريين[2].

وبالفعل فإن انعدام الرؤيا الواضحة حول اهداف العدو ومخططاته بالنسبة للمستقبل لدى قسم هام من العناصر المؤثرة في الرأي العام، شكل عقبة كأداة في طريق توحيد المقاومة في مرحلتها الأولى هاته لقد كان هناك اعتقاد دارج بكون فرنسا لن تستقر في البلاد وانها سوف تسلم الحكم الى العناصر من السكان الذين ترضى عنهم بعد ان تبرم اتفاق معهم لضمان مصالحها في المستقبل [3].

خلاصة الفصل :

اعتمدت فرنسا في بداية توسعها نحو الجنوب الغربي على سياسة قائمة على الاستكشاف والاختراق السلمي. التي تجسدت في البعثات العسكرية والعلمية و الأساليب دبلوماسية وتجارية ذلك لكسب النفوذ داخل المجتمع الصحراوي عن طريق التحالفات و إقامة علاقات تجارية بينها و بين القبائل . غير أن هذه السياسة لم تكن سوى مرحلة تمهيدية مهدت لفرض السيطرة الفعلية على الجنوب، التي أثارت هذه السياسة الاستعمارية ردود فعل متباينة منها من حالف ومنها من رفض ، و

[1] نفسه .

[2] جمال قنان ، المرجع السابق ، ص 160 .

[3] نفسه

الذي تجسد هذا الرفض في بروز عدة مقاومات محلية من ابرزها مقاومة أولاد سيدي الشيخ و غيرها من الحركات التي سعت الى تصدي للتغلغل الاستعماري في المجال الصحراوي .

الفصل الثالث :

الاحتلال العسكري للجنوب الغربي

المبحث الأول: الحملات العسكرية الكبرى

المبحث الثاني: المقاومة الصحراوية في الجنوب الغربي

المبحث الثالث: اخضاع مجال الجنوب الغربي

الفصل الثالث : الاحتلال العسكري للجنوب الغربي 1881 / 1902

تمهيد :

بعد أن تمكنت فرنسا من التمهيد لتوسعها داخل الجنوب الغربي الجزائري عبر وسائل الاستكشاف والاختراق السلمي، اتجهت إلى مرحلة الاحتلال العسكري المباشر خلال أواخر القرن التاسع عشر. و هذا ما تم التطرق اليه في هذا الفصل من خلال معالجة الاحتلال العسكري للجنوب من خلال حملاتها العسكرية إلى السيطرة على الواحات والطرق التجارية الاستراتيجية وإخضاع القبائل الصحراوية في الجنوب الغربي .

في المقابل تم التطرق الى المقاومة التي واجهها الاستعمار من طرف القبائل والزوايا الدينية التي حاولت الدفاع عن المجال الصحراوي والحفاظ على استقلاله. و في الأخير ، عملت فرنسا إقامة نظام و فرض حدود استعمارية و إعادة تنظيم القبائل التي هدفت إلى إخضاع المنطقة وإعادة تنظيمها وفق خدمة المصالح الاستعمارية.

المبحث الأول : الحملات العسكرية الكبرى

أولا : احتلال الواحات

لما رأت فرنسا أن اقصى الجنوب الغربي للجزائر اصبح حاضنة للمقاومة الجزائرية بل وربط مصيره بمصير المقاومة الشعبية في الشمال ، الذي أصبح يشكل خطرا على وجودها ، عندما اصبح سكان المنطقة بأنفسهم يشاركون في القتال و التي كثفت بعد هذا من رحلاتها الاستكشافية للمنطقة فبعد ما أوكلت الطبيب الألماني جيرهارد رولف زيارة الإقليم سنة1864 م اقترح على السلطات الاستعمارية بالجزائر أن تقوم بنقل حدودها الى اقصى وادي الساورة اي الى منطقة توات باعتبار الاخير تشكل مركز المشاكل و المتاعب و الفوضى ضد فرنسا في جنوب مقاطعة وهران [1].

فبعد توقيعها معاهدة مع انجلترا في 5 اوت 1890 اطلقت خلالها الاخير يد فرنسا في الصحراء الكبرى ، و بذلك وضع مشروع قيد التنفيذ ، فبعد ما زودت البعثات الاستكشافية و الاستطلاعية العلمية منها و العسكرية المشروع الاستعماري بالبحوث و التقارير المفصلة عن اوضاع

[1] رموم محفوظ ، الاحتلال الفرنسي لأقصى الجنوب الغربي و المجابهة العسكرية و الثقافية ، المرجع السابق ، 60 .

المنطقة كما زودت العسكريين بمختلف الخرائط الجغرافية و الطوبوغرافية للمنطقة ، و ما أشرف القرن 19 م على نهايته حتى كانت فرنسا قد اتمت استعداداتها السياسية و العسكرية الداخلية منها و الخارجية ، للقيام بعمل عسكري حاسم و السيطرة على الجنوب الجزائري عامة [1].

و بعد ما تم تعيين لافيير(Laffférrière) 'والياً عاماً على الجزائر في 31 أوت 1898 الذي شكل منعرجاً حاسماً في السياسة الاستعمارية تجاه الجنوب؛ حيث عُرف بحماسه الشديد لاستكمال مشروع التوسع نحو أقاليم توات والجنوب الوهراني[2]. وسعياً لتفادي الانتكاسات التي واجهتها فرنسا سابقاً بسبب المقاومة المحلية، اعتمدت الإدارة الاستعمارية استراتيجية المباغتة ؛ وذلك عبر دمج وحدات عسكرية مكثفة ضمن بعثات استكشافية، كان أبرزها حملة الجيولوجي فلامون.

وبحلول ديسمبر 1899، وصلت هذه الحملة إلى إقليم تيديكلت، معلنةً بذلك بداية عهد جديد من المواجهة العسكرية المباشرة في أقصى الجنوب الغربي. وتوالت بعدها الطوابير العسكرية لإخضاع المنطقة، حيث سقط إقليم تيغورارين في 26 جانفي 1900، ليعقبه احتلال أقاليم توات الوسطى في جويلية من العام نفسه. وبذلك، انتقلت فرنسا من مرحلة الاستكشاف والتمهيد إلى مرحلة فرض السيطرة الميدانية الشاملة على الواحات الصحراوية [3].

أ / احتلال عين الصفراء 1882

يرتبط تاريخ عين الصفراء ارتباطًا وثيقًا بتاريخ الصحراء الجزائرية، وبالجنوب الغربي على وجه الخصوص،. فقد سعى الفرنسيون طيلة السنوات الأولى من احتلالهم إلى فرض سيطرتهم على هذه المنطقة وإخضاعها لسلطتهم، غير أن ذلك واجه صعوبات كبيرة.

وفي إطار سياستهم التمهيدية، قاموا بتعيين قادة جدد على مستوى جماعات القصور وقبائل الرحل. وبعد اندلاع مقاومة أولاد سيدي الشيخ سنة 1864 ضد الوجود الفرنسي، كثفت

[1] رموم محفوظ ، **الاحتلال الفرنسي لأقصى الجنوب الغربي و المجابهة العسكرية و الثقافية** ، نفسه ، 61 .

[2] نفسه ، 458 .

[3] د. رموم محفوظ، المرجع السابق ، ص ص61 62 .

السلطات العسكرية من بعثاتها الاستكشافية نحو الجنوب مثل بعثة دوكولومب(De Colomb) سنة 1855 وبعثة (Colonel Colonio)الكولونيل كولونيو[1].

فنجد ان القوات الفرنسية ركزت قوتها و عززت تواجدها في عين الصفراء وباقي المناطق الواقعة في حدود وهران و ذلك لوضع حاجز لحماية المنطقة الشمالية [2] وكذا السيطرة الجزء الجنوبي الغربي .

فبعد ما انطلقت العديد من الثورات في المنطقة ومنها ثورة الشيخ بوعمامة 1881 م و التفاف القبائل حولها قامت السلطات الفرنسية بإنشاء العديد من المراكز العسكرية في المنطقة[3] لذلك فتم احتلال المنطقة بصفة رسمية في جويلية عام 1885[4].

كما قرر تعزيز هذا الحصن عن طريق ربطه بالخط الحديد يربطه بعين الصفراء الذي انتهت الأشغال به سنة 1887م، وكل ذلك من اجل مراقبة تحركات بوعمامة والقبائل الداعمة له مثل أولاد جرير وعشائر بني معقل، فمنذ سنة 1889م لاحت في الأفق فكرة جديدة وهي احتلال الصحراء بطرق هادئة، ولا يأتي ذلك إلا عن طريق إقامة المؤسسات الاقتصادية وإنشاء مراكز تجارية، في كل من توات وتيديكلت حتى تخضعها لنفوذها، وبدأت تكثف من البعثات الاستكشافية نحو هذه الناطق القاحلة للتعرف أكثر على إمكانياتها الطبيعية والبشرية ولقد أرسل بهذا الصدد الأستاذ فلاموند Flamend [5]لإتمام أبحاثه حول الجنوب الكبير[6].

---

[1] حلالس سعاد خوجة دنية ،**التوسع الفرنسي في الجنوب الغربي الجزائري 1881 /1908 م** ، مذكرة لنيل شهادة الماستر ، جامعة ابن خلدون تيارت ، 2016 2017 ، ص 53 .

[2] إبراهيم المياسي , **التوسع الاستعمار الفرنسي في الجنوب الغربي الجزائري 1881 /1912** ، المرجع السابق ، ص 105 .

[3] بن قيطون حمزة ، مرجع السابق ، ص 189 .

[4] موسى الطاهر ، **استكشافات الأوروبية للصحراء الجزائرية خلال القرن 19 م** ، مذكرة لنيل شهادة الماجيستر ، تخصص تاريخ ، جامعة بشار ، 2012 / 20013 ،ص 80 .

[5] **فلامون** أستاذ فرنسي مختص في الجيولوجيا، كان يدرس في المدرسة العليا للعلوم بالجزائر العاصمة، أرسلته فرنسا في بعثة علمية الإنجاز أبحاثه ودراساته حول الجنوب الجزائري في 1899م، وكانت بعثته العلمية هي الأخطر والانطلاقة الفعلية للغزو الفرنسي بمنطقة توات . ينظر : مياسي ابراهيم ، التوسع الاستعمار الفرنسي في الجنوب الغربي ، المرجع السابق ، ص 108 109 .

[6] محمد برشان ، **النشاط السياسي بملحقة بدايات العمل العسكري و الثوري عين الصفراء 1912/ 1942** ، دار المعابر للنشر و التوزيع وزارة الثقافة ، الجزائر ، 2013 ، ص 21

ب / اخضاع اقليم تيديكلت فنطلق الاحتلال العسكري الفعلي لإقليم تيديكلت[1] في زحف حملة فلامون التي انطلقت من ورقلة في 28 نوفمبر 1899م، تحت حماية عسكرية من النقيبين بان و جيرمان. ومع وصول البعثة إلى واحة إيقسطن في 26 ديسمبر 1899م، اصطدمت النوايا الاستعمارية بالرفض القاطع لأهالي عين صالح بقيادة الحاج المهدي باجودة، مما فجر مواجهات مسلحة عنيفة . بدأت بمعركة الفقيقيرة في 27 ديسمبر 1899م، تلتها معركة الدغامشة الفاصلة في 05 جانفي 1900م [2].

وأمام كثافة النيران الفرنسية، سقطت واحة إينغر بعد صمود طوال شهري جانفي ومارس 1900م، وهو ما مهد الطريق للقوات الفرنسية لاحتلال مدينة تيت في 23 مارس 1900م، ثم واحات أقبلي وأولف في 28 مارس 1900م. وبذلك، وفي غضون أربعة أشهر فقط، تمكنت القوات العسكرية الفرنسية من إخضاع أهم مراكز إقليم تيديكلت وتحويلها إلى نقاط ارتكاز عسكرية [3].

ثالثا : اخضاع منطقة إقليم قورارة بعد إتمام السيطرة على تيديكلت، وجهت القوات الفرنسية ثقلها العسكري نحو إقليم قورارة [4](الجزء الشمالي لتوات) وعاصمته تيميمون. وبدأت العمليات في 27 أفريل 1900م بقيادة العقيد مينيسترالMénestrel على رأس طابور يضم 800 جندي ومدفعية ميدان انطلق من قاعدة المنيعة [5].

وأمام الصمود البطولي لأهالي تيميمون الذي أوقف الزحف الفرنسي، اضطرت القيادة الاستعمارية لطلب إمدادات إضافية (400 جندي من البيض)، مما أدى لسقوط المدينة في 12 ماي

---

[1] **تيديكلت** كلمة من أصل بربري محلي تعني راحة اليد، وهي المنطقة الواقعة شرق وجنوب هضبة تادمايت وتضم قصور عين صالح واينغر وفقارة الزوى وأولف وتيمقطن وتبط . ينظر : عبد الكريم الطاهري و آخرون ، توات في مشروع التوسع الاستعماري الفرنسي بالجزائر خلال القرم 19 م ، المرجع السابق ، ص 518 .

[2] عبد المالك الطاهري و آخرون ، الرحالة و المستكشفون الفرنسيون في توات خلال القرن التاسع عشر و دورهم في احتلال المنطقة، المرجع السابق ،ص 322 .

[3] نفسه .

[4] **قورارة** وردت في المصادر التاريخية المشهورة بتسميات مختلفة، منها تيكورارين وتينجورارين وجرارة ونحوها، وأصل التسمية من المنطوق الزناتي تعني " التجمعات ". عبد الكريم الطاهري و آخرون ، توات في مشروع التوسع الاستعماري الفرنسي بالجزائر خلال القرم 19 م ، المرجع السابق ، ص 518 .

[5] عبد المالك طاهيري و آخرون ، المرجع السابق ،ص322 323 .

1900م. وتوالت بعدها عمليات الإخضاع لتشمل قصر دلدول في 31 ماي 1900م، لتبدأ بعدها المرحلة الحاسمة بقيادة الجنرال سيرفيار (Servière) ومساعديه، الذين استندوا في تحركاتهم الميدانية لإخضاع بقية قصور تنجورارين إلى التقارير الاستخباراتية التي وفرها الرحالة الألماني 'رولفس'[1].

ج / اخضاع منطقة توات الوسطى بعد سقوط إقليمي تيديكلت وقورارة، أصبح قلب المنطقة (توات الوسطى) محاصراً استراتيجياً، مما جعل إخضاعه هدفاً حتمياً للجيش الفرنسي. وفي 30 جويلية 1900م، دخلت حملة الجنرال سيرفيار (Servière) المكونة من 800 جندي وأربعة مدافع إلى بلدة تيمي (عاصمة الإقليم آنذاك)، والتي اعتبرتها القيادة الاستعمارية المفتاح الحقيقي للسيطرة على توات. [2]

وباعتماد استراتيجية 'فكي الكماشة'، التقت قوات 'سيرفيار' الزاحفة من الغرب مع إمدادات عسكرية قادمة من تيديكلت (300 جندي)، مما أدى إلى تضييق الخناق على القصور الكبرى مثل أسبع، تسابيت، كابرتن، ومراقن. وأمام هذا الضغط العسكري المكثف، تم الإخضاع الكلي للإقليم في 10 فيفري 1901م، لتبدأ بعدها مرحلة التنظيم الإداري والعسكري الفعلي تحت إشراف الجنرال سيرفيار تنفيذاً لتعليمات وزارة الحربية، وهي المرحلة التي مهدت لاحقاً لظهور نظام 'الأقاليم الصحراوية' تحت قياد لابيرين [3].

اخضاع منطقة **الساورة** شهدت سنة 1901م الانطلاقة الفعلية لإخضاع منطقة وادي الساورة تمهيداً لاحتلال دائم وشامل، حيث استهلت القوات الفرنسية عملياتها بتنصيب حاميتي تاوريرت و تاغيت تحت القيادة العليا للعقيد بييه' Billetليتوج ذلك باحتلال بني عباس في 1 مارس 1901م بإشراف الجنرال رسبورغ، الذي أمر بنقل مركز مكتب الشؤون الأهلية إليها من إيغلي.

[1] نفسه .

[2] نفسه .

[3] نفسه .

وفي تحرك استراتيجي لتطويق المنطقة، التقت قوة الشعبة العسكرية لوهران بقوة الجزائر في قصر قصابي يوم 13 أفريل 1901م، مما سمح للجنرال سرفيار بتنصيب الحاميات وإنشاء الدوائر والملحقات، تلاها تعيين الضابط 'لابيرين' قائداً أعلى للواحات الصحراوية [1].

وبحلول جويلية 1902م، استحدث لابيرين النظام لتأمين عمليات التوسع، وصولاً إلى 31 ديسمبر 1902م حين انفصل 'الإقليم الصحراوي' إدارياً عن الشمال. وبالرغم من هذه التنظيمات، واجه الاحتلال صموداً شعبياً مستمراً تمثل في ثورة بوعمامة (1881-1908م) وهجمات قبائل أولاد جرير وبني غيل والبربرية مما دحض مزاعم 'التهدئة' الفرنسية وأكد رفض الأهالي المطلق للوجود الاستعماري [2].

فمع تراجع حدة مقاومة أولاد سيدي الشيخ وانفجار ثورة الشيخ بوعمامة في الجنوب الوهراني، وجدت الإدارة الاستعمارية الذريعة الميدانية للتوغل في العمق الصحراوي . tالقد آمنت فرنسا أن السيطرة على الشمال لا تكتمل إلا بقطع الشرايين الحيوية للمقاومة في الجنوب الغربي، مما جعل من أقاليم تيديكلت وقورارة وتوات وحوض الساورة أهدافاً عسكرية مباشرة. ومن هذا المنطلق، انطلقت سلسلة من البعثات الاستخباراتية والحملات العسكرية التي استهدفت كسر الصمود المحلي وإخضاع الواحات .

ثانيا : السيطرة على الطرق التجارية

لم يكن التوجه الفرنسي نحو الجنوب الغربي وبناء مراكز تجارية وليد الصدفة، بل استند إلى دراسات استكشافية دقيقة كما تم التطرق سابقا بدأت منذ منتصف القرن التاسع عشر؛ أبرزها رحلة المستكشف مثلا 'هنري دوفيرييه' الذي نشر عام 1864م دراسته الشهيرة 'طوارق الشمال'.

فلقد كشفت هذه الدراسة الأهمية الاستراتيجية لأسواق 'القليعة' (المنيعة) باعتبارها حلقة الوصل بين أسواق غدامس بليبيا والشمال الجزائري، كما نبهت الإدارة الاستعمارية إلى عمق سيطرة 'أولاد سيدي الشيخ' الروحية والإدارية على هذه المسالك. هذا 'الوعي الجغرافي' المبكر هو الذي دفع

[1] إبراهيم المياسي ، **الاحتلال الفرنسي لصحراء الجزائر**، المرجع السابق ، ص 494 496 .

[2] نفسه .

الحكومة الفرنسية إلى حشد القوات العسكرية الضخمة والتركيز على تحويل المنيعة إلى نقطة ارتكاز دائمة، تمهيداً لانتزاع السيادة الاقتصادية من القوى المحلية وتوجيهها لخدمة المصالح الفرنسية [1].

فمنذ سنة 1889بدءت فرنسا بإقامة مؤسسات اقتصادية و انشاء مراكز تجارية في كل من توات و تيديكلت و حتى تتمكن من السيطرة عليها لا بد من ربطها بشبكاتها الاقتصادية و ربط مصالحه و مصيرها بالاقتصاد الفرنسي و التبعية للاستعمار الفرنسي بأساليب مدروسة و هيأ للقبول الامر الواقع و عدم رفض التعامل مع الغرباء و المحتلين ، التي نجدها في تكثيف دراساتها لهذا المنطقة و ارسال بعثات مجدها في بعثة فلامون الذي كانت تسعى به الى ربط توات بتمبكتو او السبيل الى نهر النيجر[2].

فكانت تسعى في هذا المشروع الى اهداف تجارية كونها كانت محورا هاما في التجارة القوافل التي حاولت السيطرة عليها و على مسارتها و ان تستفيد منها وتتحكم فيها لصالحها من خلال مد شبكة من المواصلات و ربطها بالسكة الحديدية في الجهة الجنوبية الغربية

ومع انطلاق فرنسا في تجسيد المشرع خط السكة الحديدة منذ 1881م التي تعرضت لمواجهة عنيفة من قبل الطوارق من جهة الاهقار و الطاسيلي التي ابديت عن آخرها [3].

انطلقت في تجسيد المشروع في مرحلته الأولى من جهة أرزيو بوهران الى عين الصفراء ثم جنين بورزق في الفترة الممتدة بين 1879 1892 و أنجزت منه ما يقارب 539 كيلومتر و بقيت لها المرحلة الثانية من جنين بورزق الى توات ثم المرحلة الأخيرة من توات الى تمبكتو ، لكن المشكل الذي واجهها أنداك اندلاع الثورات و العصيان في الجنوب الغربي على غرار مقاومة الشيخ بوعمامة 1881 1883 ، بالإضافة الى لجوء تلك الثورات الى الجهة الجنوبية الغربية كقاعدة خلفية [4].

و يرى الباحث المغربي أحمد عماري أن مشروع احتلال فرنسا للمنطقة الجنوب الغربي بدأ منذ سنة 1848 حينما قررت إقامة امبراطورية لها انطلاقا من مراكزها التجارية في السنغال ، و أن

[1] د. مبخوت بوداوية ، الاهتمام الفرنسي بالجنوب الغربي الجزائري و ظروف احتلاله ، المرجع السابق ، ص 115 .

[2] ابرهيم المياسي ، **الاحتلال الفرنسي للصحراء الجزائرية** ، المرجع السابق ، ص 438 456 .

[3] عبد القادر خليفي ، **المقاومة الشعبية للشيخ بوعمامة** ، ديوان المطبوعات جامعية ، الجزائر 2010 ، ص51 53 .

[4] عبد الكريم طاهيري ، **منطقة توات و اسهاماتها في المقاومة الشعبية بالجزائر** ، المرجع السابق ، ص 155 .

الشركات التجارية الفرنسية مثل شركة التورمادي و شركة السنغال أخذت في نفس السنة تنشط عبر الخط الرابط بين النيجر و توات ، على أساس ان الخطط فرنسا كانت تتجه للربط بين توات و تمبكتو، و بذلك ظهر مشروع احتلال توات ، و بدأ تجسيد المشروع مؤتمر برلين 1884 1885 و سقوط باماكو في 1883 ثم احتلال تمبكتو في 1894 [1].

وتمهيد الطريق لاختراق الأسواق الصحراوية عملت على استغلال لشكاوى القبائل المتضررة من غزو القوافل القادمة من إقليم قورارة؛ حيث لم تكتفِ فرنسا بالرد العسكري، بل أرسلت وفداً دبلوماسياً إلى سلطان المغرب عبد الرحمن بن هشام للضغط عليه وتحييد دور القوى المحلية (مثل الشيخ بن طيب) التي كانت تعطل انسياب التجارة نحو المناطق الخاضعة للسيطرة الفرنسية [2].

فلقد كانت هذه التحركات الدبلوماسية تهدف في جوهرها إلى عزل أقاليم توات وقورارة عن حماية المخزن المغربي[3]، وتحويلها إلى منطقة نفوذ فرنسي خالص تحت غطاء تأمين المسالك التجارية [4]

عمل الاستعمار الفرنسي على توجيه مسار القوافل من جهة الشمالية و ذلك بعض خضوع بلدان السودان الغربي لسيطرته ، فنجده قد عمل على توظيف تجارة القوافل و ربطها بمناطق الجنوب الغربي ، ليتمكن تدريجيا من التحكم في هذه المبادلات و توجيهها بما يخدم مصالحه [5].

وكما تشير بعض أعداد جريدة المبشر لسنة 1900م، في مقال بعنوان "قرار في القوافل إلى قورارة 1900/1899"، إلى أن هذه القوافل كانت تنطلق سنوياً من الجزائر في شهر ديسمبر متجهة نحو توات، محمّلة بمختلف السلع والبضائع قصد مبادلتها بالتمور ومنتجات المنطقة [6].

---

[1] احمد العماري ، المرجع السابق ، ص ص 70 ،71 .

[2] د.مبخوت بوداوية ,**الاهتمام الفرنسي بالجنوب الغربي الجزائري وظروف احتلاله** , المرجع السابق ,ص 19 .

[3] **المخزن** عبارة مختصرة لنظام الدولة في المغرب والممتد طيلة عهد السعديين والعلويين، والذي ترتكز سلطاته بالأساس في شخص السلطان وأجهزته الجهوية والمحلية . عبد الكريم الطاهري و آخرون ، توات في مشروع التوسع الاستعماري الفرنسي بالجزائر خلال القرم 19 م ، المرجع السابق ، ص 519 .

[4] د.مبخوت بوداوية , المرجع السابق ,ص 19 .

[5] عبد الكريم الطاهري ، **منطقة توات و اسهاماتها في المقاومة الشعبية بالجزائر** ، المرجع السابق ، ص 161 .

[6] فرج محمود فرج ، المرجع السابق ، ص ص 119 122 .

كما أوضحت التقارير الفرنسية أن التجار كانوا يحرصون على تحقيق أرباح معتبرة من خلال هذه المبادلات، التي كانت تتم باستخدام الفرنك الفرنسي، وتخضع لتنظيم دقيق من طرف السلطات الاستعمارية، سواء من حيث المسالك أو إجراءات التنقل. فعلى سبيل المثال، كانت القوافل المنطلقة من ناحيتي المشرية وعين الصفراء تمر عبر مكتب المشرية، حيث يتم تسجيل أفرادها واتخاذ التدابير اللازمة قبل السماح لها بمواصلة الرحلة [1].

ونجدها في المقابل عملت على توفير الامن و الحماية للقوافل المارة بهذا الطريق وهذا ما انعكس إيجابا على نشاطها [2].

ونظرا لتأثر النشاط التجاري بين الجهة الشمال والجنوب الغربي بما كان يحدث من توسع استعماري ومقاومة محلية قامت السلطات الاستعمارية بإنشاء سنة 1880 لجنة مختصة لتنظيم وتطوير تجارة القوافل بين مناطق التل وتوات، وأصدرت سنة 1896 مرسوماً يقضي بإعفاء بعض السلع الفرنسية الموجهة نحو الواحات الجنوبية من الضرائب. إضافة إلى ذلك، لعبت الحصون والمراكز العسكرية دوراً مهماً في إعادة بعث هذا النشاط التجاري، وهو ما ساهم في تعزيز العلاقات التجارية بين توات وهذه المناطق

والمناطق التي بسطت فرنسا سيطرتها عليها، حيث شهدت عائدات هذه المبادلات التجارية نمواً متسارعاً خاصة بعد سنة 1886م [3].

ومع مرور الوقت، أخذت القوة الاقتصادية الناعمة لفرنسا تتغلغل تدريجياً داخل قصور الجنوب الغربي، حيث امتد تأثيرها من جهة الغرب نحو قورارة، ومن الشرق نحو عين صالح. كما تحولت المراكز العسكرية الفرنسية إلى فضاءات ذات طابع تجاري، مثل مراكز عين الصفراء وبني ونيف وبشار، التي أصبحت نقاط استقطاب للنشاط التجاري الصحراوي.

وبالتوازي مع ذلك، عملت فرنسا على إنشاء أسواق جديدة لتوجيه حركة التجارة نحوها. ومع تراجع تجارة القوافل في أواخر القرن التاسع عشر، ركزت على ترويج منتجاتها وفرض التعامل النقدي،

---

[1] نفسه .

[2] محمد حوتية ، **توات و الازواد** ، ج1 و المرجع السابق ، ص 149 .

[3] عبد المالك طهيري ، **منطقة توات و اسهاماتها في المقاومة الشعبية بالجزائر** ، المرجع السابق ، ص ص 229 ،230 .

مما أدى إلى انتشار الفرنك الفرنسي في قورارة ليحل تدريجياً محل أنماط التبادل التقليدية كالمقايضة، وكذلك محل العملات المتداولة سابقاً مثل الموزونة والأوقية والريال والسلطاني[1].

ثالثا : بناء المراكز العسكرية

مكن احتلال مدينة الاغواط اواخر سنة 1852 لمرشال راندون Randon الى ان يجعل منها نقطة ارتكاز استراتيجية كونها بوابة الصحراء و املا لاستمالة سكان الصحراء بطريقة سلمية و لكنها واجهت مقاومة في كل انحاء الجنوب الشرقي الى أن سقطت توقرت سنة 1854 وورقاة 1861 ، و املا في المزيد من التوسع أنشات السلطات مراكز عسكرية أخرى بين ورقلة و المنيعة [2]، زحف من خلالها الجنرال قاليفيت على مدينة المنيعة فسقطت سنة 1873 ، مما جعل جماعة عين صالح يرسلون احتجاجات خوفا من تقدم الفرنسيين نحو الجنوب [3].

وكون المنطقة مرتبطة بشرق جهة تيديكلت و قورارة و كبوابة شمالية على القطر التواتي من الجنوب الغربي فقد قامت فرنسا بتشييد حصون عسكرية على مشارفها ، فالبداية كانت **بحصن المنيعة** سنة 1882 الذي تحول لاحقا الى مركز عسكري دائم في عام 1891م[4] التي جعلت منها قاعدة انطلاق ثابتة للسطو على واحات توات وعين صالح، مدعومة بتصريحات سياسية للوزير 'ريبو' الذي نزع عن المنطقة صبغتها المغربية ليعلنها أرضاً فرنسية.

ولتأمين هذا الزحف، شيدت السلطات عام 1893م حصوناً متقدمة كحصن مريبال ومكماهون سنة لتكون نقاط ارتكاز في عمق 'تادمايت' ووادي 'ميقيدن'. فكان حصن ميريبال في حاسي شبابة سنة 1893 على بعد 135 كلم على طريق عين صالح عبر هضبة تادمايت ، و

[1] نفسه ، ص 163 .

[2] عميراوي احمد و آخرون ، **السياسة الفرنسية في صحراء الجزائرية 1844 / 1916** ، المرجع السابق، ص ص 45 47 .

[3] عبد الكريم طاهيري ، **منطقة توات و اسهاماتها في المقاومة الشعبية بالجزائر**، المرجع السابق ، ص 157 .

[4] نواصر عبد الرحمن ، **السياسة الاستعمارية الفرنسية في الجنوب الجزائري ما بين 1873 / 1962 م منطقة المنيعة نموذجا** ، مجلة الروافد للبحوث و الدراسات ، جامعة غرداية الجزائر ، ع1 ، ديسمبر 2016 ، ص 113 .

حصن مكماهون في حاسي عمار على بعد 165 كلم غربا على طريق قورارة عبر وادي مقيدن ، وفي عام 1897 نقلت فرنسا مركز دائرة أقصى الجنوب من غرداية الى المنيعة [1].

اللورد سالزوبوري قائلا بعد ما تم الاتفاق بين فرنسا و الانجليز الذي بموجبه تم اطلاق اليد الفرنسية في الصحراء الكبرى و حوض نهر النيجر مقابل حصول بريطانيا على حث التصرف في حوض نهر النيل " اذ أردنا الاستفادة من هذه الاتفاقية فإن أول شيء يجب فعله هو الاستحواذ على توات دون المزيد من التأخير " .

و لتحقيق ذلك الهدف أشار الى ان الفرنسيين راضون تماما لإنشاء مركز عسكري في المنيعة خاصة ان موقعه استراتيجي حيث يطل على عدة اودية و من خلال مسالكه يمكن المراقبة في اتجاه اوقروت مما يسهل عملية لعين صالح ، فقد كان الإقليم بنسية للفرنسيين و خاصة توات و قورارة و تيديكلت ملجآ للمتمريدين حسي قولهم و مصدرا للاضطراب ضدهم [2].

اما من الناحية شمال و غرب المنطقة فنجد أن كانت البداية منذ النصف الثاني من القرن العشرين و بضبط مع معاهدة لالة مغنية 18 مار 1845 و نهاية مقاومة الأمير عبد القدر ، حيث قاد العقيد جيري عدة حملات عسكرية من الناحية البيض ما بين 1845 1852 التي انتهت بسقوطها و التي حملت اسمه البيض جيري فيل و التي اقام فيها الفرنسيون أول مركز عسكري سنة 1853 [3] ثم زحف الاحتلال الأبيض سيدي الشيخ عام 1895م مما أتاح للفرنسيين إقامة مراكز عسكرية في المنطقة لمراقبة خلف سلسة الاطلس الصحراوي [4].

كما نجد منها مركز **عين بخليل** ، وآخر قرب بالقرب من مشرية ثم تحولت الى دائرة عسكرية بقرار 20 مارس 1882 م قصد حراسة و السيطرة على قصور المنطقة ، بشكل يضمن لها الاستقرار

---

[1] إبراهيم المياسي ، **الاحتلال الفرنسي لصحراء الجزائرية 1837 / 1934** ، المرجع السابق ، ص 457 .

[2] عبد الكريم طاهيري ، **منطقة توات و اسهاماتها في المقاومة الشعبية بالجزائر** ، المرجع السابق ، ص 157 158 .

[3] عبد القادر خليفي ، المرجع السابق ، ص55 .

[4] عبد الكريم الطاهري ، **منطقة توات و اسهاماتها في المقاومة الشعبية بالجزائر** ، المرجع السابق ، ص 158 159 .

خاصة موقها قريب من الحدود المغربية و مدينة فقيق التي كثيرا ما اتخذها الثوار ملجأ للاستقرار و اعداد المؤنة للدعم المادي و العسكري [1].

فقد شرعت السلطات الاستعمارية منذ عام 1884م في تنفيذ مخطط عسكري استهدف تأمين الجنوب الوهراني، حيث رصد مجلس النواب الفرنسي اعتمادات مالية لشق الطرق وبناء الجسور. وبرز دور الجنرال 'دليباك' عام 1885م في تأسيس مركز **'جنان بورزق'** الاستراتيجي لحماية خطوط الاتصال ومراقبة الحدود المغربية، وهو ما تعزز بوصول السكة الحديدية إلى عين الصفراء عام 1887م وبناء حصن المنيعة عام 1888م.

وكانت هذه التحصينات تهدف أساساً إلى شل حركة الشيخ بوعمامة وحلفائه من قبائل أولاد جرير وبني غيل، ومنعهم من تهديد التوسع الفرنسي نحو الواحات و مراقبة المناطق الحدودية و متابعة حركة القوافل و الاتصالات بين جهة عين الصفراء و فقيق و أقصى مناطق الجنوب الغربي [2] فأصبحت الواحات والقصور محاصرة تماماً من الشمال والشرق، ممهدة الطريق لبعثات التغلغل النهائي التي انطلقت مع مطلع القرن العشرين[3] .

فنجد ان التغلغل الفرنسي في الجنوب الغربي الجزائر اعتمد على استراتيجية الحصار، كما تظهره الوثائق التاريخية للمعاصرين مثل 'إدموند مالهير'. التي ارتكزت خطة الاحتلال على تحويل مدينة عين الصفراء إلى قاعدة عمليات مركزية، مع الدفع بالخطوط الأمامية نحو **جنان بورزق** ومقطع الدلم. الذي لم يكن هذا الزحف عشوائياً، بل استهدف الوصول إلى وادي زوزفانة للسيطرة على المسالك المائية والتموينية، وصولاً إلى هدفهم الأسمى وهو إقليم توات عبر تطويقه من جهة إيغلي لعزله تماماً عن ظهيره المغربي [4].

[1] بن قيطون حمزة ، مرجع السابق ، ص 189 .

[2] إبراهيم المياسي ، **الاحتلال الفرنسي لصحراء الجزائرية 1837 / 1934** ، المرجع السابق ، ص 455 .

[3] المرجع نفسه ، ص 456 457 .

[4] Malhes Edmond **, La question du touat des moyens dont la France peut user pour faire pénétrer son influence dans la région des areg** , Ed H.Chrles lavauzelle ,1895 Paris, **p8.**

المبحث الثاني : المقاومة العسكرية

أولا : المقاومة القبيلة

لم يقف سكان الجنوب الغربي وقبائله موقف المتفرج أمام سياسة التي انتهجتها فرنسا؛ بل اندلعت شرارة المقاومة القبلية كفعل إيماني ووجودي للدفاع عن السيادة المحلية. وقد تميزت هذه المقاومة بتلاحم قبلي فريد، تجسد في تحالف قبائل 'أولاد جرير' و'بني غيل' مع حركة الشيخ بوعمامة، التي استطاعت لسنوات شل حركة المشاريع الاستعمارية في الجنوب الوهراني، ومنع استقرار الحاميات العسكرية في مراكز مثل جنان بورزق والمنيعة، مما أجبر الإدارة الفرنسية على مراجعة حساباتها واللجوء إلى القوة العسكرية المفرطة لتثبيت أقدامها .

فنجد الكتابات الفرنسية تثبت أن التغلغل في الجنوب الغربي واجه عقبات بشرية وجغرافية معقدة. ويقر الكاتب مالهير صراحة بأن أي تقدم فرنسي كان مرهوناً بموقف القبائل الكبرى في المنطقة، وعلى رأسها ذوي منيع، وأولاد جرير، وبني غيل. هذا الاعتراف الضمني يوضح أن هذه القبائل لم تكن مجرد مجموعات متنقلة، بل شكلت حائط صدٍ منع القوات الفرنسية من التحرك بحرية نحو الواحات الكبرى، مما أجبر الإدارة الاستعمارية على التردد لسنوات قبل اتخاذ قرار الحسم العسكري[1].

فدارت عدة معارك في إطار المقاومة القبلية التي شهدتها المنطقة منها

1 / معركة الفقيقيرة التي دارت رحاها في قرية الفقيرة شرق قصر إقسطن ، كان قائدها الحاج المهدي باجودة[2] بأول مواجهة شعبية كبرى ضد بعثة 'فلامون' العسكرية. وقد تجسد فيها ذكاء المقاومة القبلية ؛ حيث حاول المقاتلون مباغتة العدو بالاقتراب منه تحت غطاء التفاوض لتعويض النقص الفادح في العتاد . ورغم تفوق القوات الفرنسية في العتاد القتال ، إلا أن قبائل المنطقة من أهل عين صالح وإقسطن واجهوا القوات الفرنسية ، فبعد ما تم اطلاق النار من قبل احد الرجال

[1]Malhes Edmond ,Op , ct , p8.

[2] **الحاج المهدي باجودة** بن الحاج بن باحمو بن اعمر ملوك ولد 1854 بعين صالح تعود جذوره الى عائلة سنسونية بمستغانم و منذ شبابه عرف عنه انه كان مصلحا و رحالة وصل الى تونس و المغرب و ليبيا و بلاد الشنقيط و الحجاز و في اداءه لمناسك الحج يذكر انه التقى مع محمد السنسوني الذي أعطاه الورد و كله ببناء الزواية ينظر إبراهيم المياسي ، الاحتلال الفرنسي لصحراء الجزائر ، المرجع السابق ، ص505 .

المحليين يدعى قوفا حينها بدءت المعركة ، فاستمر القتال من فجر 28 ديسمبر 1899 حتى ساعة العشرة صباحا [1].

أسفر عنها سقوط 50 شهيداً منهم الحاج المهدي باجودة و اخيه بوعمامة وعدادا من أعيان العرب والمرابطين، واعتقال 64 أسيراً من الوجهاء، تبعها فرض غرامة حربية انتقامية بلغت 10 آلاف فرنك لكسر شوكة القبيلة مالياً واجتماعياً [2] .

2 / معركة الدغامشة 5 جانفي 1900 (التي وقعت جنوب عين صالح بـ 4 كلم) نموذجاً للملحمة الشعبية التي انخرطت فيها قبائل إقليمي تيديكلت وتوات أمام القوة العسكرية الفرنسية. بقيادة مولاي عبد الله الرقاني[3] حيث استطاع حشد طابور قوي يضم حوالي 1300 مقاتل و في روايات أخرى تروي 800 مقاتل و جمع السلاح و المؤنة [4]. واجه رجال القبائل القوات الفرنسية (فرقة القناصة الصحراوية والصبايحية) التي كان يقودها الملازم سودانت [5] soudant التي كانت متحصنة بالكثبان الرملية، ورغم أن المقاومين كانوا مكشوفين في العراء ولا يملكون سوى أسلحة تقليدية ، إلا أنهم صمدوا لساعات في قتال ضار [6].

---

[1] عبد الكريم طهيري ، **منطقة توات و اسهاماتها في المقاومة الشعبية بالجزائر** ، المرجع السابق ، ص ص 317 314 .

[2] نفسه .

[3] **الشهيد مولاي عبد الله الرقاني** وُلد سنة 1833م في زاوية الرقاني، حفظ القرآن وتعلّم على يد الشيخ مولاي علي الشريف. عاش فترة في تمبكتو واكتسب شهرة في السودان الغربي، حيث بدأ التحضير للمقاومة بإرسال السلاح سرًا إلى رقان. عند عودته سنة 1885م أسّس دار المكاحلية، وبعد سقوط عين صالح جمع السلاح وحشد نحو 1300 رجل من توات. قادهم إلى قصر البركة، وخاض معركة الدغامشة في 1900 حيث استشهد مع حوالي 150 من رفاقه. ينظر مبارك جعفري ، الشهيد مولاي عبد الله بن مولاي عباس الرقاني قائد مقاومة الدغامشة بعين صالح حياته و جهاده 1833 1900 م ، جامعة احمد دراية ، ادرار ، مجلة المعارف للبحوث و الدراسات التاريخية ، ص ص 146 165

[4] رموم محفوظ ، الاحتلال الفرنسي لاقصى الجنوب الغربي ... ، المرجع السابق ، ص 66.

[5] عبد الكريم طهيري ، **منطقة توات و اسهاماتها في المقاومة الشعبية بالجزائر**، المرجع السابق ، ص 319 .

[6] رموم محفوظ ، **الاحتلال الفرنسي لأقصى الجنوب الغربي و المجابهة العسكرية و الثقافية** ، المرجع السابق ، ص67 .

أسفرت المعركة عن استشهاد ما بين 150 إلى 200 شهيد حسب تضارب المصادر المحلية والفرنسية، وجرح حوالي 200 آخرين، وأسر 14 شخصاً بينهم نجل قاضي عين صالح، مما يوضح حجم الخسائر البشرية التي دفعتها القبائل دفاعاً عن الأرض.[1]

3 / معركة إينغر 19 مارس 1900 تقع غرب عين صالح بنحو 65 كلم ، انقسمت إلى مرحلتين أساسيتين ،فبعد سقوط عين صالح والدغامشة، انسحب المقاومون إلى إينغر التي تحولت إلى حصن أخير لهم حيث هناك قاموا بإعادة تعبئة الشعبية مجددا لإعادة انطلاق المقاومة و منع الزحف الفرنسي هناك .

ففي المرحلة الأولى منها ومع الزحف الفرنسي الى المنطقة بدعم من قائد المنيعة بومقارتن في و ابتداءا من 24 بناير1900 قرر القادة الفرنسيين الزحف على المنطقة مما رفض سكان انغير الخضوع لها و استمر الامر الى غاية 26 من نفس الشهر مما أدى الى تراجع القوات الفرنسية نحو عين صالح في 26 يناير [2].

عاودت فرنسا ارسال حملة بقيادة او Eu ، فعندما عرف السكان باشروا في "تعبئة شاملة"؛ حيث قاموا بترميم الأسوار المتضررة، وحفر الخنادق الدفاعية، وجمع المؤن والذخيرة من "المكاحل" التقليدية، كما استمروا في التعبئة الشعبية المحلية معلنين رفضهم القاطع لكل شروط الاستسلام التي عرضها [3].

انتهت معركة انغير بهزيمة سكانها لكن لم لمحتل الفرنسي يكتفِ ا بالنصر، بل انتقم من القبيلة بضرب نخبها؛ حيث سقط في الميدان قادة كبار وأعيان منهم من أولاد ايعيش و أولاد زنان و غيرهم وانتهت المعركة بفرض سيطرة إدارية قهرية بعد إفراغ المنطقة من قياداتها القبلية المؤثرة [4].

4 / معركة فتايس (المعروفة أيضاً بواقعة فتايس) بعد سقوط قصور عين صالح و اولوف في جهة تيديكلت توجهت انظار الجبش الفرنسي نحو قورارة انطلاقا من مركزها العسكري في المنيعة و

[1] عبد الكريم الطاهري، لمرجع السابق ، ص ص 318 321 .

[2] رموم محفوظ، المرجع السابق ، ص 68 .

[3] نفسه .

[4] عبد الكريم الطاهري ، منطقة توات و اسهاماتها في المقاومة الشعبية بالجزائر ... ، لمرجع السابق ، ص ص 330 331 .

البيض جيفريل فبعدما غادر طابور فرنسي لمنيعة بقيادة العقيد مينيستريل في 27 افريل و 1900 متوجها الى شمال تعنطاس و بعد سقوطها ارسل الفرنسيون للقصور المجاورة الاستسلام ليجتمع الاعيان من قبائل قورارة، وبدعم من القبائل المجاورة، اتخذت من منطقة "فتايس" مركزاً لتجمع طوابير المقاومة [1].

و بقيادة القائد عبد الكريم واجهوا القوات الفرنسية ، حيث قاموا بتحصين مواقعهم مستغلين التضاريس الرملية والصخرية لتعويض النقص في السلاح النوعي أمام القوات الفرنسية بقيادة العقيد منان. أسفرت المعركة على زحف الطابور الفرنسي على القصور منها خنافسة قورارة و أولاد سعيد و حتى الى تيميمون التي سقطت في 22 ماي 1900 وكان لسقوط المنطقة حسي المصادر بسبب ان الفرنسيين تمكنوا من الحصول على معلومات و عن نوايا اهل تيميمون .[2]

5 / معركة المطارفة [3] 29 أوت 1900 ." التي كانت و تداخلت احداث المقاومة فيها بين قصور دلدول و المطارف التي كانت تقع بقرب من الطريق الصحراوي بين توات و قورارة من جهة و بين تداخل قورارة و توات و الحدود من منطقة الغنائمة ووادي الساورة من جهة أخرى [4].

فدارت احداث على ثلاث معارك المعركة الأولى التي بدأت في 29 اوت 1900 بقيادة النقيب (بان pen)التي تعرض فيها الفرنسيون الى هجومات متكررة من قبل المقاومين على القوات الفرنسية رافضين كل لغات التفاوض اما في اليوم التالي دارت معركة الثانية في 31 اوت التي دامت يومين متتالين بقيادة عبد العزيز بن الحاج احمد بين المقاومين بعثة فرنسية تجسسيه التي اسفرت بانسحاب القوات الفرنسية [5].

و في المعركة الثالثة من 4 6 سبتمبر 1900 شن الفرنسيون هجوما مزدوجا بالمدفعية و المشاة على المطارف لكنهم واجهوا مقاومة شرسة أدت الى مقتل القائد جاك و خسائر معتبرة في صفوفهم

---

[1] المرجع نفسه ، ص ص 332 335 .

[2] نفسه .

[3] **المطارف** : قصر تتسمى به بلدية كاملة تنتمي اليها ست قصور أخرى و هي المطارف ساهلة الدغماشة أولاد راشد أولاد علي أولاد محمود افران ، و هي حاليا بلدة فاصلة بين اخر قصور توات الوسطى شمالا و بداية قورارة جنوبا ص 336

[4] رموم محفوظ ، المرجع السابق ، ص71 .

[5] عبد الكريم الطاهري ، المرجع السابق ، ص ص 336 343 .

امام هذا الوضع اضطر فالكونتي الى إيقاف القتال و الانسحاب نحو دلدول و تيميمون ، في هزيمة تعد من ابرز إخفاقات الفرنسيين في المنطقة بعد المعركة تم توقيع معاهدة صلح بين الطرفين في 03 فيفري 1901 بقصر أولاد اشد الى ان في الأخير رفض قائد المقاومة عبد العزيز بن الحاج احمد الخضوع وهو ما أدى الى فشل خضوع الفرنسيين رغم تكرار المحاولات[1] .

6 / معركة تيميمون[2] 10 فيفيري 1901 بعدما التقى الطابورين في الى ادرار التي كان من بين قياداتها عبد القادر بن الحاج بلقاسم [3]، و رغم محاولات سكان تيمي استئناف المقاومة وطلب المساعدة من السلطان المغربي، إلا أن ذلك لم ينجح بسبب تأخر الدعم، لكن استمرت المقاومة وظهرت بقوة في تيميمون يوم 18 فيفري 1901، حيث شنت عدة قبائل هجوماً مفاجئاً على الحامية الفرنسية بمساندة سكان شروين وطلمين، وتمكن بعض المقاومين من اقتحام المركز قبل أن تتراجع القوات أمام الهجوم المضاد الفرنسي[4].

أسفر هجوم تيميمون عن خسائر كبيرة في صفوف الفرنسيين، حيث قُتل 11 جندياً وأصيب 37 آخرون، إضافة إلى مقتل ضباط ووقوع فوضى كبيرة داخل المركز بسبب المفاجأة والهجوم الليلي.

7/ معركة شروين تعتبر معركة شروين[5] امتداداً لأحداث تيميمون، اندلعت معركة شروين يوم28 فيفري 1901 و استمرت المعركة الى يوم التالي ، عندما خرج الجنرال سيرفيار ، لكنه فُوجئ

---

[1] نفسه .

[2] **تيميمون** : تُعد تيميمون عاصمة قورارة وأكبر تجمعاتها السكانية، ويرجع أصل تسميتها إلى جذور زناتية بربرية، حيث تتكون من كلمتي "تين" بمعنى ملك و"ميمون" نسبة إلى رجل صالح يُقال إنه سكن المنطقة وحكمها، ثم اندمج اللفظان مع مرور الزمن ليصبحا "تيميمون". كما تُروى روايات أخرى تربط التسمية بأخوين من منطقة بشار، كان أحدهما يُدعى ميمون واستقر في موضع يسمى "قوبا"، حيث لقي ترحيباً من السكان. ويُذكر أيضاً أن سيدي موسى بن مسعود لعب دوراً مهماً في تأسيس حصون المدينة وسوقها، وساهم في ترسيخ هذه التسمية المرتبطة بسيدي ميمون. ينظر : عبد الكريم الطاهري ، المرجع السابق ، ص 343.

[3] **عبد القادر بن الحاج بلقاسم** : شخصية معروفة و مشهورة في بودة ،الذي كان قائدا عليها و على تمنطيط و حلف سفيان في تلك القصور ، كان له تأثير كبير بدوره ووساطته وحكمته و رجل مال و اعمال ، كما كان يرتبط بالطريقة الطيبية و الكرزازية . ينظر : عبد الكريم الطاهري ، المرجع السابق ، ص 347 .

[4] تفسه .

[5] **شيرون** : تبعد عن مدينة تيميمون عبر مسافة مباشرة بحوالي 60 كلم غربا و لها حدود مباشرة مع قصور غنائمة ووادي الساورة حيث منطقة بني عباس و بشار . ينظر :عبد الكريم طهيري ، المرجع السابق ، ص 348 .

بمقاومة عنيفة عند مدخل القصر، ورغم استعمال المدفعية اضطر الفرنسيون للتراجع ليلاً دون تحقيق تقدم [1].

وفي الأيام التالية تواصلت الاشتباكات والقصف دون نتائج ، مع فشل القوات الفرنسية في تحديد مواقع المقاومين، بينما تكبد الفرنسيون خسائر محدودة وانتهت المواجهة دون حسم. في المواجهة الثانية من معركة شروين 3 مارس 1901، توسعت المقاومة بانضمام سكان شروين وطلمين، ما أدى إلى خسائر كبيرة في صفوفهم واضطرهم للتراجع[2].

وفي اليوم الموالي، وصلت تعزيزات فرنسية لكنها وجدت المقاومين قد انسحبوا، بينما انتهت الأحداث لاحقاً بقصف القصر وفرض شروط على السكان، بعد أن تكبد الفرنسيون خسائر معتبرة تجاوزت العشرات بين قتيل وجريح. كما اشترط الجنرال سرفيال على السكان مقابل الأمان شروطا تعجيزية حقدا عليهم ، كما تم احتلال بعد هذا شيرون يوم 05 مارس 1901 [3].

8 / واقعة طالمين[4] و كان من زعمائها الشيخ محمد الهاشمي و عبد العزيز و احمد مبروك و عبد العزيز عبد القادر بن عبد الكريم بن يدا ، التي بدئت في يوم 9 مارس 1901 بقيادة ربيل الذي كان برفقته سترين من القناصة الصحراويين مسؤولين على لهجوم بالمدفعية من جهة غرب البساتين و القائد ديلوز مع كتيبة الصباحية و نصف كتيبة افريقيا و مفرزة من الصباحية كلفوا بدعم الهجوم من جهة اليمنى .

وبحلول الساعة الخامسة صباحاً انسحب المقاومون إلى داخل القصر، فأمر الجنرال سير فيار بقصفه بـ4 قذائف مدفعية، وفي المساء أُجبرت الجماعة على الاستسلام بشروط نزع السلاح وتفكيك

[1] رموم محفوظ و الاحتلال الفرنسي في الجنوب الغربي ... ، المرجع السابق ، ص 77 .

[2] عبد الكريم طهري ، المرجع السابق ، ص ص 348 351 .

[3] نفسه .

[4] **طلمين** من اكبر قصور قورارة و التسمية زناتية تعني بالعربية النوق أي جمع ناقة ، يعود تأسيسها الى القرن 6 هـ من طرف الشيخ يوسف ، حيث كان قاصدا البقاع المقدسة فوجد مجنوعة من النواق حول البئر يرتوون ، تبعد عن مدينة تيميمون 153 كلم في جهة الشمال الغربي . ينظر عبد الكريم طهيري، المرجع السابق ، ص 353 .

القصبة وتسليم رهائن ودفع غرامة. وبلغت خسائر المقاومة 10 شهداء من بينهم الشيخ محمد الهاشمي، بينما لم تسجل فرنسا أي خسائر وفق مصادرها [1].

ثانيا : دور الزوايا في الجهاد

لعبت الزوايا من جهة أخرى التي هي في منطقة الجنوب الغربي الجزائري دورا محوريا المحافظة على القيم الإسلامية كما كانت لها ادوار اجتماعية واقتصادية مختلفة ساهمت في تماسك وقوة المجتمع فنجدها أخذت على عاتقها مهمة التصدي للاستعمار الفرنسي عسكريا وثقافيا واجتماعيا.

فقد أخذت الطرق الصوفية والزوايا دور المقدمة في تنظيم المقاومة ضد المستعمر الفرنسي في المنطقة ، فقد لجأ إلى الاقليم محمد بن عبد الله خليفة الأمير عبد القادر على تلمسان، وكان قاعدة خلفية الأولاد سيد الشيخ كالسي قدور وسي النعيمي والسي الدين والسي بوشوشة الذين نظموا ثورات ما بين1855م 1974م كما تطرقت اليه في الفصل السابق ، كما حاول السي قدور ابرام تعاون مع ثورة المقراني سنة 1871م لكن فرنسا وقفت عائقا أمام هذا الالتحام بتطبيق سياسة التفرقة بين أولاد سيدي الشيخ كما تم التطرق سابقا [2].

ومما يؤكد الدور الريادي والجهادي للزوايا الصوفية في التاريخ الجزائري، بروز ثورة الشيخ بوعمامة (1881-1908م) كنموذج حي لتحول هذه المؤسسات الروحية إلى قلاع عسكرية وقواعد لإدارة المقاومة الشعبية في أقصى الجنوب الغربي الجزائري. فبعد أن تمكنت فرنسا من إخماد ثورة أولاد سيدي الشيخ الشراقة سنة 1864م وبسط نفوذها في عمق الصحراء، رفع الشيخ محمد بن العربي، المعروف بالشيخ بوعمامة، راية الجهاد مستنداً إلى شرعيته الروحية ومكانته كشيخ زاوية يحظى بولاء قبائل أولاد سيدي الشيخ الغرابة [3].

---

[1] نفسه.

[2] تواتي دحمان مقلاتي عبد الله رموم محفوظ ، **دور أقاليم توات خلال الثورة التحريرية** ، دار الشروق ، ص 09 .

[3] د. محفوظ رموم ، **الاحتلال الفرنسي لأقصى الجنوب الغربي الجزائري و المجابهة العسكرية و الثقافية** ، المرجع السابق ، ص 59 .

إذ وصفه "سوابيه(Soyer) "، القائد العسكري لدائرة البيض، عقب زيارته له في زاوية مقره التحتاني، بأن أحاديثه تعكس سعة أفكار، وملكة سياسية، وطاقة عقلية نادرة لم تعهد عند غيره[1].

وقد تجسد الدور الاستراتيجي للزوايا بوضوح مع انطلاق العمل المسلح في 22 أفريل 1881م بمقتل الملازم الأول الفرنسي "وانيرونز (Wanironze) "في عين الحجل؛ تحولت الزاوية إلى مركز للتعبئة القبلية الشاملة نجح من خلاله الشيخ بوعمامة في توحيد قبائل المنطقة وتجاوز انقساماتها [2].

حيث قام بتأسيس زاويته وشرع في التعليم والتربة وكسب المريدين والأتباع والأنصار والتحريض على الجهاد في سبيل الله ضد المستعمر الفرنسي و الحذر من مخططات الاستعمارية [3].

ومع اشتداد الضغط العسكري الفرنسي، أصبحت الزوايا في عمق الصحراء بمثابة قواعد خلفية آمنة لحفظ استمرارية المقاومة؛ فبعد مغادرته لمنطقة فقيق، اتجه الشيخ بوعمامة نحو أقصى الجنوب ونزل بإقليم تيجورارين، وتحديداً في منطقة جدير الغربي وقصور دلدول سنة 1894م، حيث شكلت هذه المنطقة قاعدة إمداد وتموين، ومكاناً لإعادة تنظيم الصفوف ورصّها [4].

وعندما قصد منطقة دلدول في النهاية وجد الاستضافة من أهلها، ومارس عمله الديني وسعى النشر نفوذه بالجنوب الغربي، وازدادت القبائل الملتفة حوله، وكثرة الجموع وهذا ما أقلق السلطات الاستعمارية التي لم يبق لها إلا السلطان المغربي الذي رفض دعم الشيخ خوفا من فرنسا واستمر الشيخ يحارب الفرنسيين ويهاجم القبائل الموالية لهم فعمل على عرقلة مشاريعهم التوسيعية وتشتيت قوافلهم التجارية[5] ، تجلت في عمليات هجومية نوعية كالهجوم على دورية الكتيبة الصحراوية بالقورارة في سبتمبر 1904م[6].

وعلاوة على ذلك، تكشف هذه الثورة عن شبكة تضامن وتنسيق وثيقة عابرة للأقاليم بين مختلف الطرق الصوفية وزعماء الزوايا؛ إذ كان الشيخ بوعمامة، خلال إقامته بدلدول، على اتصال

[1] نفسه .

[2] إبراهيم المياسي ، **الاحتلال الفرنسي لصحراء الجزائر** ، المرجع السابق ، ص 305

[3] نفسه.

[4] د. محفوظ رموم ، المرجع السابق ، ص60 .

[5] بلعروسي عبد الفتاح، المرجع السابق ، ص 195.

[6] إبراهيم المياسي ، **الاحتلال الفرنسي لصحراء الجزائر** ، المرجع السابق ، ص 305

مستمر بزعماء الطريقة السنوسية في إقليم تيديكلت ، وبخاصة مع شيخ عاصمة الإقليم عين صالح، الحاج المهدي باجودة. وقد لعب هذا الأخير بصفته أحداً أبرز أقطاب مقاومة التوغل الفرنسي في توات، دوراً جوهرياً في مساندة الشيخ بوعمامة، مستغلاً نفوذه الروحي والاجتماعي لحث مختلف القبائل على دعمه مادياً ومعنوياً ومواصلة الجهاد، مما يثبت أن الزوايا شكلت جبهة دفاعية موحدة استعصى على الاحتلال كسرها لسنوات طويلة[1].

وبعد دخول المستعمر إلى منطقة توات فقد كان شيوخ ومريدي الطريقة السنوسية في المقدمة يمثلهم الشيخ الحاج المهدي باجودة شيخ ومقدم الطريقة السنوسية في عين صالح، الذي استشهد مع اخوه بوعمامة في معركة اقسطن يوم 28/12/1899م [2].

وبعد دخولها لعين صالح وانهزامهم في معركة الفقيقرة اخذ مولاي عبد الله الرقابي بن مولاي العباس المبادرة وهو شيخ الزاوية الرقانية، والذي كان يحمل سر الجهاد الذي كان يسميه سر المكاحلية حيث أسس دار المكاحلية بأولف وجهزها بكل ادوات صنع البارود ويعلم فيها المجاهدين من الرماية قام هذا المجاهد بالاتصال بباقي مناطق توات ليمدوه بالمون والسلاح والرجال فلقي الدعم من رقان وسالي وزاوية كنتة والجزمير وتسابيت وغيرها [3].

تقدم مولاي عبد الله الرقابي العين صالح وذلك يوم 01 جانفي 1900م وجمع حبشه بقرية البركة يوم 4 جانفي 1900م وقاد معركة طاحنه يوم 5 جانفي 1900م سقط فيها شهيدا مع 40 شهيدا فأخذ الراية اخوة مولاي مبارك بن مولاي العباس الذي سقط أيضا شهيدا في معركة اينغر في 10 مارس 1900م والتي تبعد على عين صالح 60 كم، وهكذا فإن الزاوية الرقانية اخذت زمام المبادرة في التصدي للتوغل الاستعماري في منطقة الجنوب الغربي [4] .

فنرى من خلال هذا ان شخصية مولاي عبد الله الرقاني برز في المعركة كقائد ديني ، الذي هو خريج زاوية الرقاني وحافظ للقرآن وكان يمد المقاومة بالسلاح سراً قبل أن يعود ويؤسس دار

---

[1] مبارك جعفري ، **مقالات و أبحاث حول تاريخ و تراث منطقة توات** ، دار الكتاب العربي ، ص 239 .

[2] المرجع نفسه .

[3] بلعروسي عبد الفتاح ،المرجع السابق ، ص 272 .

[4] بلعروسي عبد الفتاح ،المرجع السابق ، ص 272 .

المكاحليةفي رقان وأولف. و الذي مثل حلقة الوصل بين العلم والجهاد، واستطاع بفضل مكانته الدينية حشد المقاتلين وجمع السلاح والمؤونة من مختلف الزوايا.

و نلاحظ أيضا من بين العادات الدينية التي كان يقوم بها المجاهدين قبل المعارك مراسيم الشهادة، وهو أن المجاهدين قبل دخول المعركة يتعطروا وتخضبوا بالحناء ويرتدوا أجمل ثيابهم، وهو طقس صوفي يعكس الفلسفة التي غرستها الزوايا في مريديها بأن المعركة مع "الكفار" هي عرس للشهادة ولقاء الخالق، مما جعلهم يندفعون نحو الموت بيقين تام[1].

كما وفرت الزوايا مثل زاوية حينون بأولف وزاوية تيمي الدعم اللوجستي والبشري للمعارك القايئمة في المنطقة ، التي تم فيها الاستشهاد العديد من أبناء هذه الزوايا ومريديها، مما يؤكد أن الزاوية كانت هي المحرك الروحي الذي لا ينفصل عن الفعل الميداني[2].

كما لم تكن معركة الدغامشة مجرد صدام قبلي، بل كانت جهاداً منظماً" تحت إشراف القيادات الصوفية والروحية التي حولت المعركة إلى مشهد عقائدي[3].

وقد قام كذلك الشيخ سيدي احمد البكاي الكنتي بمناورات سياسية من اجل الوقوف في وجه التوسع الاستعماري الفرنسي في المنطقة فقد استعان بـ هنري بارث " لكتابة رسالة إلى السلطات الفرنسية ينبهها فيها عن مخاطر غزو الصحراء الكبرى وبعد اعتلاء لويس نابليون امبراطورا على فرنسا في ديسمبر 1848م قام الشيخ بالاتصال بالسلطات البريطانية وتوطيد الصلة بها لقطع الطريق امام التوسع الفرنسي وقد اعطى الشيخ سيدي احمد البكاي بعدا دوليا خاصة القبيلة كنتة المنتشرة في توات والأزاود مما جعله عاملا مؤثرا وزعيما معترف به لدى الدول الأوربية وخاصة فرنسا وبريطانيا التي بدأت تمد نفوذها على المنطقة [4].

فان هذه القائمة من الثروات و الانتفاضات و التمردات تثبت و تؤكد الدور السياسي الذي كان للطرق السياسية الذي كان للطرق الصوفية في هذ البلاد ، و المكانة التي كانت لها في أوساط

[1] عبد الكريم طهيري ، المرجع السابق ، ص 319 .

[2] نفسه .

[3] نفسه .

[4] نفسه ، ص 273 .

القاعدة الشعبية خاصة في الجنوب و لدى الطبقة الحاكمة ، كما تثبت مدى قدرتها على تغيير الأوضاع [1].

ثالثا : التحالفات ضد التوسع الفرنسي

و كانت البدايات الأولى للتحالفات في منطقة مع ما ترتب عن أوضاع لالة مغنية ، حيث بدأت تظهر التحالفات محلية للقصور منها منطقة توات مع بعضها البعض و مع قبائل و قيادات أخرى خارج المنطقة، ف باعتبار الأوضاع السائدة يمكن تفسير تلك التحالفات على أساس انها كانت ضمانة لعدم تسليم اللاجئين و المطاردين ، و لمنع الغزاة من الوصول لأرضهم بأي حجة [2].

فلجأ سكان المنطقة إلى عقد التحالفات مثل: تحالف الغنائمة مع تامريزت ونادماين بنوات سنة 1870م اثر وصول حملة قامقن إلى وادي كبير، وتخالف دوي منيع والعوابد والبربوشيين 1871م، وبين دوي منيع وزاوية سيد البكري والغنائمة 1877م، وتحالف احمد ولد سي المختار الجديدي من نامست والشيخ يعقوب بن علال من بين سي الحبيب وسي الغنائمة [3].

في 26 أكتوبر 1878م والتحالف بين أهالي يتيمي والبرابر ضد أي خطر سنة 1883م، وتحالف بين المحاميد وبودة سنة 1887م، أي بعد مقتل بالا – والتهديد الذي نتج عن ذلك وغيرها من الأحلاف الكثيرة التي وقعت بين سكان الواحات والقصور والقبائل [4].

و نجد أولاد سيدي الشيخ الشراقة اللذين كونوا صداقات و أحلاف مع عدة قصور في قورارة على غرار جهة تينركوك مع سي قدور بن حمزة وجهة دلدول مع الشيخ بوعمامة ، و اتحاد القصور ذات الارتباط بصف سفيان سنة 1895 ، و تقارب بين الغنائمة و اهل بودة سنة 1898 ، و الاتفاق السلمي بين الطوارق واولاد باحمو جنوب عين صالح سنة 1899 [5].

---

[1] يحي بوعزيز ، **ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر و العشرين** ، المرجع السابق ، ص 358 .

[2] بلعروسي عبد الفتاح ،المرجع السابق ، ص 47 .

[3] بلعروسي عبد الفتاح ، نفسه ، ص 47 .

[4] عبد الكريم طهيري ، المرجع السابق ، ص 337

[5] نفسه .

و مما لمسناه أيضا من اطلاعنا على الرفض الشعبي المحلي للاحتلال الفرنسي منذ أولى المعارك سنة 1900، أن كثيراً من الوقائع والمعارك تحالفت فيها قبائل وقصور المنطقة، رغم خلافاتها السابقة، كما عرفنا أن قصور توات من بودة وتسابيت وتيمي وسالي ورقان قد انضموا وشاركوا إخوانهم في **أولف واينغر** وعين صالح المقاومة، وكان ذلك في معركتي الدغامشة واينغر سنة 1900، حيث سقط الكثير منهم ما بين شهيد أو جريح أو أسير.

ومشاركة أهل بودة وشروين وطلمين وأولاد سعيد في معارك تيميمون وشروين وطلمين 1901، كما أن كثيراً من أولئك المشاركين في تلك المعارك الأولى كانوا من الأثرياء والشخصيات التواتية المرموقة، وبعد انتصار المحتل الفرنسي رأينا كيف أنه استعمل أولئك الأسرى كدروع بشرية وابتز بهم أهلهم وقصورهم، فطالبهم بالخضوع مقابل العفو عنهم [1].

و قد أبانت **معركة الفقيقرة** عن وعي مبكر بضرورة التحالف الإقليمي ضد الأطماع الفرنسية، حيث لم تنفرد قرية واحدة بالمواجهة، بل تشكل حلف دفاعي ضم سكان قصور تيديكلت وشرق عين صالح ، حيث قام الشيخ باجودة باستدعاء اهل القصور المجاورة منها الساهلة، حاسي لحجر ، أولاد يحي ، أولاد دحان ... . وقد ظهر هذا التنسيق في استجابة الأعيان والوجهاء لنداء الاستغاثة واجتماعهم تحت قيادة موحدة لمواجهة التغلغل العسكري. ، وقد شكل النواة الأولى للتحالفات الأكبر التي ستظهر لاحقاً في معارك الدغامشة وتيميمون، حيث أثبت سكان المنطقة منذ هذه المعركة الأولى أن الدفاع عن أي قصر هو دفاع عن وحدة الإقليم بأكمله [2].

كما جسدت **الدغامشة** أقصى درجات "التحالف الاستراتيجي" بين قصور الصحراء، حيث تلاشت الحساسيات المحلية أمام الخطر الوجودي لبعثة "فلامون." و لم تقتصر المقاومة على أهل عين صالح، بل كما تذكر المصادر جاءوا من قصور بعيدة مثل: اقبلي ومن اهل انغير بودة، تسابيت، تيمي، رقان، وأولف. فمثلا نجد رسالة بعث بها الشيخ محمد بن بو زيان بن الحاج البكري الى والده عن الضحايا بعد المعركة 1317 هـ يقول " ... من اهل بلاد تيمي عشر رجال .. " [3].

---

[1] نفسه

[2] نفسه ، ص ص 314 317 .

[3] نفسه 319 .

و يذكر الشيخ محمد باي بلعالم ان اول شهيد ارتقي في المعركة هو ولد احميدة من زاوية حينون باولف[1] كما ورد أيضا شهداء من قصور اقبلي منهم 07 شهداء و اهل اينغير 13 شهيد ومن قصور اولف 19 شهيد [2] .

هذا الزحف الجماعي الذي انطلق من شمال توات وصولاً إلى تيديكلت يثبت وجود تنسيق وتحالف متين بين أعيان ووجهاء هذه الأقاليم. رغم ما تشير إليه الوثائق من وجود "انقسام في الرأي" بين بعض القيادات حول خطة المواجهة (الهجوم الصباحي أو المفاجأة الليلية)، إلا أن الكتلة البشرية ظلت موحدة في الميدان. كما تبرز الوثائق مراسلة الأعيان في مختلف القصور لجمع السلاح والمؤونة، مما يعكس نظام "التحالف اللوجستي" الذي أمن استمرارية المقاومة.

وظهر التحالف أيضاً في مشاركة مختلف الفئات؛ من أعيان القصور إلى قبائل الطوارق الذين كانت تربطهم علاقات سياسية متينة بالقائد باجودة وبالرقاني، مما جعل منطقة توات وتيديكلت كتلة واحدة ضد التغلغل الاستعماري[3].

و نجد هذا أيضا تجسد في **معركة اينغر** حيث ضمت مقاتلين لم يكونوا من أهلها فقط، بل اجتمع فيها الناجون من عين صالح والفقارة والدغامشة والساحلة وحاسي لحجر.كما راسل رجال الممقاومة القصور تيط و اقبلي و رقان و سالي و تيمي و الهبلة و تسابيت و تيميموت [4].

هذا التحالف القبلي جعل من إينغر "المركز الاستراتيجي" الأخير للمقاومة في المنطقة. حاول أعيان إينغر في البداية المناورة بالمراسلات لكسب الوقت، لكن حين أدركوا نية فلامون في الاحتلال الكلي، وجهوا نداءات استغاثة لكل قصور توات. ورغم التفوق العسكري الفرنسي، إلا أن هذا

---

[1] بلعالم محمد باي ، **الرحلة العلية الى منطقة توات** ، ج2 ، المرجع السابق ، ص 315 .

[2] عبد الكريم طهيري ، نفسه ص 321 .

[3] نفسه .

[4] عبد القادر بوباية ، **صفحات من تاريخ الصحراء الجزائرية تيديكلت و الهقار** ، ط2 ، دار المثقف ،باتنة الجزائر ، 2020 ، ص ص 76 79 .

التحالف نجح في تعطيل تقدم الجيش الاستعماري لأيام طويلة، وأثبت أن القبائل كانت تملك شبكة تضامن اجتماعي تتجاوز حدود القصر الواحد[1].

كما تحالفت أيضا الزناتة من شروين وطلمين وبلغازي وأولاد راشد مع عرب المطارفة وتسابيت وغنائمة الساورة وبرابرة تافيلالت في معركة المطارفة 1900م، وتحالفت الزناتة والمحارزة والخنافسة والشعانبة والغنائمة والبرابرة في معركتي تيميمون وشروين 1901م، بل وفي مشهد نادر اجتمع أتباع يحمد وسفيان من شروين وأولاد سعيد وبودة والساورة في معركة شروين 1901م، وهذا ما يعني أن سكان المنطقة كان لهم من الوعي ما يكفي للالتقاء في المصلحة الواحدة ضد العدو المشترك [2].

المبحث الثالث : اخضاع المجال الصحراوي

أولا : نظام الإدارة العسكرية

تعود أسباب إخضاع الجنوب الغربي الجزائري للنظام العسكري ابتداءً من **سنة 1900** إلى جملة من العوامل الداخلية والخارجية، التي فرضت على الإدارة الاستعمارية اعتماد هذا النمط من الحكم. فمن الناحية الداخلية، واجهت فرنسا صعوبات كبيرة في التغلغل داخل المناطق الصحراوية بفعل طبيعتها الجغرافية، مما جعل النظام العسكري الخيار الأنسب لإحكام السيطرة. كما تخوفت من إمكانية تقديم المناطق الصحراوية دعمًا للمقاومات المسلحة، خاصة في ظل استمرار الثورات في بعض الجهات، الأمر الذي دفعها إلى فرض رقابة دائمة من خلال إقامة حاميات عسكرية[3].

كما سعت فرنسا إلى تقليل تكاليف الاحتلال من خلال الاعتماد على الموارد المحلية منها الضرائب في تمويل المصالح المدنية، مقابل تكفل الدولة الفرنسية بالنفقات العسكرية حيث عملت على استغلال موارد الواحات وإخضاعها لرقابة مباشرة، من خلال تكثيف المراكز العسكرية في مناطق الإنتاج، بما يضمن التحكم في السكان وتوجيه الموارد لخدمة المشروع الاستعماري[4].

---

[1] نفسه ، ص 322 .

[2] نفسه.

[3] عبد القادر المرجاني ، المرجع السابق ، ص260 .

[4] محمد برشان ، **التنظيم الاداري الاستعماري في الجنوب الجزائري 1902 /1960** ، المرجع النفسه،ص181 .

أما على الصعيد الخارجي، فقد ارتبط هذا التوجه بالسياق الدولي المتميز بالتنافس الاستعماري بين القوى الأوروبية، حيث سعت فرنسا إلى تأمين مناطق نفوذها في الصحراء وربط مستعمراتها الإفريقية ببعضها، تحسبًا لأي تدخل أجنبي، خاصة من قبل بريطانيا، وهو ما جعل الوجود العسكري ضرورة استراتيجية لضمان السيطرة على المجال الصحراوي[1].

فقد أدركت السلطات الاستعمارية مبكراً أن طبيعة الجنوب وجغرافيته الوعرة تُصعّب من عملية التغلغل العسكري التقليدي، ومن ثمّ أضحى النظام العسكري في منظورها هو النموذج والأنسب للتسريع من عمليات التوسع. ولم يكن هذا الخيار إدارياً فحسب، بل كان إستراتيجية تهدف إلى قطع التواصل بين الشمال والجنوب، ومنع وصول الإمدادات المادية والبشرية للمقاومات الصحراوية، خاصة وأن التجربة التاريخية أثبتت قوة الارتباط بين سكان القطر الجزائري شمالاً وجنوباً[2].

فسرعت الى عملية احتلال الصحراء الجزائرية وإخضاعها للنظام العسكري توجسا من اعتبارها منطقة خالية، وهو ما أشار إليه المارشال سولت في التقرير الذي قدمه سنة 1845 إلى الملك لويس فليب يقول فيه (.. يجب أن تُؤلف الصحراء الجزائرية أو بعبارة أخرى المناطق الواقعة بعد التلال صنفا ثالثا من الجهات الإدارية، ففي هذه الجهات لا أثر فيها للمعمرين ولا توطؤها الجيوش إلا عرضا لقمع الفوضى أو لإعداد ظروف ملائمة لإقامة العلاقات التجارية أو توسيعها وهي مناطق تفتح المجال لطرق هامة في الحركة التجارية المؤمنة) [3].

وقد تمثلت ملامح الإدارة العسكرية الفرنسية في الجنوب الغربي **بعد عام 1900** في الانتقال من مرحلة الغزو إلى مرحلة التنظيم الهيكلي؛ حيث أصدر الوالي العام لافريار قراراً بإنشاء ملحقات للشؤون الأهلية لضمان استقرار الاحتلال.

وقد تميز هذا النظام بصبغة عسكرية صارمة، حيث اشترط القرار إسناد إدارة هذه الملحقات لضباط متخصصين برتبة نقيب ونائب برتبة ملازم أول، مع تدعيمهم بجهاز إداري يضم مترجمين

---

[1] نفسه .

[2] إبراهيم المياسي ، **التوسع الاستعماري في الجنوب الغربي** ، المرجع السابق ، ص 77 .

[3] اندري نوتشي و آخرون ، **الجزائريين بين الماضي و الحاضر** ، تر رابح اسطمبولي و منصف عاشور ، الجزائر ، الديوان المطبوعات الجامعية ، 1984 م ،ص385.

وكتّاباً وخوجات. وتجسد هذا النظام ميدانياً بتعيين النقيب 'دو سوسبيال' De Susbielleعلى رأس ملحقة عين صالح، والنقيب 'نوشاز' Nochez على ملحقة إيغلي، والنقيب 'بان' على منطقة ورقلة، مما جعل السلطة العسكرية هي المرجع الوحيد لتسيير المنطقة [1].

و في إطار تكريس النظام العسكري بالجنوب الغربي الجزائري، جاء القرار الوزاري الصادر في 1 سبتمبر 1902، تنفيذًا لقانون 30 مارس ومرسوم 1 أبريل من نفس السنة، ليُعيد تنظيم الوضع العسكري الذي كان قائمًا منذ سنة **1901**، خاصة على مستوى الواحات الصحراوية.

و كان تجسيد هذا التنظيم في إقامة هيكلة عسكرية دقيقة، تمركزت في ثلاث نقاط استراتيجية رئيسية هي: تيميمون بمنطقة قورارة، وأدرار بتوات، وعين صالح بتيديكلت، بما يعكس حرص الإدارة الاستعمارية على إحكام السيطرة على أهم المراكز الحيوية في الصحراء [2].

وقد ضم هذا التنظيم مختلف الوحدات العسكرية والإدارية، حيث شمل "**مصلحة الشؤون الأهلية**" التي أوكلت إليها مهمة مراقبة السكان المحليين، إلى جانب مفارز من **السباهي والمهاريست**، ووحدات من الرماة الجزائريين والصحراويين، بالإضافة إلى المدفعية والمصالح المرافقة كالصحة والتلغراف. وقد وُضعت جميع هذه التشكيلات تحت القيادة المباشرة **للقائد** الأعلى للمناطق الصحراوية، مما يعكس الطابع المركزي والصرامة العسكرية التي ميزت هذا النظام[3].

ويُظهر هذا التنظيم أن الوجود الفرنسي لم يعد مجرد احتلال عسكري ظرفي، بل تحول إلى احتلال مؤسساتي قائم على المراقبة الدائمة والتحكم الإداري، حيث تم تحويل الواحات إلى مراكز عسكرية ثابتة تؤطر الحياة اليومية للسكان. كما عززت فرنسا هذا النظام بوسائل تقنية حديثة، من بينها ربط منطقة قورارة بالمنيعة ثم بالجزائر العاصمة عبر **خط تلغرافي**، الأمر الذي مكّنها من تسريع نقل المعلومات والأوامر، والقضاء على العزلة الجغرافية التي كانت تحمي هذه المناطق، مما ساهم بشكل فعال في إحكام السيطرة على المجال الصحراوي[4].

---

[1] إبراهيم المياسي ، **الاحتلال الفرنسي لصحراء الجزائر** ، المرجع السابق ، ص 478 .

[2] Champeaux Guillaume ,**A Travers les oasis saharienne les spahis sahariennes**, ed R.chapelot, paris 1903,p 67.

[3] Champeaux Guillaume, Op , cit , t , p 68 .

[4]Ibid ,t, P 69

الذي ارفق هذ النظام بسياسة استمالة الزعماء الذين ينتمون الى طبقة النبلاء لمساعدة الحكام العسكريين و المدنيين التي نجدها في زعماء اولاد سيدي الشيخ كونهم كانت تمثل القاعدة السياسية المحلية في تلك المنطقة و كما جاء على حد تعبير شارل روبير " وكان لابد من مرور الزمن كي تجعل اتباعها المشاغبين ، ولاسيما اتباعها في مقاطعتي قسنطينة و جنوب وهران ، يسلمون بانهم لم يصبحوا سوى موظفين قابلين للعزل [1].

وهو نفس الدور الذي لعبه الباشا اغا محمد بن ميلود المعروف ب سي مولاي شيخ الطريقة اليوسفية في منطقة عين الصفراء و كان قد تقلد مناصب عديدة ففي 27 سبتمبر 1898 عين كقائد القادة قايد القياد و في 03 فيفري 1900 تمت ترقيته الى اغا ، ثم خلفه ابنه في المنصب الى غاية اندلا ع الثورة التحريرية [2].

ومن ثم يمكن القول بان التنظيم الاداري بإقليم الجنوب مثلا ثالثا خاصا بها ، فهو يختلف عن التنظيم الاداري المدني الذي طبق في الشمال الجزائر ، و عن نظام الحماية الذي فرضه الاستعمار بدول الجوار تونس و الغرب حيث يجسد النظام العسكري في الجنوب الجزائري الادارة المزدوجة و المكونة من ادارة فرنسية و الادارة الاهلية ، فالإدارة المحلية في الجنوب كانت تجمع بين السلطة العسكرة و الوظائف القضائية و الصلاحيات الإدارية [3].

ثانيا : إعادة تنظيم القبائل

حاولت السلطة الاستعمارية في البداية الحفاظ على اطار المجتمع القبلي من خلال استمالة رجال القبائل و شيوخها ووضعهم في خدمتها ، مع إذكاء الصراعات القبلية و تفاقمها بشكل يسهل عملية مراقبتها، خصوصا و ان غالبية القبائل الكبرى في المنطقة الصحراوية كانت فروعها موزعة بين

[1] نفسه .

[2] محمد برشان ، سي عبد القادر سباعي ، **انعكاسات السياسية الاجتماعية الكولونية على سكان الصحراء الجزائرية** ، مجلة متون ، مج 11 ، ع 4 ، ص 24 .

[3] محمد برشان ، **التنظيم الاداري الاستعماري في الجنوب الجزائري 1902 /1960** ، المرجع السابق ، ص187.

حدود الجزائرية ، فبتالي إبقاء أي فرع للقبيلة خارج نطاق السيطرة الفرنسية يعد تهديدا لها ، كونها تعتبر المنطقة معقلا لدعم المقاومة [1].

و في إطار سعيها لكسر شوكة المقاومة المحلية، عمدت الإدارة الفرنسية إلى إعادة تنظيم القبائل في الجنوب الغربي عبر تجريد الزعامات التقليدية من استقلاليتها. قد نصت القرارات الإدارية الجديدة البند الثالث من قرار لافريار على أن 'القياد الجزائريين' المسؤولين عن الإدارة المحلية وشؤون الأهالي يتم تعيينهم مباشرة من طرف رئيس الملحقة الفرنسي. ويهدف هذا الإجراء إلى خلق طبقة من القيادات المحلية التابعة إدارياً وعسكرياً للاحتلال، مما سمح لفرنسا بمراقبة تحركات القبائل، وضمان ولائها، وتفكيك الروابط التقليدية التي كانت تجمع السكان بالسلطات الروحية أو السياسية السابقة [2].

وحسب المصادر الفرنسية في إطار سياسة إعادة تنظيم القبائل، اعتمدت الإدارة الاستعمارية الفرنسية على توظيف العناصر المحلية ضمن ما عُرف بنظام ''المخزن(Le Maghzen) ''، وهو تشكيل عسكري يتكون من فرسان يُجندون من أبناء المنطقة ويُعسكرون، دون أن يكونوا مرتبطين بعقد رسمي دائم. وقد هدف هذا النظام إلى استغلال المعارف المحلية للسكان في خدمة المشروع الاستعماري، خاصة من خلال اختيار عناصر من نفس المناطق لضمان فعاليتهم في التكيف مع البيئة الصحراوية ومسالكها [3].

كما تم إنشاء وحدات ''الكتائب الصحراوية (Compagnies sahariennes)، التي تشكلت بشكل شبه كلي من سكان الأهالي، وهو ما يعكس توجه فرنسا نحو عسكرة المجتمع المحلي بدل الاعتماد الكلي على القوات القادمة من الشمال. وقد سمح هذا الاختيار بإضعاف التماسك القبلي، من خلال إدماج بعض أفراد القبائل داخل الجهاز العسكري الاستعماري، مما جعلهم أداة داخل منظومة السيطرة بدل أن يكونوا طرفًا مقاومًا [4].

حيث شكلت القبيلة بنسبة للاستعمار نموذجا أساسيا في تحقيق التوازنات الداخلية لذلك لم يعمل على اضعاف بنيتها و تركيبتها ، في مقابل وظف التناقضات القبلية كلما كان ذلك في صالحه

[1] المرجع نفسه ، ص 23 .

[2] إبراهيم المياسي ، **الاحتلال الفرنسي لصحراء الجزائر** ، المرجع السابق ، ص 479 .

[3] Champeaux Guillaume , Op , cit , t , P67.

[4] Ibid , t , P67.

عبر ما يسمى **بالكتائب الصحراوية** او **المخزن** الذي تكونت هذه المؤسسة من مجندي قبائل متعاونة مع السلطات الاستعمارية و كانت مقسمة الى وحدتين وحدة المشاة ووحدة الخيالة و الفرسان استغلها القادة العسكريون في ملاحقة رجال المقاومة ، و كانت أول كتيبة صحراوية قد أشئت بإقليم توات سنة 1902 [1].

ولم يقتصر هذا التوظيف على الجانب العسكري فقط، بل شمل أيضًا الجانب الاستخباراتي، حيث اعتمدت فرنسا على "مراسلين من الأهالي" كانوا يقومون بنقل الرسائل بين المراكز الاستعمارية، مثل تيميمون وأدرار وبني عباس، كما أُدرجت مهامهم ضمن مصالح الاستعلامات، لما كانوا يوفرونه من معلومات دقيقة حول تحركات السكان والقبائل. وبذلك، ساهم هذا النظام في اختراق البنية الاجتماعية للقبائل وتحويلها إلى عنصر فاعل داخل جهاز المراقبة الاستعماري [2].

ومع تحول الحدود العسكرية إلى حدود إدارية (1882)، كانت هذه الملحقات مجرد نقاط رد فعل على انتفاضة بوعمامة، لكن بحلول عام 1902 ، أصبحت هذه النقاط هي "الحدود الرسمية" التي تفصل الجنوب الغربي عن بقية الأقاليم، مما أدى إلى تقطيع أوصال التضامن القبلي الذي كان قائماً قبل 1882 [3].

و هنا يظهر كيف أُعيد تنظيم القبائل اقتصادياً من خلال الإبقاء على "الضرائب العربية" في الجنوب الغربي كان وسيلة لـ "الضغط المادي" على القبائل والزوايا. فبدلاً من أن تكون القبيلة وحدة اجتماعية مستقلة، حوّلها التنظيم الإداري الجديد إلى "وعاء ضريبي". هذا النوع من الإخضاع المالي لا يقل خطورة عن الإخضاع العسكري، لأنه استهدف إضعاف القدرة المالية للقبائل التي كانت تمول المقاومة[4].

فقد سعت السلطات الاستعمارية إلى تفكيك البنية الاجتماعية والسياسية للقبائل في الجنوب الغربي وإعادة صياغتها بما يخدم أهدافها. فمن الناحية الاقتصادية، اعتمدت فرنسا سياسة الاستنزاف

[1] محمد برشان ، **التنظيم الاداري الاستعماري في الجنوب الجزائري 1902/ 1960** ، المرجع السابق ، ص 25 .

[2] Champeaux Guillaume , Op , cit , t , P68 .

[3] Ibid , t , P69.

[4] محمد برشان ، **التنظيم الاداري الاستعماري في الجنوب الجزائري 1902 / 1960**، المرجع السابق ، ص 182 .

المالي عبر قانون 30 ديسمبر 1903 الذي جعل للجنوب ميزانية خاصة تعتمد على الموارد والضرائب المحلية، حيث تم الإبقاء على 'الضرائب العربية' لإضعاف القبائل مادياً [1] .

ورافق ذلك ميدانياً سياسة 'الاختراق من الداخل' عبر إنشاء وحدات 'المخزن' والمهاريست المكونة حصرياً من الأهالي لضرب التماسك القبلي. ولتثبيت هذا النظام، انتهج الاستعمار أساليب قاسية شملت تفكيك البنية الاقتصادية للريف وإحداث مجاعات مصطنعة، مما أجبر القبائل على الخضوع للنظام الجديد بعد فقدان قياداتها المقاومة وتدمير تماسكها الاجتماعي[2].

ثالثا : فرض حدود استعمارية

ومن جهة أخرى بالإضافة الى ما سيق عملت فرنسا على رسم حدود إدارية جديدة في الجنوب الغربي تهدف إلى تمزيق الوحدة الجغرافية للمنطقة وربطها بالمراكز العسكرية في الشمال. وبموجب التوجيهات الجديدة، تم تقسيم الإقليم إلى مناطق نفوذ تتبع النواحي العسكرية الكبرى. [3]

فأُلحقت منطقة 'توات' إدارياً بناحية الجزائر، بينما وُضعت منطقتا 'زوزفانة والساورة' تحت سلطة الناحية الوهرانية. وقد كُلف الجنرالات في هاتين الناحيتين بتنفيذ هذه التقسيمات ميدانياً، مما مهد لظهور 'الحدود الاستعمارية' التي عزلت الواحات الصحراوية عن بعضها البعض، وفرضت واقعاً جغرافياً جديداً يخدم الأهداف التوسعية الفرنسية بانتظار التقنين النهائي لهذه الأقاليم .[4]

فارتبط فرض الحدود الاستعمارية في الجنوب الغربي الجزائري بجملة من القوانين والتنظيمات التي أقرتها الإدارة الفرنسية، خاصة قانون 30 مارس ومرسوم 1 أبريل 1902، والتي أسست لإطار إداري وحدودي جديد يهدف إلى دمج المناطق الصحراوية ضمن الأقاليم العسكرية الفرنسية. وقد تجلى هذا

[1] عبد القادر مرجاني ، المرجع السابق ، ص 269 .

[2] عبد القادر مرجاني ، المرجع السابق ، ص 269 .

[3] إبراهيم المياسي ، **الاحتلال الفرنسي لصحراء الجزائر** ، المرجع السابق ، ص 479 .

[4] نفسه.

التوجه في إعادة تنظيم المجال الصحراوي بشكل يخدم السيطرة الاستعمارية، من خلال إلحاقه تدريجيًا بالبنية الإدارية الفرنسية [1].

وعلى الصعيد الميداني، اعتمدت فرنسا على فيلق ''السباهي الصحراوي'' الذي كان يتميز بعدم الاستقرار المكاني، حيث تم تكليفه بدوريات شملت مساحات واسعة مثل العرق الكبير، ووادي الساورة، وهضبة المويدير. وقد ساهم هذا الانتشار العسكري المستمر في فرض رقابة دائمة على المجال الصحراوي، ومنع حرية تنقل القبائل التقليدية، مما أدى عمليًا إلى خلق حدود نفوذ عسكرية غير مرئية تفصل بين المناطق وتحد من التواصل بينها [2].

كما تم دعم هذا التوجه بإعادة التبعية الإدارية للواحات الصحراوية، حيث ألحقت هذه الأخيرة بعمالة وهران بموجب مرسوم 23 جوان 1902، إضافة إلى تحديد مسارات رسمية إجبارية للتنقل والبريد، مثل محور تيميمون – بني عباس ومحور عين صالح – أدرار – بني عباس عبر وادي الساورة. وقد أُعيد كذلك رسم الخريطة الإدارية من خلال إلحاق بعض المناطق بعمالات مختلفة، في إطار مشروع ''الأقاليم العسكرية الجنوبية''، بما سمح بخلق شبكة طرق ومحاور مراقبة خاضعة كليًا للسلطة الاستعمارية [3].

ويُظهر هذا التنظيم أن فرض الحدود لم يكن مجرد عملية جغرافية، بل كان أداة استعمارية لإعادة تشكيل المجال الصحراوي، من خلال تقطيعه إداريًا وميدانيًا، وعزل مكوناته التقليدية، وتحويل أي حركة خارج المسارات الرسمية إلى نشاط خارج عن القانون الاستعماري [4].

فقد شكلت القوانين الصادرة سنة 1902 منعطفًا حاسمًا في عملية ترسيم الحدود الاستعمارية بالجنوب الغربي الجزائري، حيث انتقلت فرنسا من مرحلة الترسيم العسكري بالمدافع إلى مرحلة الترسيم القانوني، من خلال إقرار وضعية الصحراء كمجال خاضع للسيادة الفرنسية. وقد اعتُبرت هذه المناطق

[1] Champeaux Guillaume , Op , cit , t ,68.
[2] Ibid ,t, p
[3] Ibid , t , P69.
[4] Ibid , t , P67.

جزءًا لا يتجزأ من الجزائر الفرنسية، دون أن يتم إنشاء كيان سياسي مستقل، بل جرى إدماجها إداريًا ضمن النظام الاستعماري القائم [1].

وقد هدفت هذه الإجراءات إلى تكريس السيطرة القانونية على المجال الصحراوي، ومنع أي إمكانية لقيام سيادة خارجية أو مستقلة، من خلال الجمع بين الإطار القانوني والوجود العسكري. وفي هذا السياق، تم تفعيل الدوريات العسكرية، خاصة فيلق ''السباهي الصحراوي''، في مناطق استراتيجية مثل وادي الساورة، والعرق الكبير، وهضبة المويدير، بما يضمن مراقبة دائمة للمجال[2].

كما سعت الإدارة الاستعمارية إلى توظيف الخصائص الجغرافية في خدمة هذا الترسيم، من خلال اعتبار بعض الأودية، وعلى رأسها وادي الساورة، حدودًا طبيعية فاصلة، بما يؤدي إلى عزل الجنوب الغربي عن امتداده الجغرافي التقليدي، وقطع صلته بالمجالات المقاومة في الشمال، وتحويله إلى فضاء محاصر إداريًا وقانونيًا يخضع للرقابة الاستعمارية المباشرة [3].

و بهذا اعطى قانون 24 ديسمبر 1902 المتعلق بتنظيم الاقاليم الجنوب الجزائر استقلالية مالية و ادارية للأقاليم الجنوب ، وجاء ليكرس بداية فكرة فصل الجنوب الجزائر عن شمالها [4] .فلم يكن التواجد العسكري الفرنسي في الجنوب الغربي مجرد احتلال عابر، بل تحول منذ عام 1902 إلى هيكل إداري مؤسساتي يستند إلى ترسانة قانونية، بدأت بـ قانون 14 أوت 1902 الذي حدد الوضع القانوني العسكري للمناطق الجنوبية، ثم قانون 04 أوت 1904 الذي ضبط إدارتها [5] .

وقد تجسد هذا النظام ميدانياً من خلال تقسيم الإقليم إلى ملحقات ومراكز عسكرية يقودها ضباط، مثل ملحقة توات (تيميمون) التابعة لإقليم العين الصفراء. هذا التنظيم لم يكتفِ بنشر القوات (رماة، سباهي، ومدفعية)، بل اعتمد على 'سرعة المعلومة' عبر ربط مراكز مثل تيميمون بالجزائر

[1] Ibid , t , P68.

[2] محمد برشان ، **التنظيم الاداري الاستعماري في الجنوب الجزائري 1902 / 1960**، المرجع السابق ، ص 182 .

[3] نفسه

[4] عبد القادر مرجاني ، المرجع السابق ، ص 286 .

[5] نفسه ، ص 270 .

العاصمة بخطوط التلغراف، مما سمح بمركزية القرار تحت سلطة 'القائد الأعلى للواحات الصحراوية'، وهو ما جعل الإدارة العسكرية أداة طيعة في يد الوالي العام لفرض السيطرة المطلقة [1].

خاتمة الفصل :

تميزت طبيعة السياسة الاستعمارية في مرحلة الاحتلال العسكري بفرض السيطرة بالقوة وإخضاع المجال الصحراوي لمصالحها الاستراتيجية والاقتصادية. فرغم المقاومة التي أبدتها القبائل والزوايا ضد التوسع الفرنسي، تمكنت فرنسا من احتلال الواحات والسيطرة على الطرق التجارية وإنشاء مراكز عسكرية لتثبيت وجودها في المنطقة. كما عملت الإدارة الاستعمارية على إعادة تنظيم الجنوب وفق نظام عسكري وإداري جديد بهدف إحكام الرقابة على السكان والمجال الصحراوي. وقد مهدت هذه التطورات لظهور تحولات عميقة مست مختلف الجوانب .

[1] نفسه ، ص 270 .

الفصل الرابع

نتائج التغلغل الاستعماري

المبحث الأول : التحولات السياسية

المبحث الثاني : التحولات الاقتصادية

المبحث الثالث : التحولات الاجتماعية و الثقافية

الفصل الرابع : نتائج التغلغل الاستعماري

تمهيد :

نجد ان التغلغل الاستعماري الفرنسي في الجنوب الجزائري قد أفرز مجموعة من التحولات التي مست مختلف جوانب الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية. فمن خلال هذا تطرقت في هذا الفصل الى النتائج السياسية التي أدت إلى إضعاف السلطة التقليدية وإحلال الإدارة العسكرية محلها ،كما عالجت النتائج الاقتصادية التي تأثرت التجارة الصحراوية نتيجة السيطرة الفرنسية على الطرق التجارية وربط الجنوب بالاقتصاد الاستعماري.

بالضافة الى البنية الاجتماعية والثقافية للمجتمع الصحراوي الذي شهد تغيرات مست البنية القبليةو الزوايا الدينية، في إطار سياسة استعمارية هدفت إلى إدماج الصحراء ضمن المشروع الاستعماري الفرنسي.

المبحث الأول : التحولات السياسية

اولا: تفكيك السلطة التقليدية

قامت السلطة السياسية في الجنوب الغربي الجزائري قبل التوغل الاستعماري، على نظام يستمد شرعيته من الأعراف القبلية والسلطة الروحية. فقد كانت القيادة متمثلة في شيوخ القبائل ومجالس الأعيان (الجماعة)، كانت سلطة تنفيذية وقضائية كاملة السيادة، تدير شؤون الحرب والسلم، وتنظم الموارد، وتفصل في الخصومات وفق الأعراف المحلية والشريعة الإسلامية، بعيداً عن أي تدخل أجنبي. إلا أن الاصطدام بقوة الاستعمار الفرنسي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر احداث تفكيك في هذا الهيكل السياسي.

فلم تتعامل السلطة الاستعمارية مع النظام القبلي في الجنوب الغربي بنفس الحدة التي اعتمدتها في الشمال؛ بل انتهجت استراتيجية الحفاظ على الطابع القبلي في المنطقة كأداة لضمان السلم الاجتماعي في مرحلة التغلغل الأولى. فقد أدرك المنظرون الفرنسيون أن الحفاظ على هيكل القبيلة في

الأقاليم الصحراوية والحدودية، ليس هدفاً لذاته، وإنما هو وسيلة لمحاصرة أي جيوب مقاومة قد تتشكل خلف الحدود[1].

وبدلاً من تدمير القبيلة، سعت فرنسا إلى تحويلها من معقل للمقاومة إلى إطار للمراقبة فاستغلت التناقضات البينية والعداوات التاريخية بين الفروع القبلية ، حيث أضحت معرفة ثارات القبائل وأنسابها وسيلة لإحكام القبضة عليها، وضمان عدم اتحادها تحت راية واحدة [2].

ومن **الناحية الاقتصادية**، اعتمدت فرنسا في اطار سياستها لتفكيك السلطة تقليدية الى جعل للجنوب ميزانية خاصة تعتمد على الموارد والضرائب المحلية، التي تم من خلاله الإبقاء على 'الضرائب العربية' لإضعاف القبائل مادياً عبر قانون الذي صدر في 30 ديسمبر 1903.[3]

ورافق ذلك ميدانياً سياسة الاختراق من الداخل عبر إنشاء **وحدات المخزن** و**المهاريست** المكونة حصرياً من الأهالي لضرب التماسك القبلي. ولتثبيت هذا النظام، **تفكيك البنية الاقتصادية** للريف وإحداث مجاعات مصطنعة، مما أجبر القبائل على الخضوع للنظام الجديد بعد فقدان قياداتها المقاومة وتدمير تماسكها الاجتماعي[4].

وكما تم التطرق سابقا في سياستها في التحالف مع القيادات المحلية, و أيضا من خلال سياسة فرق تسد التي تعد من السياسات التي طبقتها فرنسا بصرامة في الجزائر ، بهدف احكام السيطرة على الشعوب من خلال إذكاء روح العداوة و الفتنة بين مكونات القبيلة ، ومن أجل كسب ولاء العائلات و القبائل الكبرى ،عمدت الى اغداق المال و الجاه و منح الوظائف و الاوسمة لبعض الشخصيات المؤثرة ، مما أدى الى بروز تنافس على السلطة بين العائلات المحلية الكبرى مثل عائلتي أولاد سيدي الشيخ بفرعيهم الغرابة و الشراقة.[5]

---

[1] محمد برشان و آخرون ، **انعكاسات السياسية الاجتماعية الكولونية على سكان الصحراء الجزائرية** ، المرجع السابق ، ص ص 24 .

[2] نفسه .

[3] عبد القادر مرجاني ، المرجع السابق ، 269 .

[4] نفسه .

[5] أ.د/رضوان شافو ، المرجع السابق ، ص ص65، 66 .

فالنزاع الذي نجده عند عائلة أولاد سيدي الشيخ .فإن هذا النزاع ساهم بشكل مباشر في تمزيق روابط هذه السلطة التقليدية والتمكين للاستعمار الفرنسي بالجنوب الجزائري[1] و كذا النزاع الذي حدث بمنطقة عمورة عندما وقع صراع بين الدين بن يحي و ابن أخيه النعيمي بن جلول على السلطة مما تسبب في حدوث اضطرابات بالمنطقة مما استدعى تدخل السلطة الاستعمارية لحله بما يخدم مشروعها حيث اعتبرت تلك التصرفات تهديدا للأمن، وحل الاشكال بوضع النعيمي بن جلول في الإقامة الجبرية [2].

كما نجد بعضها الآخر عارض فكرة الجهاد في سبيل تحرير البلاد ضمن ما عرف بمحاولة فرنسا الرامية إلى إبطال فريضة الجهاد، وإضافة إلى تلك الشخصيات التي **عارضت فكرة الجهاد،** تظهر لنا شخصية محمد بن بلقاسم الحملاوي رئيس إخوان الطريقة الرحمانية بوسط البلاد؛ الذي اتخذ موقفا معاديا من ثورة الشيخ بوعمامة، وحث في إحدى رسائله إلى سي يحي بن أقويدر جميع أتباعه بمسالمة الفرنسيين [3].

ومن ضمن ما جاء فيها بهذا الخصوص " و أن رجلا يقال له ابو عمامة خرج من عمالة وهران على رأي الدولة الفرانساوية واتبعته شرذمة من العرب حكم وهران من لا عقل له منهم... ولو كان له عقل ما أظهر محاربة الدولة بل يلتجئ لهم بطلب المن منهم والعافية مع صدقه وصفاء سريرته[4].

و الأخرى سياسة **الاغراء و توزيع** الألقاب عن طريق اغراء بعض العائلات الصحراوية بتقليدها بعض الألقاب كالقايد و الاغا و الخليفة ، والتي حرصت على اعطائهم القوة في الحكم نظرا لكونها تعلم انه ليس من السهل على هؤلاء القياد ان يمارسوا سلطتهم وسط الشعب الذي ينقاد الهم بسهولة وهذا كله في اطار تفكيك السلطة القبلية في المنطقة [5].

---

[1] عبد القادر مرجاني ، المرجع السابق ، ص 146 .

[2] حباش فاطمة ، حمري ليلى ، **سياسة التفكيك و الاقصاء السياسي للقبيلة الجزائرية من خلال نظام المكاتب العربية ابان الاحتلال الفرنسي 1844 1870** م 08 ، ع 02 ، 2024 ، ص 511 .

[3] عبد القادر مرجاني ، المرجع السابق ،ص147.

[4] نفسه.

[5] أ.د/رضوان شافو ،المرجع السابق ، ص ص 78 79 .

وفي هذا الصدد أرسلت فرنسا في سنة 1885 خلية تجسس من متليلي بهدف التعرف على أوضاع المنطقة وجمع المعلومات عنها. وتكوّنت هذه الخلية من خمسة أشخاص بقيادة حمادي العسكري.وقد تمكنت المجموعة من دخول قصر العرب في عين صالح متنكرين في أزياء محلية،مستغلين مناسبة أحد الأعراس. غير أن السكان اكتشفوا أمرهم، فتم تسليمهم إلى الحاج المهدي باجودة، الذي أعادهم بدوره إلى المركز العسكري في غرداية، حيث جرى مبادلتهم بأسرى من أولاد الزوبير من إقسطن كانوا محتجزين لدى الفرنسيين[1].

كما اعتمدت فرنسا على بعض الأعوان المحليين في جمع الأخبار والترويج، مثل محمد بن قدور وعبد القادر بن علال، صاحب رسالة تيمي التي وجّهها إلى الجنرال سيرفيار في مطلع غزو توات سنة 1900، مستطلعًا أحوال المنطقة من قصر خنافسة الكاف[2].

كما انه لم يتوقف تفكيك السلطة التقليدية عند حدود تهميش الشيوخ والقادة المحليين، بل امتد ليشمل تقويض السلطة القضائية الإسلامية التي كانت تمثل المرجعية العليا للسكان. فمن خلال إلغاء منصب القاضي المسلم وتحويل أحكامه إلى مجرد استشارات غير ملزمة، نجحت فرنسا في سحب بساط الشرعية من تحت أقدام النخبة الدينية [3].

وما وجود 12 محكمة عسكرية في مقابل محكمتين مدنيتين فقط في أقاليم الجنوب إلا دليل قطعي على رغبة الاستعمار في استبدال السلطة والشرعية للقضاء المحلي بسلطة القوة العسكرية، مما أدى في نهاية المطاف إلى انهيار المنظومة القيادية التقليدية للمجتمع الصحراوي [4].

وزد على ذلك الثورات التي كانت تندلع من حين لآخر و التي كانت تؤدي في أغلب الأحيان الى التدمير، و تقتيل و تهجير و نفي و تشتيت السكان و القادة من مناطق الثورة [5]، و التي نجمت منها تحولات سياسية مست البنية السياسة للمنطقة .

---

[1] محمد باي بلعالم ، **الرحلة العلية** ، ج2 ، المرجع السابق ، ص305 .

[2] إبراهيم مياسي ، **الاحتلال الفرنسي في صحراء الجزائر** ، المرجع السابق ، ص 489 .

[3] عبد القادر مرجاني ، المرجع السابق ، ص 281 .

[4] نفسه .

[5] الشريف كمال دحومان الحسني ، **أشراف الجزائر ودورهم الحضاري في المجتمع الجزائري** ، دار الخلدونية ، ص 123 .

فلم تكن السياسة الاستعمارية الرامية إلى إعادة تشكيل السلطة القبلية في الجنوب الغربي الجزائري بمعزل عن العقيدة العسكرية التدميرية التي دشن بها الاحتلال تواجده في الشمال؛ بل كانت امتداداً لسياسة الإبادة والترهيب والتفقير الممنهج. فمنذ بدايات الاحتلال، فتحت فرنسا باب الجرائم غير الإنسانية ضد القبائل المقاومة، كإبادة قبيلة العوفية ببرج الحراش عام 1832، ومحرقة قبيلة 'أولاد رياح' بمغارات الظهرة في جوان 1845 التي راح ضحيتها حوالي 1200 شخصاً حُرقوا بدم بارد في جريمة همجية تلاشت معها معالم القبيلة من الجغرافيا لتدخل تاريخ الاستشهاد[1].

وقد انتقلت هذه إلى أقاليم الجنوب الغربي عبر آلية التفقير والمصادرة والتشتيت الهيكلي لمنع القبائل الصحراوية المجاهدة من التكتل أو الاتحاد مجدداً ضد السلطة الفرنسية. ولإضفاء غطاء شرعي على هذا السلب، وظفت فرنسا ترسانة التنظيم الزراعي للتدخل في نظم الملكية، مستلهمةً سياسات الحاكم العام **بيجو** الذي صادر منذ 1844 آلاف الهكتارات بحجج واهية .[2]

وفي سياق نفسه عملت على سلب أراضيهم الرعوية والزراعية المجاورة للقصور ،وعمدت إلى إحلال هندسة اجتماعية بديلة تُعرف بـ نظام الدوار أو البلديات الأهلية امتداداً لسياسة توزيع 372 قبيلة على 667 دواراً في التل [3] .

فبتحويل الدوار إلى مركز عسكري مراقب ومحاصر من طرف أعوان الإدارة من شيوخ وقواد، جُرِّد الأهالي والبدو الرحل في الجنوب الغربي من مجالهم الحيوي ومصدر عيشهم الأساسي المتمثل في الأرض والمراعي، مما أدى إلى تخلخل البنية القبلية المتضامنة، ووقوع المجتمع تحت طائلة الأوبئة والمجاعات، ليتحول الفرد القبلي من مالك سيد في أرضه إلى عنصر مشتت يسهل توجيهه وإدماجه قسرياً في المنظومة الاستعمارية [4].

---

[1] سباعي سيدي عبد القادر، **الاستعمار الفرنسي و النظام القبلي في الجزائر بين تفكيك و تكيف** ، مجلة الدراسات ، ع السابع ، جامعة الطاهري ، بشار ،جوان 2015، 169 .

[2] المرجع نفسه ، 169 .

[3] نفسه .

[4] نفسه .

ثانيا : بروز الإدارة العسكرية

وانطلاقا مما حللناه من قبل في اطار اخضاع المجال الصحراوي وجدنا انه لم يكتفِ التغلغل الاستعماري في الجنوب الغربي بتعطيل آليات السلطة التقليدية، بل عمد إلى اصطناع مركزية سيادية جديدة تكون بديلة ومنافسة لسلطة الجماعة والزاوية.

وتجلى ذلك في استحداث مناصب إدارية (كالقايد، والآغا، والباشاغا) ومنحها لشخصيات توفرت فيها سمات الطموح والذكاء، لتكون بمثابة الواسطة بين القبائل الرافضة وبين الإدارة الاستعمارية. ومن خلال إغداق الألقاب والامتيازات المادية، نجحت فرنسا في تحويل هؤلاء من زعماء طبيعيين إلى 'أعوان إداريين' ووكلاء وظيفيين مهمتهم الأساسية جباية الضرائب وتثبيت هياكل الاحتلال.

واللافت في هذه السياسة هو كسر قاعدة الوجاهة التقليدية؛ حيث عُيّن في كثير من الأحيان قادة لا ينتمون للأسر الكبرى، أو غرباء تماماً عن القبيلة، مما أدى إلى تجريد القيادة من ثقلها الشعبي وتحويلها إلى أداة تنفيذية محضة [1].

وقد برزت في هذا السياق شخصيات لعبت أدواراً محورية في إخضاع المنطقة وتثبيت دعائم الإدارة، مثل **الباشاغا محمد بن ميلود**(سي مولاي) في منطقة العين الصفراء؛ الذي تدرج في الرتب العسكرية والإدارية من 'قايد القياد' إلى 'آغا'، ليتحول منصبه إلى إرث سياسي استمر حتى اندلاع الثورة التحريرية. إن هذا المسار أدى في نهاية المطاف إلى خلق شرخ بين المجتمع وقياداته، وتأسيس نظام إداري مركزي يخدم الأهداف الكولونيالية على حساب الروابط القبلية والأعراف المحلية [2].

وكما وجدت في المصادر الأجنبية فقد اعتمدت في تكوين إدارة عسكرية على معايير دقيقة مستسقاة من البحث الميداني، حيث عمدت فرنسا إلى تعيين مستجيبين مباشرين لها من بين أعيان المنطقة. وبحسب المصادر الفرنسية، كان الاختيار يقع على الشخصيات التي تجمع بين النفوذ التقليدي وقلة العداء لفرنسا Moins hostile مع منحهم امتيازات مادية ورمزية (كالحقوق والبرنوس) دون منحهم ألقاباً رسمية في البداية لتجنب إثارة الحساسيات المحلية. هذه العملية أدت إلى خلق طبقة

[1] عميراوي احميدة و أخرون ، المرجع السابق ، ص 142 .

[2] نفسه .

من 'القادة الوظيفيين' الذين عملوا كحلقة وصل لتمرير السياسات الاستعمارية وتفكيك وحدة الصف المحلي [1].

ومع احتلالها للمنطقة نجدها انها فرضت التزامات على السكان كإقامة تحصينات داخل القصور وتحويلها إلى مراكز عسكرية وسجون للأسرى، فضلاً عن دفع فدى مالية، وإجبار بعض الأهالي على إخلاء مساكنهم لصالح ضباط الجيش [2].فنجد هذا التداخل القسري بين المجال العسكري والفضاء السكاني للأهالي في الجنوب الغربي، لم يكن مجرد إجراء أمني عابر، بل مثّل إستراتيجية استعمارية لفك الارتباط بين الإنسان وبيئته التقليدية.

فبتحويل القصور إلى مراكز عسكرية وسجون، وتهجير السكان من بيوتهم لصالح الضباط، سعت الإدارة الفرنسية إلى تحطيم الرموز المعنوية للسلطة المحلية وإحلال سلطة العسكرية محلها. هذا التحول لم يؤدِّ فقط إلى فقدان الأهالي لخصوصيتهم واستقلالهم الاجتماعي، بل جعل من القصر—الذي كان حصناً للمقاومة ومركزاً للتجارة—أداةً للرقابة ووسيلة لإنهاك الساكنة مادياً ونفسياً عبر الفدى والإتاوات، وهو ما مهّد الطريق لخلخلة التوازن الاقتصادي الذي ستقوم بمعالجته في المبحث القادم .

كما ان الإدارة العسكرية في الجنوب لم تكن مجرد أداة لتثبيت الأمن، بل برزت ككيان سلطوي مطلق يستمد شرعيته من القوانين الاستثنائية التي صُممت لقهر المجتمع المحلي. وقد تجلى ذلك في إحلال **المحاكم الزجرية** و **المجالس العسكرية** محل **القضاء التقليدي**، حيث مُنح القادة العسكريون صلاحيات واسعة في فرض الغرامات وأحكام السجن بناءً على رتبهم العسكرية وليس بمقتضى خطورة المخالفات، مما كرس حالة من التعسف والقمع القضائي الدائم[3].

[1] Champeaux Guillaume, Op , cit , t , pp 33 32 31.

[2] محفوظ رموم ،**الاحتلال الفرنسي لأقصى الجنوب الغربي و المجابهة العسكرية** ، المرجع السابق ، ص 66 .

[3] اندري نوتشي و آخرون ، **الجزائريين بين الماضي و الحاضر** ، تر رابح اسطمبولي و منصف عاشور ، الجزائر ، الديوان المطبوعات الجامعية ، 1984 م ، ص397 .

وقد أخذت هذه الإدارة طابعاً رسمياً بموجب منشور الحاكم العام في 19 نوفمبر 1902، الذي أنشأ 'لجان الضبط التأديبية' ومجالس الحرب كمحاكم استثنائية موجهة خصيصاً للتعامل مع الجزائريين في الأقاليم العسكرية [1]

فهذا التطور الإداري كان يهدف إلى استبدال الثقافة القضائية الإسلامية بتصور غربي زجري،حيث تميزت الأحكام بالتشدد والقسوة لضمان إحكام القيد على السكان. وبذلك، تحولت الإدارة العسكرية إلى سلطة خارج القانون العادي، تُفقد العدالة قيمتها وتكرس التمييز العنصري بين الجزائريين والأوروبيين، مما جعل من **القائد العسكري** الحاكم الناهي في شؤون الأرض والأهالي[2].

فمنذ عام 1902 إلى هيكل إداري مؤسساتي يستند إلى ترسانة قانونية، بدأت بـ قانون 14 أوت 1902 الذي حدد الوضع القانوني العسكري للمناطق الجنوبية، ثم قانون 04 أوت 1904 الذي ضبط إدارتها.

وقد تجسد هذا النظام ميدانياً من خلال تقسيم الإقليم إلى ملحقات ومراكز عسكرية يقودها ضباط، مثل ملحقة توات (تيميمون) التابعة لإقليم العين الصفراء. هذا التنظيم لم يكتفِ بنشر القوات (رماة، سباهي، ومدفعية)، بل اعتمد على 'سرعة المعلومة' عبر ربط مراكز مثل تيميمون بالجزائر العاصمة بخطوط التلغراف، مما سمح بمركزية القرار تحت سلطة 'القائد الأعلى للواحات الصحراوية'، وهو ما جعل الإدارة العسكرية أداة في يد الوالي العام لفرض السيطرة المطلقة .[3]

ولم تقتصر المظاهر القمعية للإدارة العسكرية في الجنوب على المحاكم الحربية فحسب، بل تعدتها لتشكل منظومة قمع قضائي استثنائي متكاملة؛ حيث رزح السكان تحت طائلة أحكام ردعية صارمة تشرف عليها هيئات استثنائية كالمجالس الحربية ولجان الطاعة، بالإضافة إلى الصلاحيات العقابية المطلقة الممنوحة للقادة العسكريين بمختلف مستوياتهم لقمع المخالفات البسيطة[4].

[1] عبد القادر مرجاني ، المرجع السابق ، ص 285 .

[2] نفسه .

[3] نفسه ، ص 270 .

[4] جمال قنان ، المرجع السابق ، ص 152 .

وحتى القضاء المدني الإسلامي لم يسلم من هذه الصبغة الزجرية؛ إذ عمدت الإدارة الاستعمارية إلى تجريده من استقلاليته ونزاهته عبر تعيين قضاة من طرف الوالي العام لا تتوفر فيهم الشروط المهنية المطلوبة[1].

وتجسد هذا الحصار القضائي في تقييد حق الاستئناف؛ حيث استُبدلت محاكم الاستئناف الإسلامية بمجلس استشاري ثلاثي يعين الوالي العام أعضاءه، وفي حال نقض الحكم أو تجاوز القاضي صلاحياته، يُجبر المتقاضي الصحراوي على قطع مسافات شاسعة لعرض قضيته أمام المحاكم المدنية الشمالية الدائمة[2].

وزيادة في التضييق، حُرم القضاة المسلمون من الرواتب الرسمية من الخزينة، واقتصر دخلهم على نسبة من حقوق الطابع الضريبي المفروض على القضايا المعروضة؛ وهي سياسة تعسفية رتبت مصاريف باهظة وأعباء مالية مضنية على كاهل المواطن الصحراوي البسيط، مما أفرغ العدالة من قيمتها الإنسانية وجودتها القانونية، وحوّل القضاء في الجنوب الغربي إلى أداة مادية ومعنوية لإنهاك السكان وإخضاعهم تمامًا لسلطة المحتل [3].

فالمؤسسات القضائية الزجرية جاءت في مجملها كمحصلة للوضع الجديد الذي أفرزته سياسة الاستعمار الأقاليم العسكرية في الجنوب الجزائري، وسمحت للقادة العسكريين بممارسة التعسف على أوسع نطاق وهو ما نستشفه من الكلمة التي ألقاها الأمير خالد في محاضرة أمام اثني عشر ألف مهاجر في باريس شهر جويلية 1924 .

حيث قال: "إنّ أهالي مناطق الجنوب هم تحت رحمة حكامهم الطغاة في دوائرهم، فهؤلاء الضباط لهم صلاحيات مطلقة يمدّدونها ويقلصونها حسب هواهم، إن هذا النظام لهو أشنع من قانون الأهالي لا يخضع لرقابة ولا حدود له، إنّ البدوي الراحل قد دمر وحول إلى متسول" ويستمر هذا

[1] نفسه

[2] نفسه

[3] نفسه

الحكم القهري في المنطقة، حيث بقي العمل بقانون الاندجينا ساري المفعول في الجنوب الجزائري مع إلغائه في الشمال سنة 1944 [1].

المبحث الثاني : التحولات الاقتصادية

أولا : انهيار التجارة الصحراوية التقليدية

في إطار التوسع الاستعماري الفرنسي في الجزائر، عملت الإدارة الاستعمارية على تبني مجموعة من السياسات الهادفة إلى إعادة تشكيل البنية الاقتصادية للمنطقة بما يخدم مصالحها.

و هذا ما نجده في المضايقات التي مارستها الادارة الاستعمارية على نشاط الفقيقر و زراعة البساتين فقد انتقلت المعاناة لأصحابها بسبب عليهم بفرض الضرائب على المحاصيل الزراعية ، و تفتيت علاقات التكامل و الترابط الاقتصادي التي كانت تشد من عرى تبادل المنافع بين اصحاب المواشي اللذين كانوا يوفرون للفلاحين اللحوم و السمن و الوبر و الاغنام التي يحتاجونها في مواسم الافراح و الاعياد الدينية ، و الفلاحين اللذين كانوا بدورهم بوفرون القمح و الشعير و الخضر المجففة التي كان ينقلها الرعاة لمقايضتا مع قبائل السودان مقابل التبغ و الالبسة و الشاي[2].

كما نجد ايضا اضافة الى ما سبق انفصام العلاقة بين الحدادين الذين كانوا يوفرون للفلاحين وسائل الفلاحة، وما كان يحصل عليه منهم ايضا مربوا المواشي من عقال و قيود للابل و الحمير و دبغ للجلود لصنع الخيم ، و اواني حديدية و نحاسية ، و قرب لحمل المياه اثناء التنقل في فيافي الصحراء ، وكل ذلك افقد الامل عند القبائل[3].

---

[1] عبد القادر مرجاني ، المرجع السابق ، ص 286 .

[2] هقاري محمد ،**تداعيات الاحتلال الفرنسي على النظام الاجتماعي و السياسي التقليدي لسكان منطقة الهقار** 1902، مجلة الموروث ، م05 ، ع01 ، ص 41 .

[3] هقاري محمد ، المرجع نفسه ، ص 42 .

فكان من جراء ذلك تخلي اغلب السكان عن حرفتهم الاصلية و التي توارثها اغلبهم اب عن جد ، وزاد الامر مع شروع فرنسا في عمليات التنقيب عن المعادن و البترول في الصحراء و بناء قواعد لأبحاث النووية التي ذهب اليها معظم السكان للعمل عند شركات الفرنسية بأجور زهيدة[1].

ومن جهة أخرى وكما رأينا سابقا نجد ان التجارة الصحراوية في الجنوب الغربي ارتبطت **بنظام "القوافل"** أو ما يُعرف بـ "العير"، وهو نظام اجتماعي واقتصادي معقد قام على التلازم بين الإبل والرفقة لتأمين الأرواح والأموال من مخاطر المسالك الوعرة. لقد كانت هذه التجارة تمثل شريان الحياة ليس فقط للقبائل الصحراوية، بل امتدت آثارها لتشمل المبادلات الدولية وشعوب إفريقيا الغربية[2].

ومع ذلك، بدأ هذا النظام بالانهيار التدريجي مع تغلغل الاستعمار الفرنسي؛ حيث أدى التدخل العسكري إلى زعزعة استقرار الطرق التقليدية التي كان يديرها حكام المدن والأعيان المحليون، مما تسبب في تراجع حجم المبادلات التقليدية التي كانت تعتمد على سلع نادرة وعالية القيمة مثل التبر، العاج، وريش النعام، فاسحةً المجال لنمط تجاري جديد تسيطر عليه القوة الاستعمارية[3].

ولم يكن انهيار التجارة الصحراوية وليد الصدفة، بل كان نتيجة سياسة تهميش **مدروسة للمسالك التقليدية؛** حيث قامت السلطات الاستعمارية (بين 1871 و1890) بتحويل وجهة القوافل بعيداً عن بلاد السودان، وإهمال المسالك الحيوية لصالح طرق تمر عبر دول مجاورة لم تخضع حينها للاستعمار. وقد أدى هذا التحول، مضافاً إليه إنشاء طرق الشاحنات وسكك الحديد، إلى استبدال نظام "القوافل" بـ "الدكاكين" والمراكز التجارية الشمالية[4].

ونتيجة لذلك، كسدت المنتجات المحلية؛ فتم غلق أسواق السودان في وجه التمور الجزائرية، وانهارت الصناعات التقليدية بشكل حاد. كما توج هذا الانهيار بفرض قيود جمركية صارمة (بمقتضى

[1] المرجع نفسه.

[2] عبد القادر مرجاني ، المرجع السابق ، ص 240 .

[3] نفسه .

[4] نفسه ، ص 240 .

قرار 1843 المعدل في 1893) الذي منع الصادرات البرية، مما أدى نهائياً إلى شلل وكساد التجارة الصحراوية المستقلة [1].

كما قامت بإنشاء العديد من الطرق بجانب الخطوط الحديدية التي تحدثت عنها سابقا، بحيث أصبح يتم نقل البضائع والسلع الصحراوية عن طريق العربات والشاحنات التي كانت تنتقل عبرها . وهو ما أدى في الأخير إلى ضعف التبادل التجاري بين الشمال والجنوب، كما أن العديد من المنتوجات أصبحت غير رائجة نظرا للمنافسة التي واجهتها من السلع الأوربية المستوردة [2].

وأمام هذا الاحتكار الفرنسي للسلع والبضائع الصحراوية وخاصة في الجنوب الغربي الجزائري لجأ العديد من التجار إلى ممارسة التجارة الخفية التهريب الشيء الذي دفع بالفرنسيين إلى منع عملية الحجز الاقتصادي للبضائع وبيعها في المزاد العلني؛ الأمر الذي ضاعف من أرباحها [3].

التي بدأت تتلاشى شيئا فشيئا ابتداء من سنة 1890؛وتراجع تسويق البضائع والسلع السابقة الذكر، وخاصة إنتاج التمور التي سدت كل الطرق أمامها وخاصة نحو السودان كما أن الصناعات التقليدية نفسها بدأت تفقد في صانعيه[4].

وكان توقف **حركة القوافل التجارية** نحو السودان بسبب حروب التوسع الفرنسية، خاصة بعد تحول مسار القوافل إلى المغرب وليبيا وانفتاح التجارة على موانئ إفريقيا الغربية بعد توقيع فرنسا وانجلترا معاهدة سنة 1890، إذ هيمنت فرنسا على إفريقيا الغربية شمال نهر النيجر وأصبحت سواحل القارة الإفريقية مفتوحة أمام التوسعات الأوروبية طبقا القرارات مؤتمر برلين. تدهور المستوى المعيشي نتيجة مصادرة الأراضي والأملاك وقطع النخيل وتقديم القصور وتطبيق سياسة الإخلاء والقطع 1860-1864[5].

---

[1] نفسه ، ص 240 .

[2] عميراوي احمد ، زاوية سليم ، **السياسة الفرنسية في صحراء الجزائر**، المرجع السابق ، ص 139 .

[3] نفسه .

[4] نفسه ، ص 138 139 .

[5] عبد القادر مرجاني ، المرجع السابق ، ص 285 .

كما كان لإرهاق **السكان بالضرائب و الغرامات الحربية** ، تأثير مباشر على الإنتاج الاقتصادي فرضن الضرائب على الخماسين اللذين ارغموا على دفع 12.50 فرنك للمحراث الواحد الذي يحرث فقط 15 هكتار لكل محراث ، و توسعت هذه الضرائب لتشمل الزكاة و العشر على المحاصيل و لأنفس و الحيوانات [1].

و عليه كان استخدام أسلوب الافقار و الضغط الاقتصادي كان يهدف بالدرجة الأولى افقار الأهالي و تحطيمهم ماديا ، لأنها تمتص كل ما لديها من فائض ، و تجعلهم في ضيق دائم و اضطرار مستمر لسد الرمق ، و بالتالي لا يتمكنون من القيام بالثورة او حتى التفكير فيها . و امام تدهور الوضع الاقتصادي المحلي ، و فقر الأهالي ، حاولت السلطة الاستعمارية منذ 1918 م تصحيح الوضع و اصلاح نظام الضرائب العربية حيث كلفت رؤساء القبائل بجمعها من الأهالي ثم دفعها في صندوق الخزينة الفرنسية [2].

وفي نفس سياق المتعلق **بالسياسة الضريبية** التي أثقلت كاهل سكان المنطقة، عمدت الإدارة الاستعمارية إلى وضع نظام ضريبي يتلاءم مع طبيعة الاقتصاد المحلي في توات. حيث قامت بدراسة الإنتاج الزراعي، خاصة الحبوب والتمور، وفرضت ضريبة ثابتة عُرفت محلياً باسم "**اللزمة**" أو "البزرة"، استناداً إلى عدد أشجار النخيل المسجلة، بقيمة 20 سنتيماً لكل نخلة. ويشير "مارتن أ.ج.ب" إلى أن مجموع الضرائب المفروضة على نخيل الواحات بلغ سنة 1905م حوالي 270000 فرنك، معتبراً أن هذا المبلغ كان مرتفعاً للغاية، خصوصاً في ظل غياب نشاط صناعي أو تجاري فعّال في المنطقة، وهو ما جعل السكان عاجزين عن تسديد هذه الضرائب[3].

كما شملت هذه السياسة إجراءات قسرية مثل العمل بالسخرة، وإلزام الأهالي بدفع تعويضات عن الخسائر التي تكبدتها القوات الفرنسية في المعارك، حتى بعد استسلام بعض القصور ومنحها

[1] عميراوي احمد ، زاوية سليم ، **السياسة الفرنسية في صحراء الجزائر**، المرجع السابق ،ص 139 .

[2] د/ رضوان شافو ، المرجع السابق ، ص 78 .

[3] عبد الله بابا ، **الحياة الاجتماعية و الاقتصادية** ، المرجع السابق ، ص 293 .

الأمان. إضافة إلى ذلك، تم توزيع هذه الأعباء على فرق القومية والصبايحية التي ساهمت في عملية الاحتلال[1] .

ومن الأمثلة على ذلك، العقوبات الصارمة التي فُرضت على سكان شروين وطلمين عقب معارك سنة 1901م، حيث اشترط الجنرال سير فيار دفع تعويضات مالية باهظة مقابل منحهم الأمان بعد انسحاب المقاومين [2].

وتأكيداً على ثقل الأعباء الضريبية المفروضة، يشير قوانو إلى أن ضريبة اللزمة التي فُرضت على منطقة تيديكلت كبديل عن الضرائب التقليدية كالزكاة والعشور، بلغت قيمتها الإجمالية نحو 52000 فرنك، أي ما يعادل حوالي 25 فرنكاً للفرد الواحد. وقد شكّلت هذه الضريبة عبئاً ثقيلاً على السكان، خاصة وأن أغلبهم كانوا يعيشون في فقر شديد في ظل تلك الظروف.

ويزداد الأمر صعوبة بالنظر إلى محدودية الإنتاج الزراعي، حيث لم تكن المحاصيل تلبي الحاجيات الأساسية للسكان، إذ قُدّر إنتاج التمور بنحو 6000 طن، ومساحة زراعة القمح بحوالي 10000 هكتار، يعتمد عليها قرابة 8830 نسمة. ويضيف المصدر ذاته أن هذه الضريبة اتسمت بالقسوة، لدرجة أن السلطات الفرنسية اضطرت سنة 1905م، عند مطالبة السكان بدفعها دفعة واحدة، إلى تخفيضها والموافقة على تحصيل ثلث قيمتها فقط [3].

وتُبرز الروايات الشفوية المتداولة في المنطقة أساليب جباية الضرائب، حيث كان القايد المحلي يتولى جمعها اعتماداً على المنتوج الزراعي، باعتباره المورد الأساسي لعيش السكان، فيحدد نصيب كل فرد وفق ما يملكه من القمح أو التمور.

كما شمل هذا الإجراء الثروة الحيوانية، بما فيها الماشية والإبل، إذ كان الأهالي يُجبرون في كثير من الأحيان على تقديم أفضل ما يملكون. وكان القايد يقوم بجمع ضريبة "البزرة" بشكل دوري كل ثلاثة أشهر، وفي حال نقص المحاصيل، يُلزم السكان بدفعها نقداً. وغالباً ما كان ذلك يدفعهم إلى

[1] محفوظ رموم **الاحتلال الفرنسي لأقصى الجنوب الغربي و المجابهة العسكرية و الثقافية** ، ص 66 .

[2] عبد الكريم الطاهري ، المرجع السابق ، ص 298 .

[3] نفسه ، ص 299.

بيع ممتلكاتهم لتسديدها، أو مواجهة إجراءات قمعية مثل الضرب والسجن في حال العجز عن الدفع[1].

وبعد أن أحكمت فرنسا سيطرتها على المنطقة، تزايدت الضرائب المفروضة على السكان، خاصة بعد سنة 1905م، حيث شملت مختلف جوانب حياتهم. ففُرضت ضرائب على المعاملات التجارية كضريبة "الطكس"، وعلى الفئات النشيطة كضريبة "الكرفي"، بل امتدت حتى إلى بعض الممارسات الاجتماعية والتقاليد، مثل الزيارات التي خضعت لما عُرف بضريبة "الزهو". كما طُبقت غرامات تعسفية وغريبة، من بينها معاقبة من يسير بحماره في الطرق المخصصة للسيارات[2].

ويعكس هذا التعدد في الضرائب سياسة استعمارية الممنهجة هدفت إلى إنهاك السكان اقتصادياً، وإشغالهم بأعباء المعيشة، بما يضمن إخضاعهم وتقليل قدرتهم على المقاومة [3].

و هذا ما أكدته المصادر الفرنسية التي عمدت الى تحطيم المنظومة الجبائية التقليدية للواحات. وتكشف التقارير الفرنسية أن المنظومة الإسلامية القديمة القائمة على العشور والزكاة كانت مرنة وتراعي ظروف القحط؛ حيث تُستخلص الجباية عِيناً وتعتمد مبدأ 'النصاب الشرعي' لحماية قوت الفلاحين [4].

إلا أن الإدارة العسكرية الفرنسية ألغت هذا النظام المرن وفرضت 'نظاماً جبائياً استعمارياً جافاً' ، ألزم الأهالي بدفع الضرائب نقداً وبشكل صارم ودوري لا يعترف بسنوات الجفاف أو النصاب، مما أدخل المجتمع في دوامة الفقر والديون المستمرة لإلحاق ثرواتهم بالخزينة الفرنسية[5].

و هذا مأدي في الأخير الى تدهور المستوى المعيشي للسكان بالتالي إضعاف البنية الاقتصادية التقليدية، نتيجة السياسة الاستعمارية المطبقة من خلال مصادرة الأراضي والأملاك، وقطع النخيل، وتدمير القصور، وتطبيق سياسة الإخلاء والقطع خلال الفترة (1860-1864). كما ساهم تناقص الثروة الحيوانية، خاصة الإبل والأغنام، بفعل إبادتها كوسيلة عقابية أو استعمالها في العمليات

[1] عبد الكريم الطاهري ، المرجع نفسه ، ص 299 .

[2] عبد الله بابا ، **الحياة الاجتماعية و الاقتصادية** ، المرجع السابق ، ص ص 299 300 .

[3] عبد الكريم الطاهري، المرجع السابق ،ص 299 .

[4] A.G.P , Op, Cit , pp 382 381 .

[5] Ibid ,t, P 381.

العسكرية داخل المناطق الصحراوية، في تعطيل حركة التبادل التجاري الصحراوي الذي كان يعتمد بشكل أساسي على القوافل [1].

ثانيا :ربط الجنوب بالاقتصاد الاستعماري

لم يكن التغلغل الفرنسي في أقاليم الجنوب وليد صدفة ، بل استند إلى طروحات ونظريات فكرية حاولت رسم خارطة استغلال المنطقة؛ ومن أبرزها تصور الدكتور بوديشون الرامي لربط مدينة الجزائر بـ تمبوكتو. وقد انطلق هذا المشروع من مقاربة اقتصادية وسياسية نفعية، رأت أن تبعية سكان الجنوب الغذائية للشمال ستشكل ورقة ضغط تجعلهم أكثر مهادنة واعتدالاً في التعامل مع الاحتلال، مستنداً إلى فرضية استعمارية خاطئة تزعم أن أهل الصحراء أقل عداءً لفرنسا من سكان الشمال، وهي الفرضية التي أسقطتها المقاومات الشعبية اللاحقة في ميدان الواقع [2].

علاوة على ذلك، حمل مشروع بوديشون أبعاداً ديموغرافية وعنصرية؛ حيث رأى في فتح طريق الصحراء وسيلة للاتصال المباشر بمنطقة السودان (أفريقيا جنوب الصحراء)، مروجاً لفكرة أن شعوبها 'لينة ومسالمة' يمكن تسخيرها كيد عاملة رخيصة في الزراعة بالشمال، بل واستخدامها كعنصر ضغط وتوازن ديموغرافي ضد السكان الجزائريين المقاومين [3].

ولم تغفل هذه الرؤية الاستراتيجية الاستغلال التجاري؛ إذ ركزت على العوائد الضخمة للتجارة العابرة للصحراء، القائمة على مواد خفيفة الوزن وباهظة الثمن كالعاج، وريش النعام، والتبر (الذهب). وبذلك، زاوجت هذه الأطروحات المبكرة بين السيطرة العسكرية، والاستغلال التجاري، والهندسة الاجتماعية لتبرير غزو الأعماق الصحراوية [4].

فنرى انها سعت من خلال مشاريعها التوسعية إلى إحكام قبضتها على الجنوب عبر استراتيجية "الربط الاقتصادي"، مستغلةً حاجة السكان الماسة للمواد الغذائية القادمة من الشمال لكسر حدة العداء وتحويلهم نحو "الاعتدال" السياسي مقابل المنفعة التجارية. و هذا ما تجلى في مقترحات

[1] عبد القادر مرجاني ، المرجع السابق ، ص 285 .

[2] جمال قنان ، المرجع السابق ، 142 .

[3] المرجع نفسه ، ص 142 .

[4] نفسه

"بوديشون" التي دعت إلى عسكرة التجارة عبر تسيير قوافل محمية بمئات الجنود الفرنسيين، وتعيين وكلاء تجاريين في مراكز إستراتيجية بالصحراء [1].

فلم يكن الهدف مجرد التبادل، بل السيطرة على المعابر الحيوية وإغراء القوى المحلية المتحكمة في الطرق عبر إيهامهم بالمصالح المشتركة مع فرنسا، وذلك لضمان تدفق الثروات الصحراوية والمواد الأولية نحو الأسواق الاستعمارية ودمج المنطقة كلياً في المنظومة الرأسمالية الفرنسية [2].

وقد جسد ربط الجنوب بالمنظومة الاستعمارية في محاولات فرنسا المتكررة للنفاذ نحو العمق الصحراوي عبر بعثات تجارية في اتجاهات ثلاثة (قورارة غرباً، عين صالح وسطاً، وغدامس شرقاً)،مستعينة بشخصيات محلية موالية. ورغم أن "معاهدة غدامس 1862" كانت تهدف لفتح الطريق نحو السودان والنهر النيجر، إلا أن توجس السكان المحليين عطل هذه الطموحات مؤقتاً.

ومع ذلك، نجحت فرنسا في إعادة صياغة الهيكل الإنتاجي للجنوب ليخدم مصالحها؛ فبدلاً من اقتصاد يعتمد على التبادل المتكافئ، تحول الجنوب إلى مصدر للمواد الأولية التي تحتاجها الصناعة الفرنسية، وظهر ذلك جلياً في بروز "الحلفاء" كمادة تصديرية أساسية لصناعة الورق بفرنسا. وهكذا، تم ربط اقتصاد الواحات قسراً بالأسواق الأوروبية عبر شبكات نقل حديثة (شاحنات وعربات) وحواجز جمركية تضمن حماية التجار الفرنسيين وهيمنة منتجاتهم [3].

و قد تجلت نتائج التغلغل الاستعماري في تحويل الجنوب الغربي من كيان يمتلك اكتفاءً ذاتياً قائماً على الفلاحة والقوافل، إلى ملحق اقتصادي يخدم الآلة الاستعمارية. وقد تحقق هذا الربط القسري عبر آلية حيث سعت الإدارة الفرنسية إلى تدمير الإنتاج المحلي من خلال انتزاع الأراضي الخصبة في وادي زوزفانة وقير ومصادرة الأموال بشتى الوسائل ، مما دفع باليد العاملة المحلية نحو الصناعات الاستخراجية (مناجم الفحم) والشركات البترولية [4].

---

[1] نفسه .

[2] نفسه .

[3] المرجع نفسه .

[4] محمد برشان و آخرون ، **انعكاسات السياسية الاجتماعية الكولونية على سكان الصحراء الجزائرية** ، المرجع السابق ،ص30 .

وما زاد من عمق هذه التبعية هو الحصار المالي الجائر، حيث استمر العمل بالضرائب في أقاليم الجنوب (مثل ضريبة الرأس واللازمة التي ذكرتها سابقا حتى عام 1948، رغم إلغائها في الشمال عام 1918؛ مما جعل من الضريبة أداة لاستنزاف ما تبقى من قدرات السكان المادية وإجبارهم على الانخراط في الدورة الاقتصادية الفرنسية كقوة عمل مسحوقة [1].

و بجانب هذا نجد في اطار ربط الجنوب باقتصادها من خلال مدّ خطوط السكك الحديدية نحو الجنوب الغربي الجزائري الذي لم يكن مجرد مشروع لنقل المسافرين، بل كان استراتيجية استعمارية متكاملة لربط الموارد الطبيعية بالأسواق الدولية. وقد تجسد هذا الربط في خط (أرزيو – سعيدة) بموجب مرسوم 29 أفريل 1874، والذي امتد باتفاق طويل الأمد بين الحاكم العام والشركة الفرنسية الجزائرية ليصل إلى كولومب بشار بطول 440 كلم .

و لقد كان الهدف الجوهري من هذا التوسع هو الاستحواذ على الثروات الطبيعية والمنجمية التي تزخر بها المنطقة؛ حيث سارعت الإدارة الاستعمارية إلى استغلال نحاس عين الصفراء وفحم القنادسة وبشار، إلى جانب الاستغلال البشع لنبات الحلفاء الذي غطى مساحات شاسعة تجاوزت 300 ألف هكتار. ولم يقتصر الاستنزاف على الموارد، بل امتد ليشمل اليد العاملة الرخيصة من البدو الرحل الذين أُجبروا على العمل في ظروف قاسية .[2]

وتكتمل حلقة هذا الربط الاقتصادي عبر تحويل المدن الصحراوية إلى نقاط تجميع؛ فبعد وصول السكة إلى مشرية (1882) ثم عين الصفراء (1887)، أصبحت مادة الحلفاء تُشحن مباشرة نحو ميناء أرزيو ومنه إلى إنجلترا [3].ولضمان استمرارية هذا التدفق، أنشأت السلطات الاستعمارية أسواقاً أسبوعية في (سعيدة، بوقطب، عين الصفراء، وبني ونيف)، والتي اعتبرتها الإدارة عملاً وطنياً ومكملاً حيوياً للسكة الحديدية، بهدف إحكام القبضة التجارية على المستعمرة وربطها عضوياً بفرنسا، وتحويل المجتمع الصحراوي من نمط الإنتاج التقليدي إلى أجراء ومنتجين في خدمة الماكينة الاستعمارية . [4]

[1] تفسه .

[2] ايزابيل ابرهاردت ، المصدر السابق ، ص 139 .

[3] عبد القادر مرجاني ، المرجع السابق ، ص 261 .

[4] نفسه .

فإن هذا التغلغل المادي شَكّل التمهيد التكنولوجي لـ دخول الماكينة والآلة الحديثة للصحراء لاحقاً وتثبت الدراسات السوسيولوجية والفقهية المنتمية لمنطقة توات والجنوب أن البنية الاقتصادية التقليدية القائمة على الوسائل البدائية قد تلاشت تدريجياً؛ حيث فُتح الباب لتوظيف الآلات الصناعية كآلات الخياطة الحديثة، والسيارات البرية لتعوض قوافل الإبل[1] .

كما امتدت الماكينة الاستعمارية لتغير نمط الحياة اليومية عبر إدخال مضخات المياه الآلية وشبكات قنوات الصرف الصحي الحديثة .وعلى الرغم من أن الاندماج الفعلي لهذه الآلات ظهر جلياً في عقود لاحقة، إلا أن جذوره السياسية والاقتصادية تعود ميكانيكياً إلى مشاريع الاختراق التقني و المنجمي الكولونيالي التي دُشنت في الفترة ما بين 1844 و1902 [2].

المبحث الثالث: التحولات الاجتماعية والثقافية

أولا : تراجع دور الزوايا

بناءً على ما تم استعراضه في الفصول السابقة حول الأوضاع السياسية والاجتماعية للمنطقة، يتضح أن الزاوية لم تكن مجرد مؤسسة دينية عابرة، بل كانت تشكل النواة الصلبة التي تلتف حولها القبائل في الجنوب الغربي. فهي المرجع الديني والتربوي الذي حفظ هوية المنطقة، وهي السلطة السياسية والاجتماعية التي كانت تفض النزاعات وتحقق التوازن القبلي، وهو ما جعل منها حائط الصد الأول أمام أي محاولة اختراق خارجي.

فلم يكن التغلغل الاستعماري في الجنوب الغربي يقتصر على البنادق ومد خطوط السكك الحديدية، بل واكبه غزو ثقافي وروحي استهدف الهوية الدينية للمنطقة والتي كانت تشكل الزوايا والكتاتيب حصنها المنيع. وقد تضافرت في هذا السياق جهود المستكشفين والرواد الذين جابوا الصحراء الكبرى خلف غايات متعددة؛ تراوحت بين المغامرة، وجمع المعطيات العلمية والجغرافية،

[1] اسباعي محمد ، **الحياة الاقتصادية في الجنوب الغربي ابان الاحتلال الفرنسي من خلال فتاو الشيخ مولاي الطاهري** ، مجلة البشائر الاقتصادية ، مج 5 ، ع 2 ، اوت 2019 ، ص 1187 .

[2] المرجع نفسه .

والعمل اللوجستي لحساب الحكومات الأجنبية تمهيداً لبسط السيطرة العسكرية وتأمين المسالك التجارية [1].

هذا التحالف (العسكري-التبشيري) ضرب حصاراً خانقاً على المنظومة الروحية المحلية؛ حيث عملت الإدارة العسكرية على التضييق المادي والمالي على الزوايا ومؤسسات التعليم القرآني وتجفيف منابع تمويلها، مستهدفةً تحجيم دورها القيادي والجهادي، ومحاولة إحلال المنظومة الاستعمارية محل التصور المحلي المتشبع بالثقافة الإسلامية، مما أدى تدريجياً إلى تراجع النفوذ التقليدي للزوايا وفقدانها لبعض وظائفها التعليمية والاجتماعية لصالح مؤسسات الاحتلال [2].

فلقد اتخذ كولوزيل في سبتمبر 1830 م قرار الشهير الذي ينص على مصادرة الأملاك الدينية مهما كان نوعها ، عامة و خاصة ، ووضعها في يد مصلحة أملاك الدولة الفرنسية ،و يشمل ذلك أوقاف المدينة و مكة و المساجد ، و سبل الخيرات و غيرها [3].

وبناء على هذا طبقت فرنسا تجاه شيوخ الطرق الصوفية السياسة الاستعمارية تميزت بالعداء المطلق، خاصة أولئك الذين جهروا بمعارضتهم للوجود الفرنسي؛ حيث شنت الإدارة الاستعمارية ضدهم حربا امتدت طوال القرن التاسع عشر وبدايات العشرين، مستهدفةً شلّ أدوارهم الدينية والثقافية والتربويّة عبر تضييق الخناق على نشاطاتهم [4] .

ولم يقتصر الأمر على عرقلة رسالتهم فحسب، بل أُخضع هؤلاء الشيوخ ومردوهم لنظام مراقبة أمنية صارمة ودائمة، وصلت في حالات كثيرة إلى النفي القسري والتشريد سواء داخل تراب الوطن أو خارجه. وفي محاولة لضرب مصداقية هذا الكيان الروحي، سعت فرنسا لإرغام بعض المنتسبين للطرق الصوفية على العمل في سلك الجوسسة لصالح أجهزتها الأمنية، توازياً مع سياسة تجفيف المنابع المالية

[1] إسماعيل العربي ، المرجع السابق ، ص 109 .

[2] نفسه

[3] الشريف كمال و آخرون ، **أشراف الجزائر ودورهم الحضاري في المجتمع الجزائري** ، المرجع السابق ، ص 121 .

[4] يحي بوعزيز ، **ثورات القرن التاسع العشرين** ، المرجع السابق ، ص 360 .

عبر مصادرة أملاك المؤسسات الدينية؛ وهي الأملاك التي كانت تشكل العصب المالي لتمويل التعليم العربي والنشاط الثقافي الأصيل في المنطقة [1].

فقد أدركت السلطات الاستعمارية من خلال استطلاعها لقصور توات وقورارة وتيديكلت أهمية النخبة الدينية والتعليمية في توجيه الرأي العام؛ فدرست أدوار الإمام كحافظ لسجلات الجماعة، والطالب كمشرف على التعليم. ومن خلال هذا الفهم، عملت فرنسا على مراقبة هذه الفئات وضمان عدم تحول الزوايا والمساجد إلى مراكز تعبئة ضدها، مع محاولة إدماج بعض الوظائف (مثل الخوجة والبراح) ضمن جهازها الإداري لتسهيل نقل الأوامر الاستعمارية للسكان [2].

فنجدها في المرحلة الأولى من التغلغل اهتمت بدراسة الزوايا ولطرق الصوفية ووضعتها في أكبر اهتمامات الحمالات الاستكشافية والتي عملت و بتوجيه من السلطات الاستعمارية العليا على محاولة اختراق مضمونها التركيبي و العقائدي بهدف احتوائها وتدجينها.

و منذ القرن التاسع عشر صنفت الدراسات التي قام بها كل من Deport Octaveو Xavier Cappolani من أهم الدراسات التي خدمت السلطات الكولونيالية في تعاملها مع زوايا المنطقة التي تضمنت تقارير الذي خلص اليها المتكشفين ، وهو على شكل توصية قدمت الى الحكومة الفرنسية،اكدا من خلالها على ضرورة الاندماج مع الزوايا من أجل تحقيق بعض المكاسب الاستراتيجية منها [3] :

_جعل الزوايا و باقي المؤسسات الدينية الأخرى تحت وصاية و مراقبة السلطات الفرنسية النفاذ الى العقول الأهالي

_تهميش دور الزوايا من خلال إقامة مؤسسات اجتماعية و تربوية تضاهيها وموازية لنشاطها التعلمي و الاجتماعي .

[1] يحي بوعزيز ، **ثورات القرن التاسع العشرين** ، المرجع السابق ، ص 360 .

[2] Champeaux Guillaume , Op , cit , t , pp 33 32 31 .

[3] محمد برشانو آخرون ، **انعكاسات السياسية الاجتماعية الكولونية على سكان الصحراء الجزائرية** ، المرجع السابق، ص 27 .

_العمل على توظيف الزوايا التي تملك فروعا لها في البلدان الإفريقية و الدول المجاورة للجزائر كوسيلة لتحقيق التغلغل التجاري و الديني و السياسي[1].

و في اطار هذا فنجدها قد قامت بإحلال السلطة الإدارية مكان السلطة الدينية التي تمثلت في ما قام بيه الماريشال ليوتي Lyauteyقائد الإقليم العسكري لعين الصفراء مع سياسته تجاه الزاوية الزيانية،و ذلك بتهميشها و اضعاف سلطتها الروحية في المقابل وضع السلطة الإدارية كبديل لها، من خلال وضع القايد الذي كان يمثل الحلقة الأساسية لهذه السلطة و فهو أداة رقابة عسكرية و إدارية[2].

فلم تقتصر نتائج التغلغل الاستعماري في الجنوب الغربي على التفكيك المادي للقبائل، بل تعدتها إلى تفتيت الروابط الروحية والمذهبية؛ حيث سعى الاستعمار إلى إضعاف الوازع الديني الجامع الذي كانت تمثله الزوايا الكبرى في المنطقة، وإحلال 'النزعة العصبية' محله[3].

وقد تجلى ذلك في محاولة الإدارة العسكرية الفرنسية إحياء الخلافات البينية وتغذية ثارات قديمة بين التشكيلات القبلية في منطقة الساورة ووادي قير (مثل استغلال التناقضات بين القبائل المستقرة في القصور والقبائل الرحل) . فإن هذا التوجه الاستعماري كان يهدف إلى خلق مجتمعات متنافرة ترتبط بالعصبية القبلية أكثر من ارتباطها بالهوية الدينية الموحدة، مما يضمن تبعية هذه الأطراف المتنازعة للتحكيم الفرنسي الدائم، ويمنع نشوء جبهة وطنية موحدة في هذا الحيز الجغرافي الحساس[4].

فنجدها منذ البداية بنت سياستها التعليمية على القضاء على اللغة العربية والثقافة الإسلامية ومحو الشخصية الوطنية باعتبارها روح الأمة وعرقها النابض، وقد قامت بالعديد من الإجراءات والآليات الأجل قطع الجزائريين عن ثقافتهم الإسلامية من خلال سياسة خنق التعليم في الزوايا، بالإضافة إلى أن الكتابات الفرنسية والوطنية تفيد بأن الاستعمار مارس سياسة التجهيل ضد الأهالي

---

[1] نفسه .

[2] محمد برشان و آخرون،المرجع نفسه ، ص 25 .

[3] نفسه ، ص 29 .

[4] لهادي درواز ، **الولاية السادسة التاريخية تنظيم ووقائع 1954 / 1962** ، سلسة اوراق من الذاكرة ، دار هومة ، الجزائر ، 2009 ، ص27 .

كان نصيب الجزائريين في مقاعد الدراسة يمثل واحد على خمسة عشر طفل أوروبي خارج مقاعد الدراسة [1].

فشنت الإدارة الفرنسية حرب على الزوايا والمساجد والمدارس العربية، ومنذ الوهلة الأولى للاحتلال حاول الفرنسيون جر الجزائريين إلى إدخال أبنائهم في مدارس فرنسية في المدن .

وفي المرحلة الثانية أنشئوا ثلاث مدراس إقليمية لتمتص التلاميذ الذين كانوا من قبل يتوجهون إلى الزوايا الريفية وإلى المرابطين للمتعلم أو يقصدون المساجد الإسلامية خارج الوطن، أما خلال المرحلة الثالثة فالفرنسيون قد أنشئوا المدرسة الابتدائية الفرنسية بجوار الزوايا وضيقوا على هذه الزوايا مجال النشاط وبهدف وضع الزوايا تحت أنظار الفرنسيين صدر مرسوم 18 أكتوبر 1892 فأدمج تعليم الزوايا في المدارس الابتدائية الفرنسية وأخضعها للمراقبة وتفتيش السلطات الأكاديمية المدنية والعسكرية[2].

ولم يقتصر الحصار الاستعماري للزوايا على الملاحقة العسكرية المباشرة لشيوخها، بل عمدت الإدارة الفرنسية إلى اعتماد استراتيجية التقويض المالي والاقتصادي لكسر نفوذها الروحي والتعليمي. وتكشف التقارير والشهادات الكولونيالية المعاصرة للتغلغل عن خلفيات هذه السياسة؛ حيث أقدمت السلطات العسكرية الفرنسية على إلغاء الإعفاءات الضريبية التاريخية والعرفية التي كان يتمتع بها 'الشرفاء والمرابطون في المنظومة الإسلامية التقليدية[3].

ونظراً لأن هذه الفئة الاجتماعية والدينية هي التي كانت تُشرف تاريخياً على إدارة الزوايا ومؤسسات التعليم القرآني وتُموّل أوقافها، فإن تجريدها من حصانتها الجبائية وإرهاقها بالضرائب النقدية القسرية شكل ضربة قاصمة لقدرتها المادية على الإنفاق على طلبة العلم وعابري السبيل.

هذا الاستنزاف المالي الممنهج للنخبة المرابطية أدى بالضرورة إلى عجز الزوايا ماديةً وتراجع أدوارها التقليدية، مما أضعف قدرتها على الصمود الثقافي والاجتماعي وفكّك التضامن الروحي الذي

---

[1] لهادي درواز ، المرجع نفسه .

[2] حدة بولافة ، **واقع المجتمع المدني الجزائري ابان الفترة الاستعمارية و بعد استقلال** ، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في العلوم السياسة ، تخصص السياسات العامة و الحكومات المقارنة ، كلية الحقوق و العلوم السياسية ، جامعة باتنة ، 2010 2022 ، ص35 .

[3] A.G.P , Op , Cit , p 381 .

كان يجمعها بالسكان، ليفتح ذلك المجال واسعاً أمام محاولات الاختراق والتبشير الكنسي بعد عزل المجتمع عن حصونه الروحية التقليدي

ثانيا: إعادة تشكيل المجال القبلي

ساهمت تركيبة المجتمع الجنوبي المتماسكة التي لم تكن في صالح عملية التوسع الفرنسي في الجنوب الجزائري إلى حد بعيد في تأخير هذه العملية عشرات السنين والدليل على ذلك هو عدم تمكن القوات الفرنسية من فرض سيطرتها المطلقة على الصحراء الجزائرية ونظرا لهذا التماسك والتضامن اتبعت فرنسا عدة أساليب توسعية منها مساهمتها في تفكيك المجال القبلي

فقد تجلت النتائج العميقة للتغلغل الفرنسي في تقويض التحالفات التقليدية التي كانت تضمن تماسك القبائل الكبرى (مثل قبيلة ذوي المنيع)، وذلك عبر تغذية الصراعات الداخلية وإجهاض مساعي الصلح التي كانت تقودها الزوايا. ولإتمام عملية الاختراق، عمدت الإدارة الاستعمارية إلى ممارسة سياسة الترهيب والترغيب؛ فمن جهة، **استهدفت العصب الاقتصادي** للقبائل الرافضة عبر تدمير الواحات ومصادرة المواشي وحقول الزرع كما حدث مع أولاد جرير في وادي زوزفانة [1].

ومن جهة أخرى، عملت على **صناعة نخبة موالية** من خلال استمالة عائلات قيادية وطموحة. هؤلاء القادة التقليديون تحولوا، بفعل الامتيازات والألقاب الاستعمارية، من حماة للقبيلة إلى أعوان للإدارة ووسطاء لجباية الضرائب، مما أفقد القيادة التقليدية شرعيتها الشعبية وحولها إلى أداة وظيفية في يد الآلة الاستعمارية [2].

حيث يقول سيروكا (ان معرفة خلفيات العائلات الرئيسية في هذه البلاد و عداواتهم و صداقتهم و ثاراتهم تجعلنا قادرين أكثر على حكمهم ...) [3].

فلم يتوقف أثر التغلغل الفرنسي عند حدود السياسة والاقتصاد، بل امتد ليعيد صياغة النسيج الاجتماعي في الحواضر الصحراوية الكبرى كبشار. فقد أدت **سياسة تشجيع الهجرة الأوروبية** إلى

[1] محمد برشان و آخرون، **انعكاسات السياسية الاجتماعية الكولونية على سكان الصحراء الجزائرية**، المرجع السابق ص25.

[2] المرجع نفسه ، ص29 .

[3] عميراوي احميدة و آخرون، **السياسة الفرنسية لصحراء في صحراء الجزائر**، المرجع السابق ، ص145 .

إحلال تقسيم اجتماعي هجين مبني على أسس عرقية ودينية بدلاً من التقسيم الطبقي التقليدي الذي كان سائدا [1].

و في هذا السياق اعتمدت الإدارة الاستعمارية تجاهل الهيكل الطبقي لمجتمع ؛ فلم تعد تفرق بين الأشراف وبين الفئات الأخرى، بل أضحى الجميع في نظر القانون الاستعماري كتلة واحدة محرومة من الحقوق، مقابل امتيازات مطلقة للمستوطن الأوروبي واليهودي[2].

فإن هذا التحول أدى إلى تآكل السلم التراتبي القديم القائم على الملكية الاقتصادية (سادة الأرض مقابل العمال الخماسين والعبيد)، حيث ذابت تلك الفوارق التقليدية تدريجياً أمام واقع 'التمييز العنصري' الذي فرضه الاحتلال [3].

وبالرغم من مأساوية هذا التحول، إلا أنه مهد مستقبلاً ـــبعد استعادة السيادة الوطنيةـــ لظهور مجتمع جديد تتلاشى فيه تلك الطبقية الموروثة، ليحل محلها مفهوم المواطنة الذي يمنح الجميع نفس الحقوق والواجبات بموجب قوانين الجمهورية، وهو ما يمثل أحد التحولات الجذرية التي طرأت على بنية المجتمع الصحراوي نتيجة الصدام مع الظاهرة الاستعمارية [4].

فقد ادى التغلغل الفرنسي إلى تفكك عميق في بنية القبائل الكبرى بالجنوب الغربي، وعلى رأسها قبائل 'أولاد جرير' و'ذوي المنيع'. فلم يكتفِ الاستعمار بتجريد هذه القبائل من سلطتها السياسية وتفتيت شبكاتها التقليدية، بل استهدف النموذج الفلاحي الذي كان يمنحها استقلاليتها، مما أدى إلى ظهور قوى اجتماعية جديدة [5].

[1] محمد برشان و آخرون ، المرجع السابق ، ص30 .

[2] نفسه .

[3] نفسه.

[4] نفسه .

[5] نفسه.

وقد كان من أبرز نتائج هذا التفكك القسري بروز ظاهرة النزوح نحو مدينة بشار؛ حيث أُجبرت معظم القبائل التي فقدت مواطنها الأصلية في الأرياف على الهجرة نحو المراكز الحضرية بحثاً عن لقمة العيش في المناجم بعد أن بلغ الفقر بها مبلغاً لا يطاق [1].

هذا النزوح لم يكن مجرد انتقال جغرافي، بل كان انكساراً للسلطة التقليدية التي كانت تحمي الفرد داخل إطار القبيلة، ليجد الفرد نفسه وحيداً أمام قوانين زجرية تمنح الإدارة العسكرية صلاحيات السجن والغرامة لأدنى الأسباب، مما حوّل المجتمع الصحراوي من مجتمع فرسان وملاك أراضٍ إلى مجتمع أجراء يخضعون لرقابة إدارية وأمنية صارمة [2].

و لم يقتصر إعادة تشكيل المجال القبلي على الجوانب المذكورة ، بل امتد لضرب القاعدة المادية للقبيلة عبر سلسة من القوانين العقارية ومن ابرزها قانون 16 جوان 1851م الذي صدر لتأكيد أن الملكية حق مصون للجميع بدون تمييز بين الملاك من الأهالي والملاك الفرنسيين وغيرهم، وينص كذلك على أن حقوق الملكية وحقوق التمتع العائدة للأفراد والعشائر وبطون العشائر معترف بها قطعا على ما هي عليه أثناء حرب الاحتلال أو بعد انتهائها [3].

إلا أنه بعد مرور سنوات على صدور هذا القانون أتخذ قرار تعسفي سنة 1863 يقضي بحصر الأراضي وتحديدها، بهدف خدمة المصالح الاستعمارية وتسهيل عملية بسط النفوذ ، وهو السيناتوس كونسيلت أو ما يعرف بالقرار المشيخي صدر عن مجلس الشيوخ الفرنسي يعترف بالملكية الجماعية (القبيلة) للجزائريين، وترتب عليه تقسيم الأراضي على أفراد القبيلة تسهيلا لشرعية شرائها من قبل الفرنسيين، وإخراجها من أيدي أصحابها بطريقة قانونية ويتألف هذا القانون من سبع فقرات [4].

إن هذه القوانين قضت بنقل ملكية الأرض من الفضاء العرفي الجماعي المشاع إلى الترسيم الفردي الخاضع للقانون الفرنسي، مُحققةً بذلك هدفاً مزدوجاً: إنشاء الملكية الخاصة وتدمير سلطة القبيلة. وبذلك، كانت هذه القوانين بمثابة آلة حرب حقيقية تفوق في تدميرها الآثار العسكرية

---

[1] نفسه ، ص30 .

[2] نفسه .

[3] مصطفى الاشرف ، **الجزائر الامة و مجتمع** ، تر : د حنفي بن عيسى ، دار القصبة للنشر ، 2007 . ص 41 .

[4] مصطفى الاشرف ، الجزائر الامة و مجتمع ،المرجع نفسه ، ص 41 .

للجيوش، حيث فجّرت وحدة العائلة والقبيلة، وانعكست مباشرة على حركة السكان عبر إفراز ظاهرة النزوح الريفي نحو المراكز الحضرية والمنجمية بشكل مخيف وغير معهود [1].

وقد ترتبت على هذا التفتيت الجغرافي والاجتماعي نتائج بالغة الخطورة، أبرزها

_تلاشي الارتباط القبلي: تفتتت البنية الاجتماعية للقبيلة وانقسمت بين الريف والمدن، مما أدى إلى انهيار إسمنت التضامن العشائري التقليدي.

_ بروز الآفات الاجتماعية: تحول النازحين الذين سُلبت أراضيهم بالمصادرة أو البيوع القسرية إلى بطالين ومتسولين في الحواضر، أو خدم وأجراء يعانون الاستغلال عند الكولون.

_تدهور المستوى المعيشي للأهالي: تحول المجتمع من صفة 'الملاك الأسياد' إلى فئات من الأجراء والخماسين المنهكين اقتصادياً.

_أزمة الأمن الغذائي: أحدث الاستيطان تغييراً جذرياً في طبيعة الإنتاج عبر توجيه الزراعة نحو النمط التجاري الرأسمالي ذي المردود السريع على حساب زراعة الحبوب المعيشية، مما جعل البلاد عرضة للأزمات الغذائية والمجاعات الحادة، مثلما تجسد مأساوياً في مجاعة (1867 - 1868) [2].

وبناءً عليه يتضح ان هذه القوانين لن تكن مجرد تنظيم عقاري ، بل كانت أداة استعمارية استهدفت تحويل القبيلة من وحدة اجتماعية و سياسية متماسكة تسيطر على مجالها الجغرافي ، الى افراد و مجموعات صغيرة مشتتة يسهل التحكم فيها ، مما أدى في نهاية المطاف الى خلخلة الروابط التقليدية و إعادة رسم الخارطة القبلية للمنطقة وفق المنظور الأمني الفرنسي

ثالثا : بداية الادماج الاستعماري للصحراء

وإذا كانت السكك الحديدية قد شكلت الأداة الرئيسية لربط الجنوب بالاقتصاد الاستعماري عبر استنزاف موارده المنجمية والفلاحية، فإن دورها لم يتوقف عند هذا الحد؛ بل كانت حجر الزاوية في بداية الإدماج الفعلي للصحراء ضمن المنظومة الفرنسية. فمن خلال تأمين النقل السريع للوحدات العسكرية وقمع حركات المقاومة في مناطق قورارة وفجيج، تحولت السكة إلى وسيلة لفرض السيادة

[1] سباعي سيدي عبد القادر ، المرجع السابق ، ص 197

[2] نفسه .

الإدارية المطلقة، معلنةً بذلك نهاية مرحلة استقلال الأقاليم الجنوبية وبداية انصهارها قسرياً في المشروع الاستيطاني العام[1].

فلم يكن مدّ شبكة السكك الحديدية نحو أقاليم الجنوب الغربي مجرد عملية تطوير تقني للبنية التحتية، بل كان تجسيداً لمخططات عسكرية واستيطانية وضعها مهندسون وضباط فرنسيون لضمان تسلل الاستعمار إلى أعماق الصحراء[2].

فبعد استكمال المحاور الشمالية (الجزائر–وهران، وسكيكدة–قسنطينة)، انتقل الثقل الاستيطاني نحو الهضاب العليا والجنوب بموجب تشريعات قانونية بدأت بمرسوم 8 أفريل 1857. وقد شكلت هذه الخطوط الحديدية 'الأوردة' التي ضمنت تدفق المستوطنين وترسيخ أركان الإدارة الاستعمارية في المناطق الداخلية، محولةً المجال الصحراوي من فضاء مفتوح وصعب المراس إلى منطقة مخترقة وسهلة المراقبة عسكرياً[3].

و في اطار خدمتها للشؤون الاجتماعية نجدها فقد عمدت السلطة الفرنسية منذ الوهلة الأولى إلى التظاهر بالاهتمام بظروفهم الصحية والاجتماعية، وهذا قصد التقرب منهم أكثر والتعرف عليهم عن قرب من أجل إحكام سيطرتهم، فذهب إلى محاولات تنظيم شؤونهم الاجتماعية من خلال رصد الإحصائيات التي تخص التعداد السكاني، إضافة إلى ذلك إلغاء بعض الضرائب التي كانت مفروضة عليهم[4].

كما بذلت السلطة الاستعمارية مجهودات كبيرة من اجل تطوير الصحة والحفاظ على البيئة، حيث خصص الحكام العامون زيارات إلى مستشفيات الجنوب الجزائري وزيارة المرضى والممرضين. وحسب المرسوم الرئاسي صادر في 15 فيفري 1918م الذي يخص أقاليم الجنوب، ينص على تقديم المساعدات الطبية للسكان المحليين وانجاز مصحات ومستشفيات كبيرة نسبيا داخل الثكنات، كما أمر الحاكم العام باتخاذ الإجراءات التالية: تقديم فحوصات مجانية يومية من طرف الأطباء

[1] عبد القادر مرجاني ، المرجع السابق ، ص ص259 261 .

[2] نفسه .

[3] نفسه .

[4] رضوان شافو ، المرجع السابق ، ص 88 89 .

العسكريين، وإقامة دورات في القبائل البدوية من اجل التطعيم، والقيام بمراقبة عامة للحالات الصحية للوقاية ومعالجة الأوبئة [1].

حيث كثفت السلطات الاستعمارية من حلات التطعيم و التلقيح للسكان المسلمين ضد الامراض المعدية عبر المركز الصحية المنتشرة في الصحراء، في محاولة منها لاستمالة و استقطاب السكان الى مؤسساتها و الذين طالما رفضوا الاتصال و القرب منها. فإن كانت هذه السياسة ذات بعد انساني في شعارتها و طرقها الا انها اخفت في طياتها الفكرة الادماجية. فقد كانت تمثل من الوجهة الاستعمارية أهم وسيلة لكسب ود وثقة السكان المحليين [2].

كما تجلى ذلك في سعيها إلى تعميم نظام المقاطعات (المدنية والعسكرية) وتعيين المحافظين المدنيين(Préfet) ، مع إرفاق هذا الهيكل بسياسة استمالة النخب .

كما ركزت في إدماجها على استقطاب القوى المحلية ، وفي مقدمتها أولاد سيدي الشيخ باعتبارهم القاعدة السياسية والروحية للمنطقة؛ غير أن هذا الاستقطاب لم يكن اعترافاً بمكانتهم بقدر ما كان وسيلة لتطويعهم. وكما أشار **شارل روبير**، فإن الهدف النهائي من هذا الإدماج كان جعل تلك الزعامات التقليدية ـــلاسيما في جنوب وهران ـــ تُسلّم بواقعها الجديد، حيث تحولوا من قادة روحيين وقبليين مستقلين إلى مجرد موظفين إداريين خاضعين لسلطة العزل [3]. وبذلك، مثل الإدماج الإداري بداية النهاية للسلطة التقليدية، وبداية ربط المصير الاجتماعي للأهالي بالهيكل البيروقراطي الفرنسي .

ونجدها أيضا فيما اتسمت به القوانين الاستثنائية التي فرضتها السلطات الاستعمارية في الصحراء والجنوب الغربي التي كان لها خلفية أيديولوجية عميقة استهدفت الهوية الوطنية في أبعادها الدينية والاجتماعية.

---

[1] المرجع نفسه ، ص 88 89 .

[2] محمد برشان و آخرون، **انعكاسات السياسية الاجتماعية الكولونية على سكان الصحراء الجزائرية** ، المرجع السابق ، ص 31 .

[3] د. مبخوت بوداوية ، **الاهتمام الفرنسي بالجنوب الغربي الجزائري و ظروف احتلاله** ، المرجع السابق ، ص 118 .

وقد تجلى ذلك في محاصرة مؤسسات المجتمع التقليدي عبر قانون إلغاء القضاء الإسلامي وتهميش التعليم العربي، مقابل إطلاق البعثات الآباء والأخوات البيض التي مارست التبشير تحت غطاء الخدمات الإنسانية[1].ولم يقتصر الإدماج على المؤسسات، بل امتد لـ هدم الرمزية الاجتماعية؛ حيث أصدرت الإدارة قوانين صارمة تمنع الألقاب الفخرية ذات الدلالة الروحية مثل (سيدي، شيخ، مولاي)، في محاولة لقطع الرابط النفسي بين الأهالي ورموزهم التقليدية [2].

هذا الهجوم على للجزائريين ترافق مع تطبيق قانون السيناتوس كونسيلت لعام 1863، الذي قوض السلطات الإدارية والقضائية لشيوخ القبائل، وحولهم من قادة فعليين إلى كيانات هامشية مسيرة من طرف 'الآلة الاستعمارية [3].

والذي مع مطلع القرن العشرين، أضاف التجنيد الإجباري (1912) والحرب العالمية الأولى أبعاداً جديدة لهذا التحول؛ إذ أدى الاحتكاك المباشر بالمجتمعات الأوروبية، سواء في جبهات القتال أو مصانع المعمرين، إلى تغلغل قيم وعادات غريبة عن البيئة المحافظة للجنوب.

هذا الاختلاط القسري أحدث شرخاً في نمط الإدراك والتفكير، حيث تشكلت شخصية جديدة تعيش صراعاً بين قيم الأصالة الموروثة وبين مفرزات لحداثة الاستعمارية التي حاولت إرساء افكاها عبر التعليم والمرأة، مما أدى في النهاية إلى تآكل الروابط العشائرية والتقاليد القبلية لصالح نظام اجتماعي جديد تحت الوصاية الفرنسية [4].

ولم يتوقف الإدماج الاستعماري للصحراء الجزائرية عند حدود الآليات العسكرية والاقتصادية المادية، بل واكبه خطاب كولونيالي تبريري سعى إلى شرعنة سلب سيادة المجتمعات الصحراوية وإلحاقها قسرياً بالمنظومة الاستعمارية تحت غطاء التمدين وجلب الأمن . وتكشف الأطروحات الجغرافية الفرنسية المعاصرة للتغلغل عن طبيعة هذا الادعاء.

[1] الشريف كمال و آخرون ، المرجع السابق ، ص 123 .

[2] نفسه .

[3] نفسه .

[4] نفسه .

حيث صَنّف الخطاب الاستعماري الواحات الصحراوية بعد احتلالها الفعلي على أنها أصبحت جزءاً لا يتجزأ من الإمبراطورية الأفريقية الفرنسية(Partie intégrante) ، واصفاً فرنسا بالوصي الحالي (Tuteur actuel)الذي تكمن مهمته في سحب هذه الأقاليم نحو 'مدار التقدم والحضارة' لتلعب دوراً نافعاً في خدمة المنظومة الكولونيالية [1].

وفي محاولة واضحة لتزييف حقائق الغزو، ركّز النص الاستعماري على مسألة إرساء الأمن المفقود كأولى نعم الاحتلال(Bienfaits) ، زاعماً أن التوغل العسكري الفرنسي وضع حداً لعهود النهب، والقتل، وتدمير أنظمة الري التقليدية الكالفقارات، بل وحماية السكان من البيع في أسواق النخاسة الخارجية. ويمضي هذا الخطاب التبريري لرسم صورة تدعي أن الفلاح والمزارع الصحراوي بات يحصد شعيره ويجني تموره بأمان ويسير نحو الرفاهية الاقتصادية بفضل الفتح الفرنسي[2].

إلا أن هذا يكشف عن خلفيتها الأيديولوجية؛ فالإدارة الفرنسية التي ادعت حماية الواحات والفقارات، هي ذاتها البنية التي وظفت الترسانة القانونية الاستثنائية وسلطة المجالس العسكرية لنهب موارد المنطقة (كالحلفاء والفحم)، وتفتيت بنيتها القبلية المتماسكة، مما يحول هذ الخطاب الكولونيالي من شهادات تاريخية مجردة إلى أدوات بروباغندا استهدفت شرعنة التدخل وبداية الإدماج الفعلي النهائي للجنوب الغربي في المشروع الاستيطاني العام .

كما ان الدمج الاستعماري امتد ليحدث خلخلة واضطراباً في البنية الثقافية والشرعية للمجتمع الصحراوي و ذلك نتيجة دخول آلات نقل وتدفق المعلومات الاستعمارية كالهاتف، والبرق (التلغراف)، والمذياع. هذه الوسائل التقنية التي أنشأتها فرنسا أصلاً لخدمة مصالحها العسكرية واللوجستية، أحدثت عند دخولها لعمق الواحات مثل ما حدث في عين صالح اضطراباً اجتماعياً وفقهياً كبيراً، لاسيما في المسائل التعبدية كإثبات هلال شهر رمضان وشوال بناءً على 'البرقيات المنقولة 'التي أدمجها اللسان الصحراوي حرفياً من الفرنسية باسم 'الدبيش Dépêche 'أو عبر الهاتف[3]

وقد تجسد هذا الاصطدام بين المنظومة العرفية والتقنية الحديثة في الانقسام الاجتماعي بين تيار يرفض هذه الوسائل الغريبة ويتمسك بالرؤية المحلية، وتيار منبهر بالعصرنة يقبلها دون شروط؛ مما دفع

[1] A.G.P . Martin ,Les Oasis Sahariennes Oasis sahariennes ، Op , Cit , t, p379 .
[2] Ibid , t ,P 379

[3] السباعي محمد ، المرجع السابق ، ص 1887 .

النخب الفقهية بالمنطقة إلى محاولة ضبط هذه النوازل المستحدثة. وهو ما يؤكد أن أدوات الإدماج التقني التي زرعها الاحتلال قد نجحت على المدى الطويل في كسر العزلة الجغرافية للصحراء، وصهرها قسرياً في واقع سوسيولوجي وإعلامي جديد أعاد تشكيل الوعي الجماعي للأهالي [1].

خاتمة الفصل :

لم يكن التغلغل الاستعماري الفرنسي في الجنوب الجزائري مجرد احتلال عسكري فحسب، بل شكل مشروعًا استعماريًا متكاملًا استهدف إعادة تنظيم المجال الصحراوي سياسيًا واقتصاديًا واجتماعيًا بما يخدم المصالح الفرنسية. فقد أدى الاحتلال إلى إضعاف السلطة التقليدية وتراجع دور الزوايا وتفكك جزء من البنية القبلية، كما تأثرت التجارة الصحراوية نتيجة ربط الجنوب بالاقتصاد الاستعماري الفرنسي. وبهذا تكون الصحراء الجزائرية قد عرفت تحولات عميقة خلال الفترة الاستعمارية

[1] نفسه

الخاتمة

الخاتمة :

توصلنا في ختام هذه الدراسة التي هي بعنوان التغلغل الاستعمار الفرنسي في الجنوب الغربي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الى جملة من الاستنتاجات يمكن أن نوجزها في ما يلي :

_يتضح ان لجنوب الغربي قبل الدخول الاستعمار الفرنسي كان من المناطق السائبة التي لا تخضع الى سلطة خارجية في المقابل كان لها بيتها السياسية التي كانت قائمة على ثلاث ركائز أساسية، تمثلت في السلطة القبلية من خلال نظام الجماعة أما السلطة الثانية فتمثلت في الزوايا التي لعبت دورا سياسيا رياديا عبر إرساء الأمن و حل النزاعات ، أما النظام الثالث تمثل في نطام التحالفات بيم القبائل كونه حقق التوازن و الحماية بين مختلف القبائل و التجمعات الصحراوية في الجنوب الغربي و كحلف زاقدو .

_شهدت منطقة الجنوب الغربي نشاطا اقتصاديا مزدهرا قبيل الدخول الاستعماري تمثل في نظام القوافل الذي ربطها بالغرب منها الى المغرب و الشرق التي ربطتها بالقوافل الحجيج و الشمال عبر سكان البحر المتوسط و الجنوب التي ربطتها بمناطق السودان الغربي ، حيث نشأت علاقات تجارية و ثقافية ساهمت في ازدهار المبادلات و انتقال التأثيرات الحضارية منها الدينية خاصة الى الجنوب ومناطق السودان الغربي و تمبكتو ، كما تميزت المنطقة بتنوع أنشطتها الاقتصادية المحلية بين الزراعة و التجارة و الحرف التقليدية ، وهو ما ساهم في خلق حركية اقتصادية محلية. إضافة إلى ذلك، تحولت واحات الجنوب الغربي إلى مراكز لتجميع السلع القادمة من الشمال والجنوب وإعادة توزيعها الى المناطق الأخرى .

_ساهم الموقع الجغرافي لمنطقة الجنوب الغربي في ازدهارها خاصة في المجال الاقتصادي ، وكونه مجالا منعزلا نسبيا عن السلطة المركزية مكنه من استقطاب المعارضين والهاربين، حيث وفرت لهم بيئة آمنة نسبيًا سواء ضد السلطة المركزية أو ضد القوى الخارجية، مما رسخ مكانتها التاريخية كفضاء للجوء والاستقرار خارج نطاق السيطرة المباشرة للأنظمة المتعاقب و هذا ما رأيناه مع لجوء الكثير من المقاومين الى المنطقة ، ما ادى في الأخير الى تبلور رؤية جيوسياسية لدى فرنسا على المنطقة .

_اما بخصوص البعثات العسكرية والعلمية نحو الجنوب الغربي فوجدت انها لم تكن مجرد رحلات استكشافية، بل كانت ذراعاً مهدت للاحتلال الفرنسي؛ حيث تحولت الخرائط ودراسة المسالك

والآبار من أدوات جغرافية إلى مخططات عملية كسرت عزلة المنطقة وجعلتها مسرحاً مكشوفاً للتحرك العسكري. التي كان الضباط والرحالة لهم دور في جمع بيانات استخباراتية دقيقة حول الطبيعة والسكان فمن خلال توظيف هذه المعارف، التي أدت في الأخير الى تمكن فرنسا من إحكام قبضتها على منطقة الجنوب الغربي .

_و بجانب هذا اعتمدت فرنسا قبل بسط نفوذها في المنطقة على سياسة الاختراق غير المباشر التي كانت تهدف إلى تطويق المنطقة سياسياً واقتصادياً وروحيًا ، من خلال إقامة تحالفات مع الزوايا و القادة القبائل ، ورسم مسارات السكك الحديدية، . لكن ومع محاولات الاختراق الفرنسي للمنطقة اصطدمت بالرفض المحلي فمن المقاومة التي اعتمدت على التضليل المعلوماتي و ردم الآبار لكسر شوكة المستكشفين، إلى المقاومة المسلحة العنيفة التي قادها رواد مثل أحمد بوشوشة وأولاد سيدي الشيخ .

_بعد ما قامت فرنسا بتسوية طريقها عبر الاختراق السلمي اتجهت الى الاحتلال العسكري المباشر من خلال الحملات العسكرية ، عبر السيطرة على الواحات بدءا بعين الصفراء الى اخضاع منطقة الساورة الى جانب عسكرة الطرق التجارية و بناء المراكز تجارية .

_ واجهه الاستعمار الفرنسي جراء الاحتلال العسكري مقاومة حادة من مختلف القوى المحلية حيث برزت المقاومة القبلية الى جانب مقاومة الزوايا الدينية الت تجسدت خاصة في مقاومة الشيخ بوعمامة و الشيخ باجودة التي اعتمدت على تعبئة السكان و إقامة تحالفات بين القبائل لمواجهة التوسع الاستعماري و الدفاع عن المنطقة . وبعد ما فرضت قوتها العسكرية ، انتقلت بهذا الى اخضاع المجال الصحراوي عن طريق إعادة تنظيم الإدارة العسكرية و إعادة تنظيم القبائل و تفكيك روابطها التقليدية ، و رافق هذا ترسيم الحدود الاستعمارية المصطنعة للمنطقة .

_احدث الاستعمار الفرنسي تحولات عميقة في الاطار السياسي للجنوب الغربي ،تمثلت في تفكيك السلطة السياسية التقليدية و تهميشها ، من خلال الاعتماد على أعوان محليين لضمان بسط نفوذها مع الإبقاء على الهيكل القبلي شكليا . ومن جهة أخرى عملت على إحلال سلطة الإدارية و قضائية جديدة ، عبر استحداث مناصب مثل الأغا و القايد و الباشاغا ، و جعل أصحابها وسطاء بين الإدارة الاستعمارية و السكان المحليين .

_تأكد من خلال الدراسة، بأن سياسة فرنسا التعسفية في المجال الاقتصادي، لم تترك أي مورد للرزق الأهالي الصحراء فاستولت على الأراضي الفلاحية كما قامت بفرض ضرائب في المقابل سمحت للمعمر بإقامة مؤسسات احتكارية والسيطرة على طرق المواصلات، كما وضعت شبكة من طرق المواصلات الحديدية والبرية، وأسلاك الهاتف من أجل تنقل القوات العسكرية والمغامرين في ظروف آمنة بين أرجاء الصحراء المترامية الامر الذي كان يهدف الى ربطها بالاقتصاد الفرنسي .

_ وقد تبين من خلال الدراسة، بأن السياسة الاجتماعية التي طبقها الاستعمار في الجنوب الجزائري هدفت الى تحطيم الكيان الديني بالدرجة الأولى كونه الكيان الأول المؤثر في المنطقة كما انها في المقابل سعت الى إعادة هيكلت النظام القبلي، فلم تؤدي إلى تحطيم سلطة القبيلة ككيان بقدر ما أدت إلى تعطيل قوتها و حكمها على المجتمع ، ومحاولة إفراغ مهامها من محتواها الحقيقي وتحوير أدوارهم ووظائفهم وجعلها في خدمة الاستعمار وسياسته وعليه تخلص أن الاستعمار لم يهدف إلى إضعاف البنية القبلية و الدينية في الصحراء بل على العكس من ذلك، فإنه عمل على تقويتها لاعتبارات إدارية وسياسية واقتصادية.

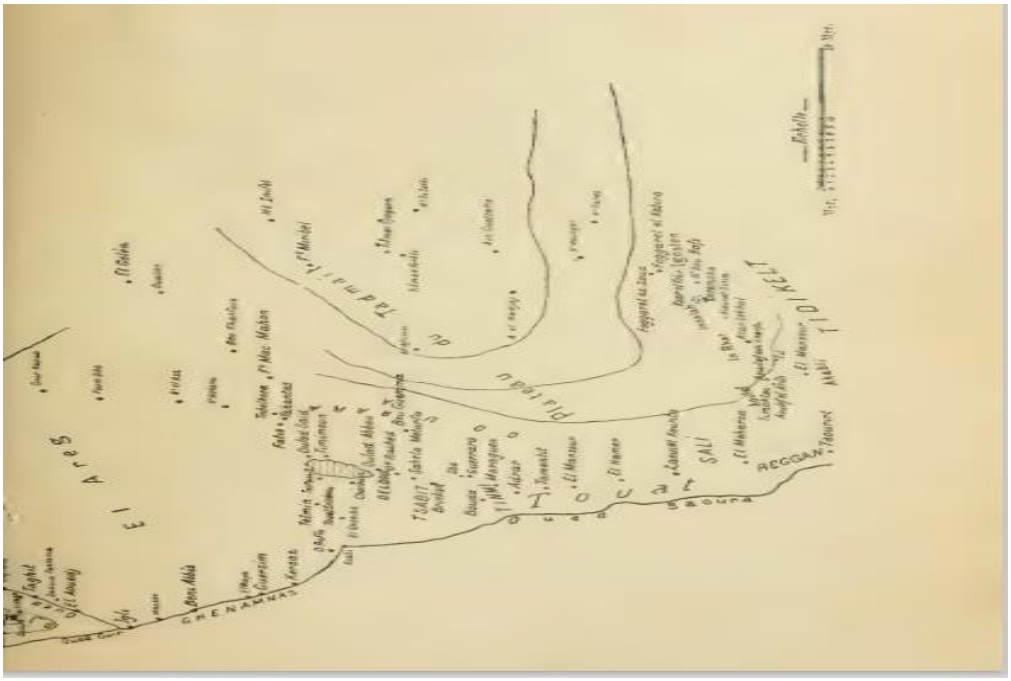
توصيات :

_التعمق في دراسة تاريخ الجنوب الغربي الجزائري لما يزخر به من أحداث و تحولات تاريخية .

_الاهتمام بالكتابات الفرنسية المتعلقة بالمنطقة و العمل عليها لما تتضمنه من معطيات تساعد على فهم أوضاع المنطقة و أساليب التغلغل الفرنسي فيها.

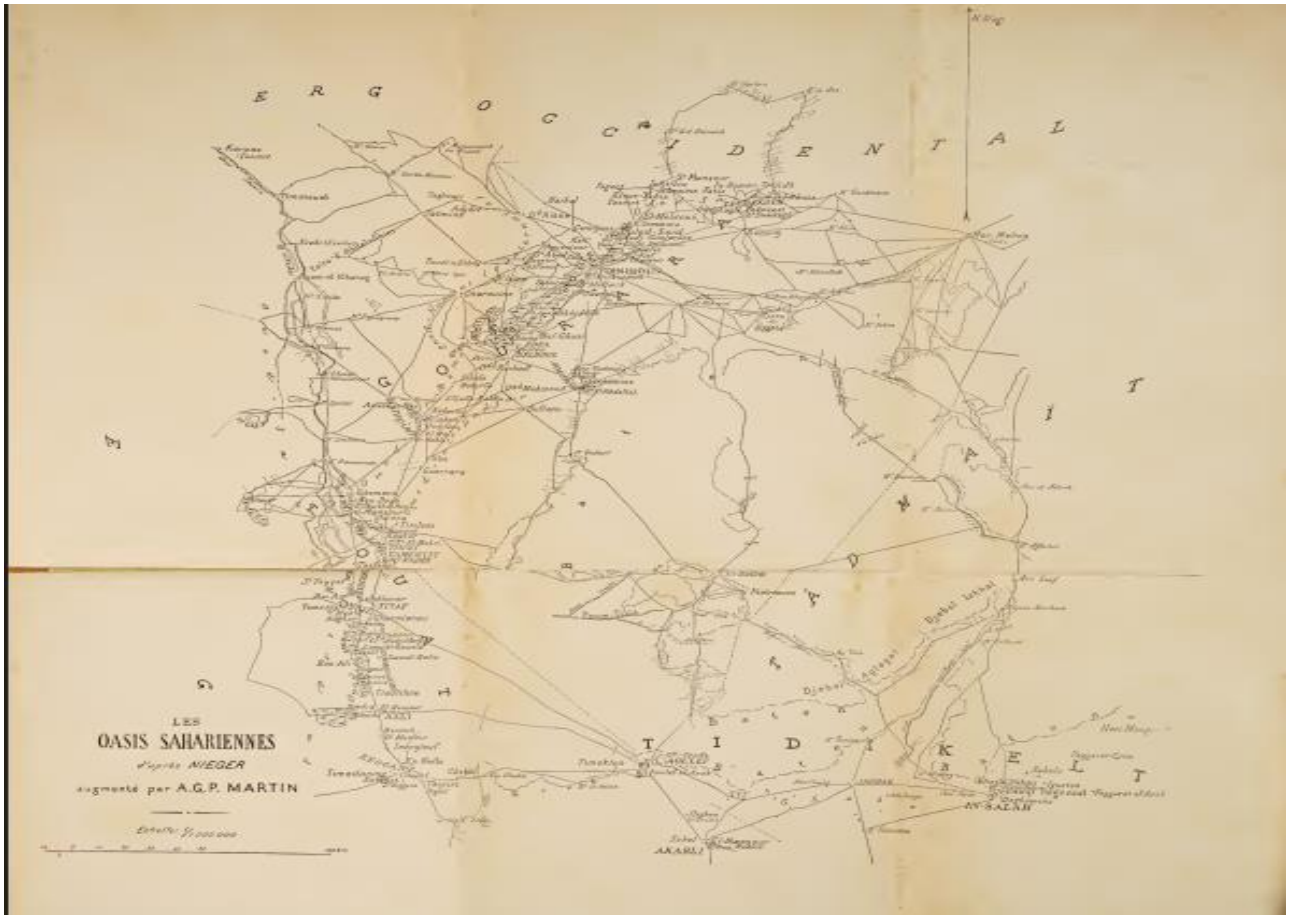
الملاحق

ملحق رقم 01 [1]: خريطة تمثل قصور أقاليم توات قورارة و تيدكلت و الساورة .



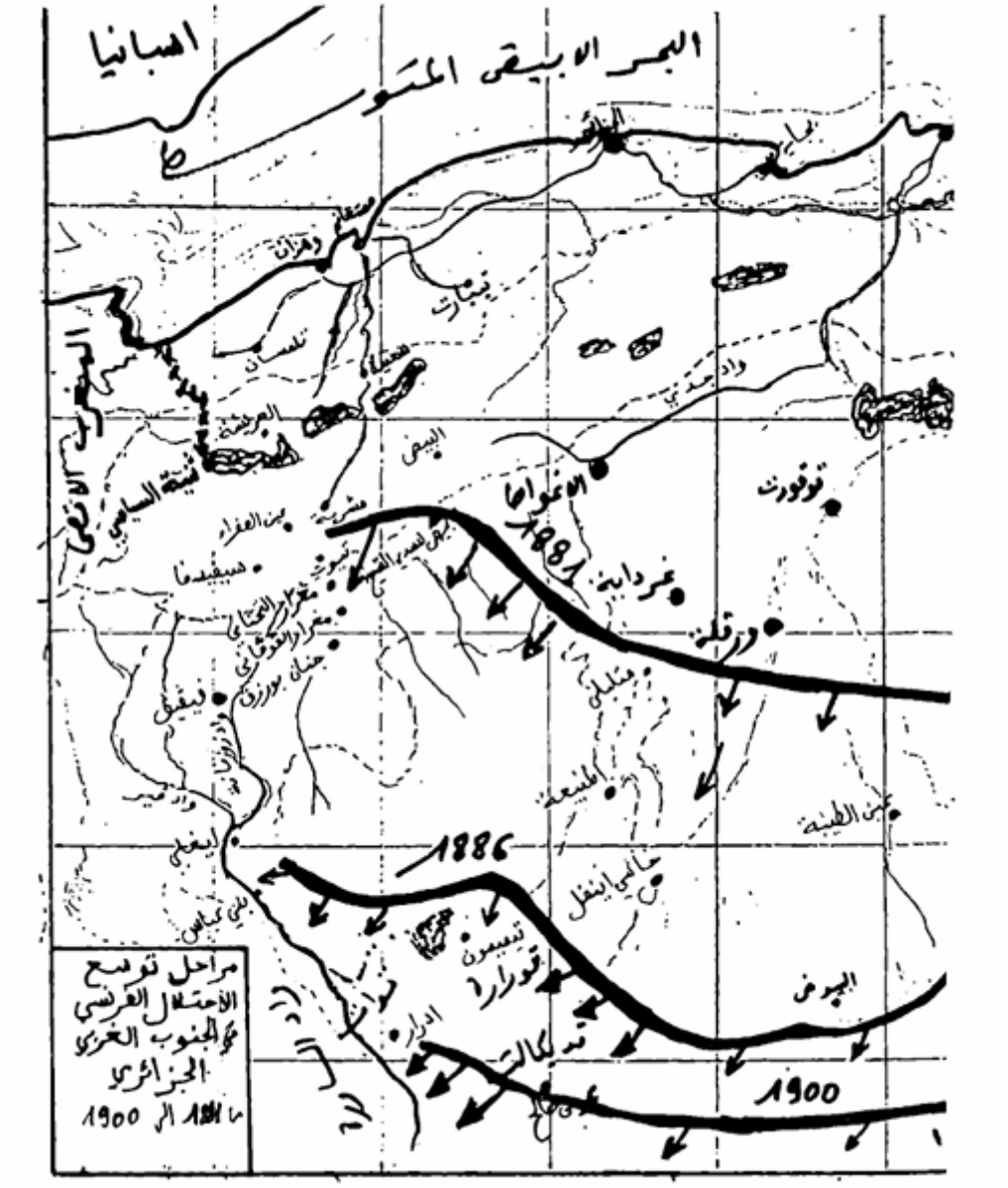
[1] Tillion, , La Conquête des Oasis Sahariennes : opérations au Tidikelt, au Gourara, au Touat, dans la Zousfana et dans la Saoura en 1900 et 1901, Paris, Henri Charles-Lavauzelle, s.d., p169.

ملحق 02 [1]: خريطة الواحات الصحراوية توات قورارة تيديكلت رسمت من قبل ماري أوجست نيجير و تم تعديلها جورج بول مارتن



[1] A.G.P . Martin ,Op , Cit ,p435.

ملحق رقم 03 [1] : خريطة تمثل مراحل توسع الاحتلال الفرنسي في الجنوب الغربي الجزائري



[1] ابراهيم المياسي ، المرجع السابق ، ص 214 .

قائمة المصادر والمراجع

مصادر عربية :

- ابرهاردت ايزابيل ، **يوميات الطريق "عودة العاشق المنفي "**، تر: ميهي عبد القادر ، مطبعة الوليد ، الجزائر ، 2006 ، ص 139 .
- ابن خلدون عبد الرحمن ، **العبر و الديوان المبتدأ و الخبر** ، د ن ، بيروت ، 1967 ، ج7.
- ابو سالم العياشي ، **الرحلة العياشية** ، تحقيق محمد حاجي ، ج1 ، ط2 ، دار المغرب للتأليف و النشر ، 1977 .
- الأغواطي ابن الدين ، **مجموعة رحلات رحلة الأغواطي** ، تح : أبو القاسم سعد الله ، المعرفة الدولية للنشر و التوزيع ، الجزائر 2011 .
- البستاني بطرس ، **كتاب دائرة المعارف** ، مج السادس ، مؤسسة مطبوعاتي إسماعيل ، طهران.
- حسن الوزان ، **حسن بن محمد الوزان** ،وصف افريقيا ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1989 .
- السعدي ، **تاريخ السودان** ، مطبعة برلين ، المانيا ، 1898 ،

مصادر فرنسية :

- A.G.P . Martin ,Les Oasis Sahariennes Oasis sahariennes (Gourara _ touat , tidikelt) , Ed Augustin Challamel, 1908
- Camille Sabatier،Touat Sahara et Soudan étude géographique politique économique et militaire Ed société d éditions scientifiques paris
- champeaux guillaume ،A travers les oasis saharienne les spahis sahariennes ed R.chapelot paris 1903
- Commandant REBILLET, Les relations commerciales de la Tunisie avec le Sahara et le Soudan, imprimerie Berger Lavirault, Nancy, 1895
- H.bissuel ,Le Sahara français ، conférence sur les questions sahariennes, faite les 21 et 31 mars 1891 à MM. les officiers de la garnison de Médéa, Ed A.Jourdan , 1891
- le Dr a casset , Dan le sud oranais souvenirs d'un médecin militaire ، bureaux de réveil médicale, paris.
- Malhes Edmond ,La question du touat des moyens dont la France peut user pour faire pénétrer son influence dans la région des areg , Ed H.Chrles lavauzelle ,1895 Paris
- Voinot Louis, Le Tidikelt ، étude sur la géographie , L'histoire ,les moeur du pays , Ed J.Gardini , 1909.
- Tillion, , La Conquête des Oasis Sahariennes : opérations au Tidikelt, au Gourara, au Touat, dans la Zousfana et dans la Saoura en 1900 et 1901, Paris, Henri Charles-Lavauzelle, s.d.

مراجع عربية :

- الادريسي عبد الله حمادي ، **الاستبصار في تاريخ بشار و ماجورها من الامصار** ، ج 1 ، الطبعة الأولى ، وزارة الجزائر ، الجزائر .
- الادريسي عبد الله حمادي، **الفوات من تاريخ توات و صحاري و الجهات** ، الجزء 2 ، دار الكتاب الملكي ، ط1 ، 2013 م .
- اندري نوتشي و آخرون ، **الجزائريين بين الماضي و الحاضر** ، تر رابح اسطمبولي و منصف عاشور ، الجزائر ، الديوان المطبوعات الجامعية ، 1984 م
- الاشرف مصطفى، **الجزائر الامة و مجتمع** ، تر : د حنفي بن عيسى ، دار القصبة للنشر ، 2007 .
- برشان محمد، **النشاط السياسي بملحقة بدايات العمل العسكري و الثوري عين الصفراء 1912 /1942** ، دار المعابر للنشر و التوزيع وزارة الثقافة ، الجزائر ، 2013 .
- بلعالم محمد باي ، **الرحلة العلية** ، ج1 ، دار الهومة ، الجزائر ، 2005 .
- بلعالم محمد باي ، **الرحلة العلية الى منطقة توات** ، ج2 ،ادرار . 2007 .
- بوباية عبد القادر ، **صفحات من تاريخ الصحراء الجزائرية تيديكلت و الهقار** ، ط2 ، دار المثقف ،باتنة الجزائر ، 2020
- بوعزيز يحي, **ثورات القرن العشرين** ، علم المعارف الجزائر ، 2009 .
- بوقرين عيسى، **المقاومة الشعبية في الجنوب الشرقي الجزائري 1850/ 1875** ، دار طليطلة ، 2022.
- جعفري بن صافي مبارك, **العلاقات الثقافية بين توات و السودان الغربي خلال القرن الثاني عشر هجري** ، دار السبيل للنشر و التوزيع , الجزائر ، 2009 ، .
- جعفري مبارك ، **مقالات و ابحاث و تراث منطقة توات** ، الجزائر ، دار الكتاب ، 2016.

- جعفري مبارك ، **نظام القصوري الواحاتي و دوره في تطوير منطقة توات بين القرن 9 و 13 هـ / 15 و 19** ،المهرجان الوطني الثاني حول استراتن ،الجزائر ، 2018
- . جوزفين كام ، **المستكشفون في إفريقيا**، تر: السيد يوسف نصر، مر: محمد على وقاد دار المعارف، القاهرة، 1983 .
- جمال قنان ، **قضايا و دراسات في تاريخ الجزائر الحديث و المعاصر** ، منشورات المتحف الوطني للمجاهد ، المؤسسة الوطنية للاتصال و الاشهار ، الجزائر ، 1994 .
- حوتية محمد صالح، **توات و الازواد** ،ط1، دار الكتاب العربي ، 2008
- محمد صالح حوتية ، **توات و الازواد** ، ج2 ، دار الكتاب العربي ، 2007.
- خليفي عبد القادر ، **المقاومة الشعبية للشيخ بوعمامة** ، ديوان المطبوعات جامعية ، الجزائر 2010
- درواز الهادي ، **الولاية السادسة التاريخية تنظيم ووقائع 1954/ 1962** ، سلسة اوراق من الذاكرة ، دار هومة ، الجزائر ، 2009.
- زوزو عبد الحميد ، **ثورة بوعمامة 1881 /1908 م** ، جانبها العسكري 1881 1883 ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزائر 1986 م.
- زوزو عبد الحميد ,**نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر المعاصر 1830 /1900** ، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ، الرغاية الجزائر ، 2009 .
- سعد الله ابو القاسم , **محاضرات في تاريخ الجزائر الحيث و بداية الاحتلال** ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزائر ، 1982 .
- سعد الله أبو القاسم، **الحركة الوطنية الجزائرية 1830 / 190**، ط1 ، ج1 ، بيروت ، دار الغرب الإسلامي ، 1992 .
- سعد الله أبو القاسم ، **تاريخ الجزائر الثقافي** ، ج4 ، دار الغرب الاسلامي ، بيروت ، 1998.

- شافو رضوان ، **جوانب من السياسة الاستعمارية في صحراء الجزائر من خلال الوثائق الارشيفية و تقارير السلطة الاستعمارية** ، دار الوسائط .
- الشريف كمال دحومان الحسني ، **أشراف الجزائر ودورهم الحضاري في المجتمع الجزائري** ، دار الخلدونية.
- العربي إسماعيل، الصحراء الكبرى و شواطئها ، **المؤسسة الوطنية للكتاب** ، الجزائر .
- العماري احمد، **توات في مشروع التوسع الفرنسي** ، منشورات كلية الاداب ، فاس ، المغرب ، 1988 .
- عميراوي احميدة، **قضايا مختصرة في تاريخ الجزائر الحديث** ، الدار الهدى ، عين مليلة ، 2005 .
- فرج محمود فرج ، **إقليم توات خلال القرنين الثامن عشر و التاسع عشر الميلاديين** ، ديوان المطبوعات الجامعية ، 2007 .
- قلاتي دحمان تواتي رموم محفوظ عبد الله، **دور أقاليم توات خلال الثورة التحريرية** ، دار الشروق .
- مرموري حسن ، **التوارق بين السلطة التقليدية و الإدارة الفرنسية في بداية القرن العشرين** ، ط1 ، منشورات مجلس الأعلى للغة العربية ، الجزائر ،2010 .
- مولاي التوهامي الغيثاوي ، **لفت الأنظار الى ما وقع من نهب و تخريب و الدمار بولاية ادرار ابان احتلال الاستعماري** ، ط 2 ، دار الكتاب العلمية ، بيروت ، 2011 .
- محمد برشان ، **الحياة الاجتماعية و الاقتصادية و الثقافية بمنطقة بشار** ، الجزائر ، دار ام البراهمن للنشر و التوزيع ، 2016 .
- مقلاتي عبد الله رموم محفوظ ، **دور منطقة توات الجزائرية في نشر الإسلام و الثقافة العربية بإفريقيا العربية** ، وزارة الثقافة ، الجزائر ، 2009.

- مياسي ابراهيم , **التوسع الاستعمار الفرنسي في الجنوب الغربي الجزائري** ، منشورات المتحف الوطني للمجاهد ، الجزائر 1996 .
- مياسي ابراهيم ، **الاحتلال الفرنسي للصحراء الجزائرية 1837/ 1934** ، الجزائر ، دار هومة.
- جمال قنان ، **قضايا و دراسات في تاريخ الجزائر الحديث و المعاصر** ، منشورات المتحف الوطني للمجاهد ، المؤسسة الوطنية للاتصال و الاشهار ، الجزائر ، 1994 ،ص 143 .
- لهادي درواز ، **الولاية السادسة التاريخية تنظيم ووقائع 1954/ 1962** ، سلسة اوراق من الذاكرة ، دار هومة ، الجزائر ، 2009 .

مقالات :

- ايلال نور الدين ، **الوضع الاقتصادي في اقليم توات قبل 1901** ، مجلة الدراسات و الابحاث ، جامعة البليدة
- برشان محمد ، سي عبد القادر سباعي ، **انعكاسات السياسية الاجتماعية الكولونية على سكان الصحراء الجزائرية** ، مجلة متون ، المجلد 11 ، العدد ، 4 ، ص 24
- برشان محمد ، **التنظيم الاداري الاستعماري في الجنوب الجزائري 1902 /1960**، جامعة طاهري محمد ، بشار .
- بلغازي سعاد، **تاريخ ذوي المنيع في منطقة جنوب الغربي** ، مجلد 09 ، العدد 01 .
- بلغيث محمد امين ، **سياسة التوسع الفرنسي في الجنوب الغربي من خلال فتوى قورارة** .
- بن عالية وفاء، **دور الزوايا توات في الحفاظ على الشخصية الوطنية و الطرق الصوفية** ، المدرسة العلية للأساتذة ، بوزريعة .
- بن قويدر صخرية ، **الدور التجاري للقوافل المارة بمنطقة الجنوب الغربي الجزائري في العهد العثماني** ، المجلد 25 ، العدد، 02 ، المركز الجامعي مرسلي عبد الله ، تيبازة ، 2024

- بوبايية عبد القادر ، **دور الرحالة و المستكشفين في حركة التوسع الفرنسي في الصحراء الجزائرية** ، مجلة العصور ،جامعة وهران ، عدد 5و 6 ، ديسمبر 2003 ، جوان 2004 .
- بوداوية مبخوت , **الاهتمام الفرنسي بالجنوب الغربي الجزائري وظروف احتلاله** ،المجلة المغاربية للدراسات التاريخية , العدد الاول ,جامعة ابو بكر بلقايد , تلمسان .
- جندي عبد الحميد ، **إقليم توات و أهميته في التجارة الصحراوية** ، العدد 5 ، ماي 2018 ،المجلة الجزائرية للدراسات التاريخية و القانونية ،جامعة ابن خلدون ، تيارت .
- مبارك جعفري ، **الشهيد مولاي عبد الله بن مولاي عباس الرقاني قائد مقاومة الدغامشة بعين صالح حياته و جهاده 1833 /1900 م** ، جامعة احمد دراية ، ادرار ، مجلة المعارف للبحوث و الدراسات التاريخية .
- حامد لمين إبراهيم ،**الحركة التجارية بين إقليم توات و السودان الغربي خلال القرنين 18 /19 م** ، مجلة الروافد للبحوث و الدراسات ، العدد الأول ، جامعة غرداية،2016،
- رموم محفوظ، **الاحتلال الفرنسي لأقصى الجنوب الغربي الجزائري و المجابهة العسكرية و الثقافية** ،جامعة ادرار .
- رموم محفوظ ، **الزوايا و أدوارها الاجتماعية بمنطقة توات** ، المجلة التاريخية الجزائرية ،جامعة أدرار .
- سباعي سيدي عبد القادر ، **تخطيط القصور في الجنوب الغربي الجزائري مقاربة سسيولوجية** ، جامعة الطاهري محمد بشار ، م 26 ، ع4 ، 2022 .
- سباعي سيدي عبد القادر، **الاستعمار الفرنسي و النظام القبلي في الجزائر بين تفكيك و تكيف** ، مجلة الدراسات ، ع السابع ، جامعة الطاهري ، بشار ،جوان 2015 .
- سباعي محمد ، **الحياة الاقتصادية في الجنوب الغربي ابان الاحتلال الفرنسي من خلال فتاوي الشيخ مولاي الطاهري** ، مجلة البشائر الاقتصادية ، مج 5 ، ع 2 ، اوت 2019

- شبلي ربيعة ، **الزاوية الزيانية ودورها في منطقة الساورة الى غاية القرن 19** ، م 27، ع5، 2023 ، جامعة الطاهري محمد بشار.
- **صديق الحاج ، العلاقة الثقافية بين توات و الحواضر المجاورة ، جامعة ادرار .**
- الطاهري عبد المالك بوسعيد احمد ،**الرحالة و المستكشفون في توات خلال القرن التاسع عشر و دورهم في احتلال المتطقة** ، مجلة عصور الجديدة، جامعة احمد درارية ، ادرار ، عدد 04 ، المجلد 10 .
- العماري احمد ، **توات في مشروع التوسع الفرنسي بالمغرب من حوالي 1850 /1902 م** ، ط1 ، منشورات كلية الادب و العلوم الانسانية بفاس ، جامعة سيدي محمد بن عبد الله ، 1988م .
- عميراوي احميدة ، **السياسة الإدارية في الشرق الجزائري من خلال مشروع لويس بلانكي** ، المصادر ، ع السادس ، مارس 2002 م .
- عواريب لخضر ، **بعض الحقائق عن مقاومة الشريف بوشوشة من خلال بعض المصادر المحلية و منها الشهادة التي أملاها بوشوشة على سجانه** ، مجلة العلوم الإنسانية و الاجتماعية ، ع 17 .
- فاطمة حباش ، **الوضع في منطقة الجنوب الغربي خلال العهد العثماني و بداية الاحتلال الفرنسي** ، العصور ، الاعداد 13/12 14/15 ، 2008 /2009 .
- فاطمة حباش، حمري ليلى ، **سياسة التفكيك و الاقصاء السياسي للقبيلة الجزائرية من خلال نظام المكاتب العربية ايبان الاحتلال الفرنسي 1844/ 1870** ، المجلد ، 08 ، العدد 02 ، 2024 .
- فقيقي محمد لكبير ، **صحراء ومنطق العصبية القبلية ، الجنوب الغربي نموذجا ، مجلة ساورة للدراسات الانسانية و الاجتماعية** ، المجلد 07 العدد ، 02، 2021

- منصورية قدور ، **دور قبيلة كنتة في تاريخ اقليم توات** ، مجلة قرطاس ، المجلد 07 ، العدد 01 ، جانفي 2015 ، جامعة ابو بكر بلقايد ، تلمسان .
- نواصر عبد الرحمان ، **السياسة الاستعمارية الفرنسية في الجنوب الجزائري ما بين 1873/ 1962 م منطقة المنيعة نموذجا** ، مجلة الروافد للبحوث و الدراسات ، جامعة غرداية الجزائر ، ع1 ، ديسمبر .
- هقاري محمد ، **تداعيات الاحتلال الفرنسي على النظام الاجتماعي و السياسي التقليدي لسكان منطقة الهقار 1902 مجلة الموروث** ، م 05 ع 01 .
- عبد الكريم طهيري ،**توات في مشروع التوسع الاستعماري الفرنسي بالجزائري خلال القرن 19** ، مجلة الرفوف ، ع 02 ، مج 11 ، جامعة ادرار ،

مذكرات :

- بابا عبد الله ، **الحياة الاجتماعية و الاقتصادية بتوات ايبان الاحتلال الفرنسي 1900 /1962** ، من خلال سجلات المحكمة الشرعية ، أطروحة دكتوراه ، جامعة أدرار ، الجزائر ، 2019/ 2018
- بلعروسي عبد الفتاح ، **المقاومة الثقافية في اقليم توات خلال الفترة الاستعمارية 1900 /1962**، اطروحة لنيل شهادة الدكتورة ، جامعة ابي بكر بلقايد ،2021 2022 .
- بولافة حدة ، **واقع المجتمع المدني الجزائري ابان الفترة الاستعمارية و بعد استقلال** ، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في العلوم السياسة ، تخصص السياسات العامة و الحكومات المقارنة ، كلية الحقوق و العلوم السياسية ، جامعة باتنة ، 2010 /2022 ،
- حلالس سعاد خوجة دنية،**التوسع الفرنسي في الجنوب الغربي الجزائري 1881 /1908م**، مذكرة لنيل شهادة الماستر ، جامعة ابن خلدون تيارت ، 2016 2017 .

- شريط نورة بارد رجلين فاطمة الزهراء ، **المقاومة الشعبية المسلحة في إقليم توات الكبير من 1850 /1918**، مذكرة لنيل شهادة الماستر ، تاريخ المغرب العربي المعاصر ، جامعة ابن خلدون تيارت .
- الطاهر موسى ، **استكشافات الأوروبية للصحراء الجزائرية خلال القرن 19 م** ، مذكرة لنيل شهادة الماجيستير ، تخصص تاريخ ، جامعة بشار ، 2012 / 20013 .
- طهيري عبد الكريم، **منطقة توات و اسهاماتها في المقاومة الشعبية الجزائرية 1883 /1903**، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه ، تاريخ حديث و معاصر ،2024 2025 ، جامعة شلف .
- مرجاني عبد القادر،**السياسة الفرنسية و دور المستكشفين في التوغل في الجنوب الجزائري** ، تاريخ الحديث و المعاصر ، جيلالي ليابس ، سيدي بلعباس ،2019 / 2020 .

فهرس الموضوعات

شكر

اهداء

المقدمة:.....1

الفصل الأول : الجنوب الغربي قبيل التغلغل الاستعماري.....9

المبحث الأول : البنية السياسية للجنوب الغربي 9

أولا : القبائل و القيادات المحلية..... 9

ثانيا : السلطة الدينية الزوايا و الطرق الصوفية 15

ثالثا : نظام التحالف في الجنوب الغربي 18

المبحث الثاني : الاقتصاد الصحراوي وشبكات التجارة 22

أولا : القوافل العابرة 22

ثانيا : العلاقة مع السودان الغربي و تمبكتو.....26

المبحث الثالث : الأهمية الاستراتيجية و العملية للصحراء.....36

أولا : البعد الافريقي للصحراء 36

ثانيا : الصحراء كعمق دفاعي للجزائري.....38

ثالثا: رؤية فرنسا الجيوسياسية 41

الفصل الثاني : مرحلة الاستكشاف و الاختراق السلمي 1844 / 1881.....47

المبحث الأول : البعثات العسكرية و العلمية.....47

أولا: خرائط و استطلاع.....47

ثانيا : دور الضباط و الرحالة 51

المبحث الثاني : سياسة الاختراق غير مباشر 59

أولا : التحالف مع القيادات المحلية.....59

ثانيا : استمالة الزوايا.....63

ثالثا :التجارة والدبلوماسية الاستعمارية : 67

المبحث الثالث : ردود فعل محلية.....70

أولا : مواقف قبائل 70

ثانيا : الحذر اهالي من الفرنسيين 72

ثالثا : بداية المقاومة.....75

الفصل الثالث : الاحتلال العسكري للجنوب الغربي 1881 / 1902.....91

المبحث الأول : الحملات العسكرية الكبرى.....91

أولا : احتلال الواحات.....91

ثانيا : السيطرة على الطرق التجارية 96

ثالثا : بناء المراكز العسكرية.....100

المبحث الثاني : المقاومة العسكرية 103

أولا : المقاومة القبيلة.....103

ثانيا : دور الزوايا في الجهاد 109

ثالثا : التحالفات ضد التوسع الفرنسي 113

المبحث الثالث : اخضاع المجال الصحراوي 116

أولا : نظام الإدارة العسكرية..... 116
ثانيا : إعادة تنظيم القبائل 119
ثالثا : فرض حدود استعمارية 122
الفصل الرابع : نتائج التغلغل الاستعماري..... 131
المبحث الأول : التحولات السياسية 131
اولا: تفكيك السلطة التقليدية 131
ثانيا : بروز الإدارة العسكرية..... 136
المبحث الثاني : التحولات الاقتصادية 140
أولا : انهيار التجارة الصحراوية التقليدية..... 140
ثانيا :ربط الجنوب بالاقتصاد الاستعماري 146
المبحث الثالث: التحولات الاجتماعية والثقافية 149
أولا : تراجع دور الزوايا 149
ثانيا: إعادة تشكيل المجال القبلي 154
ثالثا : بداية الادماج الاستعماري للصحراء..... 157
الخاتمة..... 163
الملاحق..... 165
قائمة المصادر والمراجع..... 169

ملخص :

شهد الجنوب الغربي الجزائري قبيل التغلغل الاستعماري تنظيما سياسيا و اجتماعيا قائما على القبائل و الزوايا و التحالفات الصحراوية ، كما مثل مركزا مهما للتجارة العابرة للصحراء بفضل موقعه المتوسط بين الشمال و الجنوب و الشرق و الغرب ، و قد أثارت مكانته الاستراتيجية اهتمام فرنسا التي اعتمدت في البداية على الاستكشاف و الاختراق السلمي عبر البعثات العسكرية و العلمية و استمالة القيادات المحلية ، قبل الانتقال الى الاحتلال العسكري و اخضاع المجال الصحراوي بالمراكز العسكرية و الإدارة الاستعمارية ، و رغم المقاومة التي ابدتها القبائل و الزوايا ، فقد أدى التوسع الفرنسي الى احداث تحولات سياسية و اقتصادية و اجتماعية عميقة مست بنية الجنوب الغربي .

Abstract :

Before colonial penetration, southern Algeria was characterized by a political and social organization based on tribes, religious brotherhoods, and Saharan alliances. It also represented an important center for trans-Saharan trade through its connections with Western Sudan and Timbuktu, while the oases played a major economic role. Due to its strategic importance, France became increasingly interested in the region and initially relied on exploration and peaceful penetration through military and scientific missions, as well as alliances with local leaders, before moving toward direct military occupation and the establishment of colonial administration. Despite the resistance led by tribes and religious authorities, French expansion brought profound political, economic, and social transformations that deeply affected the structure of southern Algeria.